بيسان

الحب... والكراهية

تدقيق إملائي ولغوي
د. عبدالله بدران
أ. عيد الحوقان
@Eid_nafe

بيسان

الحب... والكراهية

رواية

عادل الرشيدي

عادل الرشيدي.
بيسان الحب.. والكراهية/ عادل الرشيدي. ط1.
الكويت:
428 ص ؛ 20 سم.
ردمك: 978-99966-80-00-7
رقم الإيداع: 2016/68

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦م

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي

من أراد

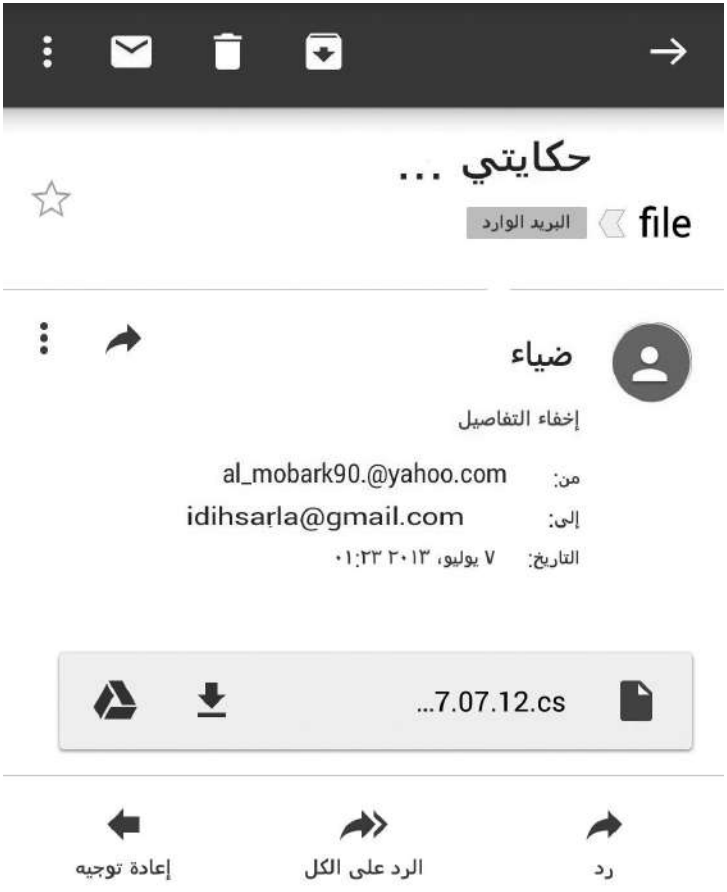
أن يرى الصداقة الصادقة بصفاتها النَبيلة

مُتجلية في هيئة شخص فلينظر إلى من

أهديته هذه الرواية

أهديها إلى ..

م . عبدالوهاب بن محيسن الصليلي


حكايتي ...
file
البريد الوارد
ضياء
إخفاء التفاصيل
من: al_mobark90.@yahoo.com
إلى: idihsarla@gmail.com
التاريخ: ٧ يوليو، ٢٠١٣ ٠١:٢٣
...7.07.12.cs
رد
الرد على الكل
إعادة توجيه


ذكريات . بيسان
البريد الوارد
إخفاء التفاصيل
من: bissan_len.a@gmail.com
إلى: idihsarla@gmail.com
التاريخ: ٦ أكتوبر، ٢٠١٣ ٢٣:٣١
مريرة الدنيا.. بلا حب.pdf
PDF

البداية

الأشياء غالباً ما تكون في بداياتها... صعبة دائماً وثقيلة جدًا، أتذكر تلك الليلة المُغبرة بغبارها الذي تخلل الأنوف، وحجب الأفق وأسمعَ صفيرَ لحنها الآذان!

وجعل وشاح الليل الأسود مُصفرًا، في تلك الليلة فتحتُ أول رواية قرأتها، ابتدأها كاتبها بجملة تبدت لي حقيقتها حين شرعت في كتابة قصتي لكِ.

القاعدة واحدة لكل شيء.

تتزاحم الأفكار وتتصارع الأحرف وتتشابك الصور والذكريات، لتفوز بالأسطر الأولى لقصتنا، تريد الحياة على أديم صفحات الكتب، تروم الانتقال إلى عقول الآخرين، ساعة قراءتها لتعشعش في مخيلتهم.

كيف لي أن أبدأها؟

أأبدأ بكِ حين بدد ضياء حبكِ ظلاما ملأ قلبي وأعمى عينيّ أيامًا خلت، أم بأحاديث جدي قبل ساعة نومه المبكر، بعد أخبار الساعة التاسعة على القناة الرسمية كل ليلة.

تتملكني الحيرة في البداية وأجد صعوبة في إطلاق قلمي ليخطها، كإطلاق مكوك فضائي يقاوم بوقوده النفاث خيوط جاذبية الأرض، كما تقاوم الأفكار جاذبية مخيلتي للانطلاق.. والانطلاق.. والانطلاق لتتحرر قصتي من قيودها، فحل كل شيء وفهمه يبدأ من فهم بدايته.

سأبدؤها من أمسيات جدي؛ ذلك الشيخ الذي جاوز قنطرة السبعين، وخط الدهر تعاريج صروفه على جبهته الصغيرة، وكسا لحيته التي لا يجاوز طولها أسنان المشط بلون كلون القمر ساعة البدر، دائماً كان في مخيلتي

ومعي حيثما كنت..

نورًا في ساعات الظلام

هي كلماته

وهي بدايتي لقصتي.

* * *

الفصل الأول

جدي

ساعة الحزن سوداء تُعمي أعييننا
عن ألوان الحياة

ليلة خرجت مع بعض الرفاق إلى الصحراء، كانت أقدامنا تدك الأرض مصدرة صوتًا أقرب لصوت نقرٍ على طبول، نطارد جربوع الصحراء الذي أخرجه الجوع لطلب القوت كما أخرجنا الفراغ لطلب المتعة على حسابه، كم هو سريع رغم صغر حجمه، مناوراته جعلت أحد الرفاق يسقط على وجهه حين أوشك على اصطياده بعصا الخيزران، كنت أرحم من رفاقي حين أحضرت معي عصا على رأسها شبكة مستديرة لأسر الجربوع الذي اختفى فجأة!

بحثنا عنه بين عيدان الأعشاب المتفرقة التي كادت تخلو منها صحراء (كَبْد)، صوت منبه السيارة يرشدنا إلى مكانه بعد أن سُلط عليه ضوء شديد، اقتربنا منه ببطء... ما إن هجم عليه أحدنا حتى فر بقربي واصطدته بعصاي الرحيمة، حين سُلّط عليه ضوء السيارة اكتشفت أني قد دككت عنقه، أشفقت عليه ساعتها وندمت على فعلتي، تركناه وعدنا إلى بيوتنا وسط حديث الرفاق عن مدى سرعة هذا الجربوع، وهو نوع يطلقون عليه لقب (القوطي) لسرعته. عندما اقتربنا من المدينة تعطلت المركبة، لم تفلح محاولة قائدها بإدارة المحرك الذي أصدر صوتا متقطعًا، استأذنتهم وعدت إلى البيت الذي يبعد عنا قرابة

ثلاثة كيلومترات.

ما إن حاذيت البيوت حتى شعرت بعناق حرارة الجو المرتفعة للرطوبة عناق محبين، تشرب ثوبي الرطوبة بسرعة وكأن أحدًا صب علي دلوا من الماء، عِناق الطبيعة الحامي الذي أحاط بجسدي أثقل أنفاسي، قدماي ضجرتا من المشي على الرصيف المحاذي للشارع الفاصل بين ضاحيتي صباح الناصر والفردوس، صوت المركبات يملأ الفضاء ودخان بعضها يخنق من يتنفسه، رنين هاتفي المحمول يلفت انتباهي ويعزلني مما أنا فيه، سعد المتصل.

- مرحبا سعد، قلت له.

- ضياء، وينك؟

- صوب مطعم صباح الناصر... في شيء.

- لا ما كو شيء... باي.

- باي.

سعد صديقي منذ أن عرفت الحروف، بعد تخرجنا هذا العام من الثانوية العامة التحق بكلية سعد العبدالله للعلوم الأمنية، في حين التحقت بكلية العلوم في جامعة الكويت.

أسمع منبه سيارة مزعجا بقربي.

- بيييييييييييييييييب.

سيارة فورد فاكتوريا بيضاء توقفت فجأة بمحاذاتي وأضاءت أنوار التنبيه على جانبيها، اقتربت منها، زجاج النافذة الأمامية ينزل، سمعت صوت سعد.

- اركب شِلّي امشيك بهالرطوبة..

فتحت الباب وركبت بسرعة كأنني أهرب من شيء ما، أغلقت النافذة وأدرت مفتاح التكييف على الآخر، فتحت أزرار ثوبي مادًا صدري لفتحة مكيف الهواء، أستشعر عظمة هذا الجهاز وتلك البرودة التي تلامس جسدي وتجعل الارتياح يعم نفسي ومشاعري. سعد يضحك وينقل عصا المحرك على وضع D بسرعة مما جعل الإطارات الخلفية تصدر صوتا عاليا، الساعة تشير إلى العاشرة، أشعل سعد سيجارة فيما كان يقود، نحيف الجسد أبيض البشرة صغير العينين طويل الأنف شعرهُ مجعد، شعرة واحدة هي التي تنمو على ذقنه، اشتهر بها بأبو شَعرة بين الأصدقاء.

- وين الجربوع؟ قال سعد.

- في بطن البِسْ يا بو شَعرة. قلت.

سعد يضحك ويكمل سيره، يعلم أنني لا أتأخر عن جدي مبارك إذا سافر والدي عبدالكريم، اعتادوا علي حين أخرج من ديوان الأصدقاء فجأة!

حينما أقطع عليهم لعبة كرة القدم مغادرًا الملعب، عائدا إلى المنزل لأطمئن على جدي المسن. كان جارنا أبو خالد يرسل لنا الطعام في الغالب إذا لم نتناوله معه، حيث إنه لا أنثى في بيتنا سوى خادمة أحضرها أبي من إحدى الشركات بعمل نصف يوم، جدي أرمل، وأبي أرمل، وأنا وحيد لم أعرف طعم الأمومة يوما.

بيت بلا أنثى بيت بلا جدران.

قالها جدي لأبي ذات يوم، بعد أن يئس منه وكف عن نصيحته له بالزواج، منذ أن أدركت الأمور لم أجد إلا شيخا جليل الهيئة يلاطفني ويلاعبني، يجعلني أستمع لأحاديث أصدقائه المسنين، لم أسأله أين أبي؟

اعتدت على سفره المفاجئ بحسب ظروف عمله، تأخذه خطوط شركات الطيران عني حيث عمله، مع أنه ليس موظفًا

في إحداها، عمله في كل بلد كان عربيًا أم أجنبيًا كما زعم لي، في حين كان جدي الشيخ الجليل يستمع له وعيناه يملأهما الأسى من تصرفاته.

توقفت السيارة أمام منزلنا الصغير المكون من دور أرضي وشبه طابق واحد في ضاحية الفردوس، ودعت سعد على أن نلتقي غدًا، باب المنزل كان مواربا كالعادة، دخلت واتجهت لغرفة جدي، أصغيت بأذني على بابها وسمعت شخيره الرنان، ثم اتجهت للمطبخ ووجدت طعامي على الطاولة، رغيفَي خبز وجبنة وبيضتين مسلوقتين وكأس عصير برتقال. أخذت الطعام للصالة وقعدت على الأريكة أمام التلفاز، كبستُ على زر الإشغال، قناة الكويت الأولى ظهرت لي وحديث عن السياسة المحلية، قلّبت القنوات إلى أن استقر إصبعي على قناة لعالم الغابة، بدأت أتناول طعامي وأشاهد ضباعًا تتشاجر على فريسة والنسور حولها، كُلٌ يريدها له وفي النهاية لا ينال أَحدهم إلا نصيبه. مشهد آخر لأسد ولبواته وأشباله تشاركوا فريسة بلا شجار، عند آخر لقمة لي كان مشهدًا لمجموعة حشرات تبني مملكة غاية في النظام والترتيب كما يقول المعلق، صوت قطع اندماجي.

- تتفرج على نمل. قال جدي.

ابتسمت له وقمت مقبلا يده وقعد بقربي، نام قبل أن يستمع لنشرة أخبار التاسعة، سينتظر لمنتصف الليل حتى يستمع لها، الساعة تشير إلى العاشرة والنصف وثلاث دقائق أخبرته. كثيرا ما يردد هذه العبارة قبل أن يحدثني:

- اللي ما يعرف ماضيه يضيع تاليه.

أبي كان غواصاً يجني اللآلئ من الخليج، فقد شقيقه أمام عينيه حين افترسه قرش، لم يتمكنوا من انتشال جثته بعد أن تفرقت في بطون الأسماك، انزوى لحظتها على نفسه رغم مواساة طاقم السفينة له بالكلمات التي تغلف بالأقدار والصبر، اقتطعوا من حصيلتهم ذلك اليوم ومنحوها له.

نظر إلي بعينيه اللتين أوهنتهما السنون ثم أكمل.

مرت الأيام والليالي على أبي ثقيلة يأمل فيها بالعودة إلى الكويت رغم مواساة الجميع له، كان شابًا يافعًا غير أن مصرع شقيقه أثر عليه، ذات صباح عندما غطس أحدهم قبل رفاقه، خرج سريعا من البحر والفزع بادٍ على وجهه، أخبرهم أنه رأى جنية البحر!

اعتدلتُ وأمعنتُ النظر في جدي، فيما كان جسده النحيل مسترخيا على الأريكة، وهو ينظر إلى البحر وعالمه عبر التلفاز.

لم يصدقوه... ربما هي إحدى حِيل الغاصة حتى يداعب رفاقه، طلب رئيس المركب (النوخذة) من أحدهم أن يغطس ويتحقق من الأمر، تردد في الغطس ولولا خشيته أن يوصف بالجبن لما غطس، نزل سريعا ومثلما نزل عاد بسرعة مذعورا أشد من الأول! أكد رؤيته للجنية وهي سوداء عملاقة تتحرك يمنة ويسرة، فَزِع من في المركب.

كنتُ أشد فزعًا منهم أنتظر وأنظر لشفتي جدي، الذي لم أعلم عنه كذبة ما حتى وإن كان مازحاً.

تتعدد القصص بين البحارة حين يبحرون عن عالم الجن وخفاياه، ورؤية بعضهم غرائب الأشياء في البحار كرؤية شخص أو رؤية شعلة نار، رفض الغاصة النزول رغم أمر الرئيس لهم لتأكيد الأمر، الخوف يعمي البصيرة إن تمكن من الجسد، برز أحد الشجعان رغم ما ببدنه من رعاش جراء الخوف من مصيره المجهول، قفز إلى الماء بعد أن قرأ ما حفظه من قرآن، كانوا يرتقبون عودته، كم هو بطيء الزمن ساعة مراقبتنا له، لم تمضِ دقيقة حتى انتشلوه وهو يسعل والماء يخرج من فيه، لم ينتظروا

ليسألوه فقد أمر الرئيس بمغادرة المكان على وجه السرعة، شُرعت الأشرعة واستعدوا للرحيل ولم يوقفهم سوى سقوط أبي في البحر!

- ليه! قلت لجدي.

نظر لي مبتسما وأخذ يشرب ماء من قنينة كانت بيده، سألته مثلما سألتني وكان جوابه:

فقد شقيقي أثر على نفسي وعندما علمت بوجود الجنية عزمت على طردها، وفي الحقيقة أردت اللحاق بشقيقي بعد أن كرهت الدنيا بعده، غطست في الماء بعد أن ملأت صدري من الهواء، ثوان مضت حتى رأيتها سوداء تتموج بحجم ثلاثة رجال، أصابني الذعر وترددت عن الاقتراب منها، تجاذبني حب الحياة وكرهها، حب الحياة يبعدني عنها والحزن على أخي يدفعني لها، اندفعت مع الحزن واقتربت منها أكثر وأكثر حتى أحكمت قبضتي عليها.

- جدي كَمل، لا تلعب بأعصابي. قلت له.

ابتسم وهو ينظر إلي ملتفا بجسده نحوي، ومتكئا على يده اليمنى.

أخبرني أحد أصدقاء والدي تلك القصة من رؤيته لأبي وهو يلقي بنفسه في البحر ورفاقه يتحسرون عليه، ثم ما لبثوا أن رأوا الجنية تقترب من سطح الماء، وهم يصيحون ببعضهم:

- اهربوا.

صعدت الجنية على متن السفينة، وألقى بعض الرجال أنفسهم من عليها، وسمع من على متنها الجنية تضحك بصوت رجالي، لم تكن الجنية سوى والدك وقد توشح عباءة سوداء كانت قد علقت بأعشاب البحر.

ساعة الحزن سوداء تعمي أعيننا عن ألوان الحياة.

مخاطرة والد جدي بحياته أذهبت عن قلبه الحزن بعد أن استشعر لذة الحياة. لم أشعر ببرودة الصالة حتى أمرني جدي بإطفاء مكيف الهواء، أدت رطوبة الجو إلى برودة الصالة، هدوء خيم على المكان بعد إطفائه وكتم صوت التلفاز، قعدت على كرسي مقابل جدي أنتظر حديثه، كلماته متأنية حين يتكلم بارع هو في إخراجها.

حياة أهل الكويت كانت قاسية جداً، يغيبون في البحار أشهرا لسد رمق العيش، يحفرون حفرا أمام بيوتهم لاصطياد

قطرات السحاب المتناثرة، مذاق آبار الكويت كمذاق شفتي امرأة مسنة.

بدت مني ضحكة طويلة وهو ينظر لي بصمت.

لا بد من ضرب الأمثلة لترتسم الصورة في مخيلتك فالمثال سوط الغفلة، حياة أهل البادية يشفق لها الطير، ثَرياً من ملك خمسة رؤوس من الغنم، البعير مركبهم النفيس والحصان رمز القوة والمنعة، تجدهم يكرمونه أشد من إكرام أنفسهم وأهلهم، ولدتُ مع مولد أول شحنة نفط تصدر من الكويت، بدأ الرخاء يزحف نحوها والنعمة تظلها بجناحيها وزهرة الدنيا تنمو وتتفتح بها، تبدلت حال البلاد والعباد مع هذا الخير الوفير، إمكاناتهم سبقت قدراتهم، فمن ركوب البعير إلى ركوب سيارة الرولز رايز، مصعد سريع وضع الكويت في مصاف الدول الثرية مما جعل القائم على شؤون دولة العراق يطمع بها وينادي بضمها للأحضان.

تكررت المحاولات والمطالبة بالحق المزعوم، الدافع لتلك المطالب ليس إلا مصالح سياسية واقتصادية، أساتذةٌ هم الغرب بلعبة الشطرنج ما كان منهم لإسقاط الاتحاد السوفيتي والتربع على العرش المربع سوى تحريك جندي عراقي.

بدأت الرطوبة ورماح الحر تهاجم هالة البرودة المحيطة بي وبمحدثي، قمت وأسعفتها بمدد من الهواء البارد ورجعت حيث كنت أنتظر كلماته.

أيادي الساسة الحقيقيين خفية حتى على رجال السياسة، فالساسة يبدون ما لا يفعلون، أخبرنا الله عز شأنه عن الشعراء فقال:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ الشعراء.

الشعراء يتبعهم الغاوون والسياسيون يتبعهم المغفلون، الغاوون يتبعون بإرادتهم أما المغفلون فيتبعون بفرط جهلهم، لقد كنتَ ضحية من ضحايا احتلال الكويت، ساعة مولدك بكت السماء كحسناء خالطت دموعها كحل رمشيها محدثة بِركا سوداء في كل مكان.

اعتدلت فيما رأسي يندفع للأمام قليلاً، أنتظر سرده الجديد على مسامعي.

– أُبوي ارفع صوت التلفزيون. قال.

صوته قطع إبحاري في عالم ذكرياته، نظرت للتلفاز

الأخبار قد حان وقتها، رفعت الصوت الذي بدأ بالسلام وتلا بيانا رسميا، ذاكرا تاريخ اليوم ٢/ ٨/ ٢٠٠٩م، استمع لنشرة الأخبار بإنصات فلما انتهت قام بتثاقل يريد غرفته، أغلقت التلفاز ونظرت له.

- جدي اقعد شوي وكمل القصة. قلت له

يشير بإصبعه بشكل نصف دائري؛ قاصدا نكمل في الغد، توجه إلى غرفته وأغلق بابها مطفئاً النور ليتركني وحيدا أسامر الظلام الذي يحيط بأركان الصالة، مصارعا الضوء الخافت في إحدى زواياها، موقظا ذكريات دفينة في خبايا مخيلتي لم أعشها يوما قالها لي شيخي الجليل أحب أن يشاركني آلام ماض عبره بصعوبة وبقيت ذكرياته.

سور الثراء كان محيطاً بنا، السعادة مقيمة معنا والحظ يضحك كلما زاد مالنا في أرصدة المصارف، قصرنا مشيد في ضاحية عبدالله السالم، غرف واسعة جدرانها طليت بآخر صيحات عالم الألوان، أسقفها نقشت بأنامل المحترفين، توسطتها الثريات المذهبة وملأها أفخر الأثاث الغربي، صالة الضيوف كبيرة جدا تتسع لسكان الضاحية، نوافذها كبيرة أهدر المال الكثير في بهرجتها، حديقة غَناء أحاطت بقصرنا زادته

جمالاً كزينة النجوم للسماء، الطمع آفة الثراء، آفة الإنسانية؛ الذي أخرجها من السماء لتهبط إلى دار الشقاء والبلاء، الطمع الطُعم الأول لاصطياد الإنسان وإعماء عينيه وشل صوت الحكمة في عقله، أناخ الطمع ركابه في مناخ إبل التجار القدماء، بيع ملموس محسوس كان في ذلك الوقت والأمانة والصدق دارج بينهم قبل أن تشهد الكويت ثراءها الفاحش، استحال مناخ الطمع إلى سوق عظيم الصيت مطلع العقد الثامن من القرن العشرين عُرف بسوق المناخ، أصبح من أسواق العالم الأولى، حجم التداول فيه بلغ ثلاثين مليار دينار كويتي العملة الأغلى عالميا، من دخله فقيرا خرج من لحظته ثريا، أصبح المتداولون ينطلقون من ستة أصفار، فقير من ينطلق من خمسة أصفار، السلع أصابها الجنون تضاعفت قيمتها لمِئة ضعف، سوق غير رسمي هو المناخ، غض المسؤولون طرفهم عنه، أصبحت الأسماك الصغيرة هوامير وبعضها قرشاً وقليل منها حيتانا جرّت حيتانا كبيرة كانت خارج بحيرة الثراء. تحرك مركب الحكومة حين دخلت الحيتان البحيرة وزاد حجمها كثيرا، طعم نافذ الرائحة جرها وأعماها فأصبحت صيداً سهلاً لرماح مركبهم التي خرقت أجساد الحيتان ليزداد نزيفها ومنها

من صُرع، غارت بحيرة الثراء بسرعة كبيرة محدثة صدمة في العالم المالي. كان جدي ممن نزف كثيرا وكانت خسارته بقدر ما بقي من ماء في البحيرة حيث لم يبق ماء، أموالنا جمدت، قصرنا المشيد صودر، ما يستر أجسادنا بقي بمنأى عن الأيدي، بيت عمي عبدالله الذي نسكنه الآن هو ما بقي من مأوى لنا، جدتي خالدة رحلت عن الأرض من هول الصدمة، تبعها بيوم عمي عبدالله وزوجته إثر انقلاب سيارته في إحدى أودية تركيا وهما في طريق عودتهما لمواراة جسد جدتي، وارينا جسده وجسد زوجته بقرب قبر جدتي بعد أيام.

المصائب تتنادى للمائدة بفضول إن فتحنا لها أبواب اليأس والقنوط، الصمت كان سيد قلب جدي وعقله، فقد ماله وزوجة رائعة وابناً وزوجته الحامل بحفيد علمَ بوجوده من ورقات الطب الشرعي، لم يبق له سوى أبي وهذا البيت الذي أصبح له كما هو مشروع في قانون الدولة يترقب أي مصيبة تطرق الباب بعد ما جره عليه الطمع الذي أسقطه من الثراء كما أسقط آبانا آدم من الجنة.

حكايات التاريخ ليست قصصاً تروى للاستئناس والمتعة بل هي عبر للحذر واليقظة، تدور أحداثها مكررة نفسها كل

جيل، يقع في أخطائها الكثير وقلة النافذين، الطمع عنوانه واحد وأشكاله مختلفة، كنت أرى في عيني جدي وشيخي الجليل ما يغني عن سؤاله؟ كم عانى من مآسٍ حلت به وعصفت بوجدانه رياحها العاتية، عيناه الذابلتان تنبئانني بذلك، شعور انتقل لي رسم لوحة رمادية خالية من أي لون، سوى ظلال أسود على شخوصها.

* * *

قُبيل منتصف النهار اقتدت جدي المتكئ على عصا للمسجد لأداء صلاة الجمعة، يبعد عن بيتنا مقدار ركلة قوية لكرة قدم. ثياب بيضاء تكسو المتوجهين للمسجد، أقمشة بيضاء وأخرى حمراء مرقطة ببياض تغطي رؤوس معظمهم، يتوسطها شبه حبل سميك مستدير أسود يثبتها، يستخدم في فض المنازعات والشجار أحيانا كسوط قوي الأثر، الحرارة تناهز ٤٥° كسرت الرطوبة شوكتها في مثل هذا الشهر، الأنوف يقبل بعضها بعض هنا وهناك بين أهل المنطقة قبل الدخول للمسجد وبعضها قربه وعلى بابه، من يستنكرونه يرفعون له اليد اليمنى لإرسال تحية متعارف عليها (السلام عليكم).

لحظة دخولنا للمسجد استقبلنا تيار هواء بارد طرد عنا حرارة الجو ورطوبته المصاحبة لنا منذ أن خرجنا من البيت، المسجد شبه مكتظ، بعضهم واقف يصلي وآخر قاعد يرتل القرآن بصوت خافت جداً وقلة صامتون ينتظرون الإمام. أتطلع لموضع لجدي في الصفوف الأولى، تقدمت قليلا حين أشار بعصاه إلى مكان ضيق، حال ذهابنا له انتبهت إلى جارنا أبو خالد، يشير إلى أنه حجز مكانا لجدي قربه، كم هو رائع جارنا لا يمر يوم وليلته إلا وسأل عن جدي فيها كابن بار لوالده رغم

بضع السنوات التي تفصل بينهما، أديت تحية المسجد فيما الإمام صعد المنبر وارتفع الأذان عاليا بعد أن سلم الإمام.

الله أكبر الله أكبر.

أنهيت صلاتي مع التشهد الأخير للمؤذن، بدأ الإمام يلقي خطبته على الحضور، كانت خطبة لا روح فيها، مكررة كالعادة، قرأها من ورقة أعدتها له إدارة المساجد، بعيدة هي أغلب خطبنا عن واقعنا ومواكبة عصرنا الحاضر، ضرب الأمثلة لا يعرف طريقه لتلك الورقة المعدة ولا إلى قارئها، وظيفة يؤديها ليقبض ثمنها نهاية كل شهر، لا رسالة تُحمل على كاهلها لتوقظ الضمائر وتثري حصيلتنا الثقافية، المستمعون أغلبهم أجساد حاضرة وعقول سارحة خارج إطار المسجد وبعضها قطع مئات الكيلومترات. انتهت الخطبة، أقيمت الصلاة، ركعتان أديناهما خلف الإمام، تلاهما ترديد الأذكار، وركعات أحياهما جدي بعد انصراف المصلين لدنياهم. لم أكن حريصا على الصلاة التي اكتسبتها عادة من جدي، عندما أكون مع الأصدقاء لا أؤديها أو أحرص عليها، وخز ما في قلبي يؤنبني فقط سرعان ما يختفي وسط الأنس بين الأصحاب. خرجنا من المسجد، أبو خالد في انتظارنا بسيارته ذات العجلات المرتفعة، خدوده

المنتفخة من فرط بدانته ترتفع لترسم شفتاه ابتسامة تنشر الود لمن يراها، يلح علينا بتناول الغداء معه، ركب جدي معه في حين استأذنتهما للذهاب مع أبو شعرة الذي يقف بسيارته قريبا منهما.

* * *

ظهيرة الجمعة غالباً ما أقضيها مع صديقَي العزيزين عبدالله وأبو شعرة سعد، عبدالله لم يكن معنا هذه المرة، عاكف على قراءة كتاب كما أخبرني سعد الذي يسخر من جنون عبدالله بالقراءة، أبو شعرة لا يشك أن عبدالله ولد ومعه كتاب بيده ويظن أنه كان يقرأُ وهو في بطن أمه ولا يستبعد أنه يعرف القراءة فيما كان يتنقل بين أظهر أجداده. كل ذلك بدافع السخرية من قراءته المبالغ فيها، عبدالله جده أبو خالد هو بنفس عمري، علمت والدته بحملها فيه ساعة الاتفاق الدولي على تحرير دولة الكويت، وضعته في مستشفى الشميسي بالعاصمة الرياض، والده خالد موظف في وزارة الداخلية عسكري منذ عشرين عاما، دائماً يسخر من قراءة عبدالله للكتب ولقبه أبو القراطيس وأنا أدعوه بآكل الورق، مجنون قراءة، تاريخ، فلسفة، إدارة ويتنزه بين تلك الكتب في قراءة الروايات. أخبرني ذات يوم أنه بات ينظر للحياة من خلال أعين أخرى ومن زوايا مختلفة، صعقت عندما قالها! خشيت من اختلال عقله واضطراب فهمه، لعبه لكرة القدم وقتها وضحكاته المألوفة أراحت قلبي مما خشيته، بينت لي الأيام لاحقًا أن عقله نضج مبكرا جدا عن عقولنا التي تستظل برداء الغفلة الذي يكسو جسد الجهل.

المدخل السفلي لمجمع الطريق المُشجر بالترجمة السياحية والجادات بالهندسية و**Avenues** باسمه الشائع في الكويت، وقف أبو شعرة يمتص الدخان من سيجارته التي بدأ جمرها يتوقد بسرعة في المكان المخصص للمدخنين. نظرت لنفسي في الزجاج الشفاف الذي عكس ملامحي، طويل، نحيف، أسمر، عينان بنيَتان واسعتان، أنف صغير معقوف، وشعر أسود ناعم يلامس الكتفين. أنهى أبو شعرة سيجارته ورمى المتبقي منها على الأرض، داسها ومشى وخلفه حاوية كتب عليها (لطفاً أطفئ سيجارتك هنا).

المجمع يغص بمختلف الشرائح والطبقات والأفكار، أصوات الناس تتطاحن مصدرة ضوضاء عالية جدا، أشعة الشمس تعبر السقف الزجاجي، مكيفات الهواء تلطف الأجواء، باعة العطور يرشون رذاذ العطور المعروض على المارة لعلهم يشترون، أبو شعرة لا يفوت عطرا إلا جربه.

لا حاجة لشراء العطور، قبل ذهابك لأي مناسبة، أعرج في طريقك على مجمع الأفنيوز وتعطر مجانا. جملة قالها أبو شعرة لأصدقائه ذات يوم.

عائلات، شواب، شبان، فرادى، مجتمعون، أتوا للاستمتاع بأجواء المجمع المفعمة بالحياة، أبو شعرة يصفر كلما مرت من أمامه أنثى جميلة التصق ما يسترها بجسدها وحدد تقاسيم وتعاريج أنوثتها، شهوات تصرخ بصمت أو بصفير في هذا المجمع، الأعين تختلس النظر خفية، بعضها ألقى قناع الحياء وأطلق العنان لنظره ليمتع نفسه بالأجساد المتنوعة المختلفة والقلب أُنهك وتعب من اللحاق بنفس لا تشبع أبداً، جزم أبو شعرة أن الأنثى ستحمل من النظر المُركز لبعض الأشخاص عليها.

المطاعم تعج بالزبائن، لائحة الانتظار طويلة لدى بعضها، يقف المرء في طابور طويل ليضع اسمه على لائحتها، العولمة ترسخ نموذجها في المجمع، والحرية مطلقة لا قيود لها إلا قيد الإخلال بالأدب العام. شخصية أبو شعرة المرحة جذبت له الكثير من الأصدقاء والمعارف، كثير ممن يصافحونه بحرارة يدعونه لتناول القهوة، الشاي، والأطعمة أحيانا، يتنصل من أغلبهم ويلبي طلب بعضهم، قبوله في كلية سعد العبدالله الأمنية زاد من تألق شخصيته في أعين أرباب المصالح، أما نحن أصدقاء الطفولة والدراسة فمازال أبو شعرة في أعيننا

ذلك الصبي الذي يمسح إصبع سبابته في ثوبه بعد أن يفرغ من العبث بأنفه، ليست نسبة شهادة تخرجه أو طوله من شفع لدخوله للكلية، بل طول واسطته التي تُمثل صوتا في مجلس الأمة الكويتي.

المال أو المنصب من يحدد قيمة الشخص في بلادنا وليس العلم، طفل يتيم فقد أبويه وأقاربه هو العلم، أفئدة قليلة تحن عليه في أوطاننا، مجمع الطريق المشجر خير مثال كما أخبرني عبدالله، المطاعم تفيض بالزبائن ومكتبة ذات السلاسل تكتفي بلقيمات منهم على ما بها من جوع، إشباع رغبة النفس بالأطباق اللذيذة يتخم المعدة والإفراط يؤذيها والعقول ضامرة نحيفة جداً لا تقوى على حراك، بطون كبيرة وعقول صغيرة هم ما عليه الأغلبية. عبدالله ينتقد من يقعدون في المقاهي من يثقبون بأعينهم النساء المقبلات والمدبرات، واضعين مقاييس الجمال ومعاييره، هاربين من مسؤوليات أسرهم التي تركوها على عاتق خادم وافد أو زوجة صامتة ساخطة، ترى الفراغ الذي هم فيه قاعدا على مقاعدهم متجسدا بأجسادهم معبرا عن حالهم عبر نظراتهم للغير، أبو شعرة يوبخ عبدالله على آرائه ويخبره أنهم يستمتعون كما يستمع هو بقراطيسه، الحياد هو رأي بينهما إلا

أن العقل يميل لأبي القراطيس.

دخلنا إلى أحد المطاعم، طلب أبو شعرة شريحة لحم مشوي في حين طلبت شطيرة جبن الحلوم المشوي وكأس عصير تفاح، رائحة الطعام تملأ المكان، الأطعمة تلتقط لها صور تذكارية قبل قطعها وتمزيقها وطحنها ثم بلعها كشخص تلتقط صورته قبل إعدامه ومواراته بحفرة على مقاسه تتسع كلما زاد حجمه، قدم لنا النادل طلبنا الشهي تناولناه وتحدثنا عن رحلة لدولة الإمارات الأسبوع المقبل حيث دار الحي، بعد أن دفعنا الحساب توجهنا لمشاهدة فيلم في صالة العرض، أعشق أفلام الرقص العاطفي، أما أبو شعرة فيعشق المضحك منها.

* * *

دخلت المنزل وقت ولوج الليل، الخادمة العجوز تحضر قهوة لجدي القاعد أمام التلفاز، يستمع لحديث ديني عن شهر رمضان؛ الذي أنزل فيه القرآن وما في هذا الشهر من كرامات إلهية عظيمة من غفران الذنوب للمحتسب ومضاعفة العبادة لعشرات السنين إن قُبل الصوم، بعد انتهاء البرنامج.

- اللهم بلغنا رمضان وتقبله منا. قال جدي.

- آمين. قلت.

انحنيت مقبلًا رأسه، كنت خلفه ولم ينتبه لي، قعدت بجانبه فيما وضعت الخادمة دلة القهوة أمامنا ووعاء التمر، قمت بسكب القهوة بفنجان صغير لم يتجاوز ما سكبته ثلث الفنجان كعادة أهل الخليج، رائحة حب الهيل تخالط رائحة القهوة زادها نكهة اختلاط حَب القرنفل المطحون بها، أخبرني أنه سيذهب للعمرة الأسبوع المقبل مع أبو خالد وابنه خالد، فرحت عند سماع هذا الخبر، فقد أتيحت لي الفرصة لأؤكد لسعد ذهابنا للإمارات. فيما جدي يتناول القهوة سألته؟

- جدي شلون بكت السماء ساعة انولدت؟

ابتسم ابتسامةً ما لبثت أن تلاشت وبدأت من عينيه علامات حزن ومرارة كغيمة بيضاء خالطتها أخرى سوداء شاحبة سُر من رآها حتى قادتها الرياح بعيدا محدثة رمالا متطايرة تلحق بأثرها، الكلمات تخرج من شفتيه طارقة مسامع أذنَي، حاملة معها ذكريات مؤلمة، قلة هم من يستطيعون إحياء الحروف والتفنن بتشكيلها والرقص بمفرداتها، جدي كان منهم بشهادة جميع من سمع حديثه، هل هو الألم الدفين في أعماق نفسه ما يجعل كلماته توقظ مشاعر مستمعيه وأحاسيسهم؟

والدك تزوج والدتك هناء عن حُب، أخبرني لحظة وطأت قدماها أرض عمله في شركة المعادن، وصفها لي وصف العاشقِين، أدركت حينها أنه اتخذ قرار الزواج منها، طلبت منه التريث حتى نسأل عنها، كان جوابه بأنها وحيدة والديها ومن أصل فلسطيني، يسكنون في منطقة حولي.

بعد شهر من عملها معه تقدمت لخطبتها من والديها اللذين وافقا من غير تردد، مهدت والدتك لنا الطريق وأعلنت لوالديها عن حبها لوالدك، تم عقد القران بعد أيام ثم تلاه حفل صغير بمناسبة زواج أبيك، حضره القليل من المدعوين من بينهم أبو خالد وأبناؤه، شهر قضاه والداك في لندن بعد ذلك الحفل،

كنت فرحا ساعة عودتهما، استقبلتهما في المطار ومعي أبو هناء، توجهنا نحو شقته حيث أعدت جدتك عشاء بمناسبة عودتهما، رائحة الطعام الشهي تملأ الشقة، المائدة حَوت مختلف الأصناف الشامية، الساعة تشير إلى التاسعة مساءً، فتح أبو هناء التلفاز، شاهدنا وتحدثنا عن آخر تطورات وفد الكويت في جدة لحل القضية الساخنة مع جمهورية العراق، كان والدك مسرورا جدا، لم أتوقع أن حبه لوالدتك سيزداد، فالزواج مقبرة الحب والمودة بستانه، والدك من القلة الذين أحبوا بصدق؛ ذلك الحب الذي ينبع من الروح، قلقت من ذلك الحب، خشيت أن أفقد والدك، فالتعلق الشديد في أي شيء نهايته مدمرة، سألت الله أن يسعده ويحفظه، فجأةً!

رأيت جدك يطفئ التلفاز ويرقص ويغني عندما سمع لحن موسيقى من مذياع جدتك:

على دلعـونا علـى دلعـونـــا

يـا هـلا وسهلا باللي صاهرونـــا

أتاني وأخذ بيدي وجاريت رقصه قليلاً وضحكنا ليلتها

كثيرا، بعد العشاء عدت مع والديك إلى المنزل، صعدا إلى غرفتهما لحظة وصولنا، نمت ساعتها قليلا ثم استيقظت قُبيل طلوع الشمس وقد فاتتني صلاة الفجر، أديتها ثم عدت للنوم، كان أبو خالد وأبناؤه يقضون الصيف في الطائف.

صمتٌ لف المكان حين اغرورقت عينا جدي بالدموع، ندمت حين طلبت منه أن يروي القصة لي، اعتصر الأسى قلبي عليه، شفتاه بدأتا تتحرك.

فاجأنا صدام باحتلاله للكويت! صبيحة الخميس الأسود ٢/ ٨/ ١٩٩٠م، حكومتنا نفذت بجلدها، التحق العسكريون بألويتهم، حدثت اشتباكات لا تتجاوز الساعات، آليات انسحبت للمملكة العربية السعودية، لحقتها بعض الطائرات المقاتلة بعد أن ألقت بنيرانها على جنود الاحتلال، الشعب اضطرب أول الأيام بين البقاء والمغادرة، المفاجأة شلت أركان الكويت وبدأ اسمها يمحى تدريجيا من خريطة العالم. أُعلنت بعد أيام حكومتنا الجديدة وأصبحت دولة الكويت محافظة لجمهورية العراق، غادر أغلب الشعب إلى شتى البقاع أكثرهم إلى المملكة العربية السعودية حيث القيادة الشرعية في مدينة الطائف، بقيت أنا ووالداك ننتظر مصيرنا على أمل ميؤوس من

عودة دولة الكويت متمثلة بشرعيتها. كنا نتابع التطورات، فرحنا بكلمة العاهل السعودي الملك فهد رحمه الله حين قال:

«ما فيه كويت ولا فيه سعودية، فيه بلد واحد يا نعيش سوى يا ننتهي سوى»

مع مرور الأيام نقصت مؤنة الطعام، أبو خالد مكالماته لا تنقطع مثل الكهرباء والماء التي لم تنقطع عنا، يرجوني بأن أخرج من الكويت، حتى أمرني بعدها بعدم الخروج لصعوبة ذلك بعد أن طوقت الحدود. كان يحادثنا من مركز النويصيب الحدودي، بعد أن قطعت الاتصالات الدولية عنا، يرشو أحد الضباط العراقيين ليسمح له بمكالمتنا. جداك سكنا عندنا بعد أن فرا من منطقة حولي بعد أن تسلطت المنظمات الفلسطينية على الفلسطينيين، خبر حمل أمك بكَ لم يفرحني كثيراً، كلمة مبروك لا مشاعر فيها صدرت مني، الصمت خير من كلمات لا تحمل أي مشاعر.

نفد الطعام من البيت، كنت أخشى كثيراً من فقد والدك فهو ما تبقى لي، قررت أنا وأبو هناء الذهاب لجمعية الفردوس، أصر والدك على مرافقتي وبقاء أبو هناء في البيت، لم نستطع ثنيه عن قراره، انطلقت معه ساعة خيم الظلام، كنا نتستر بين

أزقة البيوت عن الأعين، شوارع ضاحية الفردوس ضيقة جدا ومتداخلة، الجميع كان يسخط من تصميمها، غير أنني أثنيت على مصممها تلك الساعة التي سترتنا شوارعها حتى وصلنا إلى الساحة الخلفية للجمعية، سيارة عسكرية متوقفة فيها شخصان يدخنان ما حال بيننا وبينها، استترنا بين نخل عند أحد المنازل ننتظر رحيلها الذي امتد لساعات حتى مللنا وقررنا العودة، ما إن دخلنا بين أحد الأزقة حتى قبضت يد على كتفي:

- وين رايح؟

أرعبني الصوت، قُبض علينا ساعتها ما ورد في ذهني، التفتنا نحو الخيال الذي ترك كتفي، لا أميز شكله من الضوء الخافت خلفه، سألنا من أين نحن؟ فأخبرناه. زجرنا بشدة مُوضحًا أن العراقيين يبحثون عن أشخاص أطلقوا النار على جنود وقتلوا أحدهم ولو قبضوا علينا لزجوا بنا في معتقلات التعذيب. أعلمته أن الذي أخرجنا هو الجوع. صمت قليلا قبل أن يقول:

- الحقوني.

تبعناه حتى دخلنا منزلاً قريباً، حينها اتضحت صورته وارتاح قلبي له، شاب بعمر أبيك ملتح، الابتسامة تعلو محياه، أخبرنا

أنه يساعد المحتاجين في منطقته ثم طلب مني العنوان ليوصل الطعام لنا كلما استطاع.

أطلعناه بعدد عائلتنا. أحضر لنا عربة جمعية ووضع فيها مختلف الأصناف من الأطعمة حتى امتلأت، بيته ممتلئ بالمؤن التي استطاع أخذها من مخزن الجمعية القريب منه، والدك عرض عليه المساعدة إلا أنني وبخته بشدة وأنني كهل كبير وليس لزوجتك أحد إذا قبض عليك. أصر على المساعدة حين تجادلت معه. اعتذر الشاب عن مساعدته وبأنه لا يدخل أحد معه. صف الشاب معي حين رأى غضبي وخوفي على ابني، دعوت الله له حينها من قلبي.

قرقعة عجلات العربة في الشارع أرعبتني كثيرا، نحملها كلما مرت على الشارع، نرتاح عندما نرى ساحة ترابية تئد صوت العجلات وليبدأ صوت نبضات قلبي المتعب من دفعها أنا ووالدك على الرمال، كيلو متر واحد قطعناه وكأننا قطعنا ساعتها مئة كيلو متر، وصلنا للبيت ساعة الفجر، القلق كان باديا على الأسرة بعد أن أخبرونا أنهم سمعوا صوت إطلاق نار.

أعدت لنا جدتك الطعام بسرعة، الجوع اتكأ على معنوياتنا

المنهارة، ما إن امتلأت البطون حتى أحسسنا بنوع من السعادة، قمنا ساعتها وخرقنا جدار غرفة تفصلنا عن بيت أبو خالد، تحسبا لأي طارئ وألصقنا بالجدار المثقوب خزانة ملابس.

تناول جدي قنينة ماء بقربه وشرب منها، انتظرت بترقب كيف بكت السماء ساعة مولدي، بدأت كلماته تصل لأُذنَيْ طارقة باب خيالي مصورة لي تلك الأحداث.

مع مرور الأيام تردد علينا الشاب بعد أن ألفنا وألفناه جالباً معه المؤن، أخبرنا عن تشكيل جبهة المقاومة بقيادة محمد الفجي ونائبه محمود الدوسري وبعض رموز الأسرة الحاكمة منهم عذبي الفهد وأمثال الأحمد اللذان ينسقان معه ومع القيادة عن طريق الشيخ ناصر صباح الأحمد، فرحنا بالخبر وطلب والدك الالتحاق بالمقاومة. وعده الشاب بذلك بعد أن انتبه لغمزة عيني له.

كانت الأمور هادئة نترقب ما تسفر عنه الجيوش الدولية المحتشدة على حدود الكويت والتي أطلق عليها اسم درع الصحراء، عزمت جدتك على عمل وليمة عندما أحضر لنا الشاب المؤن وفيها بعض اللحم، طلبنا منه مشاركتنا العشاء فوافق. بيتنا البيت الوحيد المسكون في جادتنا، رائحة الطعام

فاحت بين البيوت، فجرت لنا مفترسي الحقوق، الطعام موضوع على السفرة ننتظر الشاب، الساعة تشير إلى الثامنة ليلا من ليالي شهر أكتوبر، طرقُ الباب أعلن عن اقتراب موعد العشاء، ذهب والدك لفتح الباب إلا أن أبو هناء استوقفه فجأة!

– الشب ما يجي بسيارة؟ قال. انتبه أبو هناء لصوت السيارة ولم ننتبه له، سأل من الطارق؟

– ولكْ افتح الباب. صوت شديد اللهجة يأمره!

كادت قلوبنا لحظتها أن تقفز من مكانها كهر فزع فجأة! أحسست بمكروه يقترب، أبو هناء أشار لنا بالاختباء، انطلقنا بسرعة، أزحنا الخزانة ودخلنا لبيت أبو خالد، أم هناء أرجعتها بصعوبة لمكانها لتخفي الثقب، فتح الباب.

– شو عيني، ريحة طباخكم واصلة لآخر الشارع، اشدعوا ما تعزمون؟ قالها مخبر بلباس مدني.

عسكري مسلح دخل خلفه، الخبث يتطاير من عينيهما والدناءة تفيض من وجهيهما، دفعا أبو هناء وسط ارتباكه ودخلا ولم يفلح اعتراضه أمام فوهة السلاح المشهور في وجهه، أم هناء عابت عليهما فعلهما وطلبت بأن يرحلا. توجها

للسفرة وقعدا يتناولان الطعام بشراهة وسط تحديق الزوجين بهما. سأل المخبر عن مناسبة هذا الطعام الوافر؟

- لينا. قال أبو هناء.

- ليكم وإلا للشب المجرم؟ قال المخبر. ثم انتبه لوشاح والدتك على الكرسي المقابل له، فقام وأخذ يشمه بكلتا يديه.

- وِلِكْ لمين؟ قالها المخبر بقوة.

- لمراتي. قال أبو هناء.

اقترب من أم هناء المذعورة وشم رائحة الطبخ منها، أمرهما بإخراج الفتاة المختبئة، توعدهما بالعقوبة والزنزانة إن لم يمتثلا لأمره، سيتهمه باستخدام بيت ليس له والتستر عن مجرم. أصر أبو هناء على أنه ليس بالبيت غيرهم. فتشا البيت ولم يجدا أحدا إلا صورة والديك، أشار الجندي إلى صورتها وأنها الفتاة المطلوبة، صاح المخبر بصوت حاد طالباً خروجها وإلا أطلق النار على أبيها.

كُنا نسمع صوته وأبوك مطوق ذراعي والدتك وواضعاً يده على فمها، دموعها انهمرت بغزارة، أرادت الصراخ بأن يتركوا والدها، الموت يقترب من أبو هناء الجاثي على ركبته وفوهة

السلاح ملتصقة برأسه، وضعت يداي على أذني حتى لا أسمع صوت إطلاق النار، وشرعت بقراءة آية من سورة يس..

﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾

عناية الله كبيرة بنا، لو فتح والدك الباب ودخلا لسلبا عزة هناء وكرامتها، جمالها سيؤجج شهوتيهما ويجعلها تثور ولا يردعها رادع، ساعتها هما الحاكمان للبيت، القانون فوهة السلاح والقضاء إصبع على الزناد، صرخا بأن تخرج وإلا كانت سبباً في مصير الرجل. إنكار وجودها جوابه لهما.

السجن عقابه لسرقة مواد غذائية ونزوله في بيت لا يملكه والتستر على هارب، اقتاداه للخارج وأم هناء تتوسل بأن يطلقاه، حِجارة قلباهما حين تجردا من الإنسانية، مشاعرنا هي ما تميز بشريتنا عن البهائم، اقتادا أبو هناء وما استطاع حمله من طعام، أم هناء على الباب تراهما يصعدانه السيارة العسكرية ويرحلان به. بكت بحرقة عليه، خرجنا من بيت أبو خالد ودخلنا بيتنا وأغلقتُ الباب، أم هناء تحتضن ابنتها وتبكيان، والدك ضرب الحائط بقبضته مغلقا عينيه بقوة ورأسه منحنٍ للأرض يصارع قهرا في صدره، أسندت ظهري إلى الحائط أتطلع إليهم، ليلة

بدأت سعيدة وانتصفت بحزن وانتهت بغم وهم كتم أنفاسنا، صورة مُصغرة عن حال البشر في دنياهم ما حدث لنا تلك الليلة.

– عطشان.

أسعفت جدي بالماء البارد بعد أن نفدت قنينته، نشف حلقه من سرده لذكريات عصيبة مرت عليه، عشتها خيالا تجسد بعقلي وإن لم أعشها بجسدي، أحسست بهم لحظتها فرحت لفرحهم شممت أكلهم ولم أطعمه كما لم يطعموه حين عكر صفو فرحهم جنديا الاحتلال، احتلا البيت كاحتلالهم لبيتنا الكبير الكويت، سلبا خبزنا وزيتنا كما سلب نظامهم خيرات كويتنا، وحدها عزتنا وكرامتنا لم يسلبوها.

سألني جدي عن صلاة العشاء هل حانت؟ كذبتُ عليه لحظتها لم أرده أن يقطع سرده، ذهبت الخادمة فيما كان يشاركني ذكرياته وأذن المؤذن ولم ينتبه، بحر ذكرياته حجب عنه أي شيء، أخذ بمسامعي وغصت معه.. الظلام حالك، سرده يحيله إلى بيت صغير تبدى لي، أرى أبي يضرب الحائط، أرى أمي بين يدي جدتي تبكيان، جدي يراقب بصمت، لا حيلة بيده، مرارة العجز بعد القهر علامة فاصلة بين طريقي التهور

والتأني.

والدك أحس أن شجاعته انتزعت منه لحظة اعتقال والد حبيبته، شعر بضعفه في عينيها، أقسم لها وهو واقف بأن يسترجعه وإن فقد حياته، اتجه للباب، هناء وأمها تعلقتا بطرف ثوبه ومنعتاه، رجاؤهما وبكاؤهما ونظره في عينَيْ الغارقتين بالدموع قيدا تهوره، رنين الهاتف أسعفنا مما نحن فيه، صوت أبو خالد المتصل شعر ما بصوتي، أطلعته بما حصل.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. قال أبو خالد.

أراد الاطمئنان علينا فكان نصيبه الجزع والحزن، سيحاول أن يساعدنا بما لديه من صلات، أمرنا أن نختبئ ببيته حتى يأتينا اتصاله في مثل هذه الساعة. الصديق الصادق مالٌ ناطق هو هبة نفسية من السماء. دخلنا بيت أبو خالد، وقد غلبنا الإرهاق والتعب، هربنا إلى النوم لعلنا نصحو وكأن شيئا لم يحدث.

يوم عصيب مر علينا أفقدنا إحساسنا بالعطش والجوع والحر، مرارة اعتصرت فوق رؤوسنا تشربتها أنفسنا ذلك اليوم، طلبتُ من والدك البقاء ريثما أذهب لأستطلع لعلي أجد الشاب وأخبره بما جرى لنا. اعترضني، أقسمتُ عليه أن يبقى،

كنت أخشى أن يذهب ولا يعود، فقد الآباء للأبناء أعظم ألماً من فقد الأبناء لهم.

لا أرى في الشارع أحداً حين خرجت، لا قطط، لا شيء، سوى صرصار مقلوب على ظهره يحاول الاعتدال، غبطت الصرصار على مشكلته عدلته ففر هاربا. جُبت الشوارع ولم أجد أحدا، ذهبت لبيت الشاب طرقته لا أحد يجيب، عدت إلى بيت أبو خالد ولم يسألني أحد عما وجدت، للأعين لغتها الخاصة في حمل الكلمات.

منتصف الليل كنت جوار الهاتف أتخيل آلام العذاب الذي يتلقاه جسد أبو هناء، انتزعني من مخيلتي رنين الهاتف.. صوت أبو خالد قائلاً... إنه استنجد بصديقه عبداللطيف الخرازة مدير الجمعيات التعاونية الذي لا يزال على رأس عمله وسيفعل المستحيل لإخراجه. شكرتهُ ودعوت له كثيرا. عدت مهرولا ولم أعلم أن التعلق بالأمل سيبعث نشاطاً في جسدي المتهالك، زففت الخبر إليهم، فرحوا فرح غريقٍ رأى قطعة خشب عائمة.

عصر الغد سمعنا صوت سيارة توقفت قرب البيت، أطل والدك من النافذة ورأى أبو هناء ومعه رجل قصير يرتدي الزي الكويتي يقفان أمام بيتنا، أخبرنا بما رأى، ذهبت لأتأكد فيما

ظلوا ينتظرون اللقاء، لم يصبروا، اختلسوا النظر، رأوا أبو هناء يحتضنني أمام البيت والرجل الكويتي يبتسم، رأيتهم يركضون، أمك شعرها يتراقص في الهواء، جدتك تستند إلى الجدار تبكي حامدةً الله، والدك عينه على دموع فرح حبيبته، الحب الشديد عقباته شديدة.صمتَ قليلاً ثم تطلع إلي، نسيت أن أقول بداية حديثنا:

اللي ما يعرف ماضيه يضيع تاليه.

الحب الفريد أمده قصير ونهايته حزينة دائما، طريق سعادة الروح بالعبادة وحدها وغير ذلك الطريق عذابها وهلاك الجسد الذي يحويها، أرقني ذلك علمت أن والدك هالك أمام عيني، واسيت نفسي بخطأ نظريتي، التأم شملنا من جديد بفضل الله ثم بفضل أبو خالد وذلك الرجل الذي أدار الجمعيات التعاونية بأمر من حكومة الكويت الشرعية، كان يصانع ويرشي المسؤولين العراقيين في الكويت حتى يقدم المؤن والمساعدة للكويتيين، بطلٌ صامت هو عبداللطيف الخرازة، أنقذ أبو هناء والشاب الذي وجده معه من حبل المشنقة، ساعات حياتنا مقدرة قبل مجيئنا للدنيا، حزننا على الأحباب لا يقدمها ولا يؤخرها أبداً، إنما حزننا يكون على جهلنا بتلك الساعة.

عاد السرور إلى البيت، عادت الحياة من جديد، والدك احتضن والدتك، أبو هناء احتضن أم هناء، أنا احتضنت مخدة قربي متخيلا أنها السعادة متوسلا لها بأن تبقى لآخر ساعات حياتي.

صفعات الحياة مؤلمة متوالية غالبا، الصبر يطهرنا منها والسخط يزيدها، والدك أحس بالنقص ساعة اعتقال أبو هناء، أراد أن يلعب دور البطولة والشجاعة ليملأ عيني والدتك كما ملأ قلبها حبا له، لم ينقطع عنا عبداللطيف، تواصل معنا، أمدنا بالمؤن، أخبرنا ببسالة المقاومة الكويتية بقيادة محمد مبارك الفجي رجل الأعمال المشهور، انضم والدك إلى صفوف المقاومة خلسة حتى قبض عليه وسجن في العراق، أخبرنا بأمره محمود الدوسري، فاجعة ألمت بنا أحاطها الحزن بجناحيه.

بدأت عاصفة الصحراء، تحررت الكويت، القوات تدخل، أبو هناء سعيد بما يرى، أم هناء حزينة لمرض ابنتها، أما أنا فكنت مجرد جسد يسير بلا روح بلا مشاعر، حتى زف لي عبداللطيف بعد شهر نبأ وصول ابني للكويت عبر إحدى منظمات الأمم المتحدة، لم أصدق حتى رأيته شبه جسد أمامي، جلد وعظم، احتضنته وبكينا طويلا، أبو هناء وأمها بكيا من فرط السعادة،

هناء طريحة الفراش منهكة من مرض الفراق، ابتسامة شاحبة صفراء عبرت بها عن سرورها عند رؤيته، قلبها ضعيف جدا، والدك لزم الفراش قربها ولم يفارقها، والداها أشرفا على تمريضها، كانت إمكانات المستشفيات متواضعة في الكويت، الحياة تعود تدريجيا، أُدخلت للمستشفى بعد أن تدهورت حالتها الصحية، والدك يصلي كثيرا طالبا من الله شفاءها، بداية شهرك التاسع كنا حولها ساعة فاضت روحها، جُن جنون والدك لحظتها وحطم كل شيء أمامه، الأطباء تدخلوا بسرعة لإنقاذك، أدخلوا الجثة إلى غرفة العمليات وأخرجوا منها طفلا حياً هو أنت.

بكينا كثيراً على والدتك، شاركتنا السماء البكاء، دموعها سوداء بسبب الآبار النفطية التي أحرقها نظام العراق، كحسناء بكت خالطت دموعها كحل عينيها تاركة بركا سوداء متفرقة على أديم الأرض، حُزننا على هناء ترك بُقعا سوداء في قلوبنا وذكرياتنا، فجوة الحزن في قلب أبيك كانت كبيرة بحيث ابتلعته وسقطت روحه في غياهبها المظلمة، وارينا جسدها التراب، والدك لم يحضر لحظتها، كان في البيت يتحسس صورتها ويلمس ويشم ملابسها، سخط على القدر من حينها، ضياء كان

الاسم الذي اختاره لك ليذكره بها لحظة أضاءت دنياه بحبها وانطفأت بموتها، مثلما رحلت أمك عن الدنيا رحل جداك عن الكويت بعد أن رَحّلت حكومة الكويت الفلسطينيين، قلة هم من تعاون مع نظام الاحتلال منهم إلا أن المجتمع لا يرحم، إن سخط على جنسية ما حمل الجميع تبعات الانتماء لها، قبلت الولايات المتحدة الأمريكية لجوءهما وبعد سنة رزقهما الله بهاني خالك.

كقدر ماء يغلي حركة قوة البخار غطاؤه كان صدري لحظتها، جاهدت دموعي ألا تنطلق، دمعة وحيدة كوحدتي انسكبت على خدي الأيسر، جدي يمسح دموعه بيده، ناولته محرمة.

نظرت له ملياً وقلت في نفسي:

كم أنت كبير صغرت مآسيك أمامك.. صفعات السنين لم تضعفك.

قاطعني حين أمرني بأن أفتح التلفاز فيما كان يمسح دموعه رافعا رأسه بإباء، فتحت التلفاز.

- البقاء لله. قال المذيع.

قرأ المذيع أسماء المتوفين، نشرة الأخبار فاتته فقام ليتوضأ

ويصلي.

حُب أبي لأمي كبير الحجم صغير الأيام، مُعادلة يصعب فهمها هي الحياة إن أَعْرَضتَ أَقْبَلَتْ وإن أَقْبَلْتَ أَعْرَضَتْ، حكايتي معكِ بوادرها مأساة عظيمة الأثر على قلبي، ضحيةً كنتُ للعبة الأيام، بدأت الحكاية من جدي من قصتي معه أنقلها لكِ كومضات من حياتي لتصفحي إن قررت طيّ صفحتي لتتفهمي إن فتحتها من جديد، فهمُ جدي للحب أوقفني على حياد منه، خشيتُ أن تقصر أيامي معكِ، لاحت لي نهايتها حين وقعت في حبكِ، حين سقطت في بحر عينيكِ، وغرقتُ هياما في رؤيتهما.. آه.. كم أراهما أمامي فيما أسطر هذه الحروف وأرصها، رماديتان حين تتلألأن على ضوء الشمس، سوداوان حين يظلهما ظل، رماح حالكة السواد هي رموشك تُنبئ بهلاك قلب من يقع ضحية عينيكِ، لن أسترسل فيما أراه فيكِ من جمال لتكملي قصتي إلى أن تنهيها أو تبتدئيها.

* * *

دار الحي

ركوب الطائرة لأول مرة كرؤية البحر وركوبه لأول وهلة، رهبة أصابتني عندما دخلت إلى جوفها متوجها لدولة الإمارات العربية المتحدة إلى دبي المشهورة بـ«دبي دار الحي تروح لها شايب ترجع صبي».

أبو شعرة وعبدالله قعدا في المقعدين اللذين كانا خلفي مباشرة، الطائرة ممتلئة تماماً وشبه مخنوقة، سلم علي شخص ملتح في العقد الرابع من العمر يقعد في أقصى اليسار، أبو شعرة همس لي بأن أنظر إلي فتاة مقبلة تمر بين صفي المقاعد، قطعة قماش سوداء ضيقة سترت ما فوق ركبتيها لمنتصف خصرها، قميص بنفسجي ضيق وجهها الأبيض غطته نظارة فضية كبيرة، أحمر شفاه داكن أبرز شفتيها، ناولت المُضيف تذكرة مقعدها، ضحكنا عندما جلست بجوار الرجل الملتحي، كنا نختلس النظر إليهما، أشاح بنظره عنها بصورة أزعجتها، يتمتم أظنه يستغفر، لم يتحمل قربها، طلب من المضيف تغيير مقعده، كان الرفض نصيبه، اشتد النزاع بينهما، قامت الفتاة وأخذت حقيبتها بصمت وسارت حتى طلبت من رجل قاعد أن يبادلها الكرسي، وافق

وذهب لمقعدها، عندما رآه أبو شعرة لم يتمالك زمام نفسه، انفرط ضاحكا وسط ضحكنا، الملتحي تعكر وجهه حين رأى من سيجاوره، رجل ملتح عصب رأسه بقطعة سوداء توسطها الصليب وكان متقلداً آخر كبيراً على صدره.

أصابعنا مختلفة الطول، نولد من رحم واحد مختلفي الآراء والأفكار سنن الحياة هكذا، تغيير المفاهيم وحب الخير للبشر لا يأتي بالتشدد والتنطع.

قبل إقلاع الطائرة أعلمنا الكابتن عن اسمه ووجهتنا ثم قرأ أذكار السفر، دار المحرك بسرعة وملأ ضجيجه قمرة الطائرة التي أطلقت العنان لعجلاتها لتنطلق، ارتجاج قلبي أشد من ارتجاج الطائرة على المدرج ونبضي يزداد بقوة، حلقي نشف ساعة تحليقها، التفافها جعل كياني يهوي، الجاذبية تحاول إمساكنا بأناملها الضعيفة بعد أن انفككنا من ساعديها القويين. حلقت عاليا، يدي تعتصر مقبض الكرسي، جسمي متصلب، لم أهدأ حتى خف الصوت المشابه لصوت شلال عظيم واعتدلت في السماء، شعور متبادل لمحيطي الذي أنا فيه، صوت بقربي قال لي:

- لا تخاف!

رجل أسمر حليق واسع العينين لباسه إماراتي، يتسم الإماراتيون بالأعين الواسعة والطول أحيانا، أعلمني أن أي شخص سيصيبه ما أصابني لحظة ركوبه للطائرة لأول مرة. استأذنني للذهاب لدورة المياه، التفت خلفي، أبو شعرة نائم وعبدالله يقرأ رواية، نظرت من النافذة، السماء زرقاء شاحبة والأرض صفراء بعيدة، ابتلت جبهتي بالعرق فجأة! خوف ألّم بي جراء حقيقة مجنونة خطرت بفكري استحوذت علي وشلت كياني، نظرت لقدمي صفيحة تحتها ما تفصلني عن الأرض.

أنبوب يحملنا في الفضاء، الكل يحترم الآخر بابتسامة أو بصمت لا أحد يتعدى حدوده، نموذج التعايش بسلام وإن اختلفت الأفكار تجسد في الأنبوب الذي يقلنا لوجهتنا، كلٌّ اشتغل في شأنه ما بين قارئ ومتصفح لقنوات الشاشة الصغيرة على الكرسي الذي أمامه وآخران ملتحيان كل يترنم بديانته ومعتقده، جاورا بعضهما على مضض.

– السلام عليكم. قالها الإماراتي حين قعد بقربي.

كويتي أنا. إجابتي لسؤاله عن هويتي التي جعلته يسترسل بحديثه.

الكويت بلد كرم وخير، إن كانت الإمبراطورية البريطانية لم

تغب عن أراضيها التي احتلتها عين الشمس فالكويت أيضا لم تغب عين الشمس عن سخائها وعطائها في البلاد التي مدت لها يد المساعدة، كان لنا نصيب من خيرها قبل الاتحاد عندما كنا إمارات متفرقة، دبي احتضنت أول مجلس للإمارات المتصالحة عام ١٩٦٨م، ثم تم الاتفاق على الاتحاد ١ ديسمبر ١٩٧١م، وأعلن عنه من اليوم الثاني في قصر الضيافة في دبي، اليد الطولى لاتحادنا تعود للشيخ زايد آل نهيان والشيخ راشد آل مكتوم، كانت الكويت درة الخليج حينها والدولة الأكثر حضارة وازدهارا في الوطن العربي، أما الآن فعصر دبي المدينة العالمية الأولى في الاستحواذ على آخر ما توصلت له أيادي الهندسة من تصاميم.

كنت أنظر له بسخافة حين امتدح مدينته، استمر في حديثه عنها وكأنها فتاة أحلامه ومعشوقته، حب الكويت وأُلفتي لمعالمها أعمى عينيْ عما سواها، حتى انكشف العمى ورأيت ما أخبرني به حقيقة تتجلى أمامي، بنايات تعانق الغمام، طرق واسعة منظمة نظيفة.

عبدالله زار دبي كثيرا مع أعمامه، أكد لي صحة ما قاله الإماراتي، نظام إداري عالمي جعل دبي ملتقى للحضارات ومفترقا للطرقات بجهد حاكمها محمد بن راشد الرجل الطموح في التفنن برسم معالم لوحته، السفر يفتح الآفاق للعقل ويوسع مدارك الرؤية، علمتُ منه أن الكويت بها فنانون في التفنن برسم معالمهم الخاص على حساب جمالها المشوه.

استراحة سائح جمعتنا في غرفة بأحد فنادق دبي المطلة على خورها، أرجلنا تورمت من المشي في سوق الإمارات التجاري، كنا نشاهد السيارات تمر بمحاذاة الخور والسفن الصغير والكبيرة تمخر مياهه والأنوار تتراقص على أمواجه. كنت أتساءل؟

لما لم أر أعين المراقبة التي ترصد محاسن النساء في السوق رغم حجمه الكبير؟

لم ألمس أشكال التحرشات من بعض الشباب والالتصاق بالفتيات وكأنهم من أهلهن كالتي في بلدي؟ المعاكسات لا أثر لا عنوان لها بين مرتادي السوق!

صرامة القانون لها أثرها في الإمارات خاصة في دبي قالها

عبدالله، السجن وحلق الرأس ونشر الصور في الصحف عقوبة من يقوم بهذه التصرفات، أحد أصدقاء أبو شعرة وقعت عليه العقوبة، لم يرتدع، عندها منع من دخول دبي أشهرا.

هز رأسه مصدقاً قول عبدالله فيما كان يشعل سيجارة، واضعا رجلا على الأخرى ينظر لساعة الفندق التي تشير إلى العاشرة مساء، عبدالله قام وأدار مفتاح إضاءة الغرفة مخففا من الضوء، عندها اتضحت صورة المباني والطرق من خلال النافذة الكبيرة وكأنها لوحة رائعة الجمال، هدوء يعمنا، أجواء المكان خلابة، لم أشعر بمثل ذلك الشعور مسبقا، أحسست بطعم الحياة.

عبدالله اشترى كُتباً، قام بإخراجها من الكيس ووضعها على الطاولة أمامنا وتصفحها، أبو شعرة يسأل عن سر غرامه وشغفه بالقراءة؟

- كشغفك بملء رئتيك بالدخان الضار بصحتك فقط بمعنى الشغف وليست المضرة، أغلفة الكتب بوابات لعوالم مختلفة دخولها لا يكلف شيئا والخروج منها له أثره على النفس والعقل. قالها عبدالله.

نفث أبو شعرة دخانه بعيدا عنا وانحنى بجسده نحو عبدالله،

مستوضحا منه منفعة الروايات التي يقرؤها؟ يراها أنها إلا قصص اختلقها القصاصون، تسرح بعقول القراء بعيدا عن واقعهم.

ابتسم عبدالله وشبك أصابع يديه وأسند ظهره إلى الكرسي، واضعا رِجلاً على رجل، كنتُ أنتظر جوابه لأبو شعرة.

يصعب على المرء تخيل متعة الغوص إن لم يجربه، الرواية ليست أداة لهو كُتابها المتخصصون بفنها قليلون، أسماؤهم تعرف بعد سنوات من الوصول لفن مخاطبة الضمائر والشعور والعقل، الطريق لقراءة الكتب يبدأ منها، الأسطر الأولى لها لا بد أن تكون قوية الأثر على المتلقي لاصطياد القارئ، طعمٌ نافذ الرائحة هي لاصطياد القراء إن أحسن الكاتب اختياره لمفردات بداية ما يكتبه.

نظر إلي بعينيه البُنيتين، شبح ابتسامة يعلو شفتيه.

الرواية هي قضية أو فكرة ما، يطرحها كاتبها من خلال سرد قصصي يجعل القارئ يتقمص أو يساير شخصية البطل، يجعله يشم ويلمس ويرى ويتذوق، يوصله للشعور بتفاصيل القصة وأحداثها، إن نجح فلن تفارق خيال القارئ كلماته، الرواية صناعة من أرقى الصناعات؛ لأنها نتاج عقل بشري متفحص للألوان المختلفة لحياة البشر ومحيطها. شعر بالزهو حين قال

كلماته الأخيرة. نظر أبو شعرة إليه برهة ثم قال:

- ما فهمت شيء.

فتح عبدالله فمه باستغراب وانحنى بجسده للأمام بعد أن أنزل رجله عن الأخرى وكأنه يريد خنق أبو شعرة الذي أسند ظهره إلى الخلف ووضع رجلا على الأخرى واستمتع بنفث الدخان وهو يبتسم، لا أعلم هل فعلا لم يفهم؟ أم أراد إغاظة عبدالله فقط!

فهمتُ منه أن الروايات الحقيقية بحار مختلفة الأحجام، عميقة القاع، كثيرة الثروات، عبدالله مثقف من طراز فريد لن يفهم عليه أبو شعرة إلا إذا خالطت مياه البحار مياه الأنهر.

أجبت حين رن جرس الهاتف.

- مِستر سعد مساج. صوت أنثوي أجنبي.

نظرتُ لعبدالله وأبو شعرة مستفهما؟ قام أبو شعرة بعد أن سمع صوتها وقبل أن يهم بالخروج من الغرفة نظر إلينا.

- اترك عنك الكتب واستمتع بالمساج. قالها وهو يضحك مغلقا الباب خلفه.

* * *

خمسة أيام قضيناها في دار الحي دبي، استمتعت مع صديقَيْ المثقف والبسيط، ضحكنا كثيرا، تشاجرنا قليلاً، نبقى أصدقاء وإن اختلفت مفاهيمنا، موافقتنا لآراء بعضنا أو اختلافها ليست طريقين متضادين أو مفترقين إنما طريق واحد ليكمل بعضنا الآخر، لم يتشنج جسمي ساعة أقلعت بنا الطائرة ليلا عائدة للوطن، لم يهوِ كياني أو يزداد خفقان قلبي ساعة التفت حول دبي وكأنها تودعنا، ما أجمل المدينة ليلاً حين جعلتها أنوارها كحسناء تحلت بعقود الذهب وطوقتها حجارة الألماس بارقة هنا وهناك، لو رأى أحد عمالقة الشعر جمال المدن ليلاً من الجو لترك تغنيه بالنجوم.

لا يحتاج المرء إلى بحث موسع لمعرفة مدى رقي وحضارة أي بلد إن رأى مدى تحضر منافذها ورقي أخلاقيات من يعملون فيها، مطارات العالم هي الوجهة المبتسمة لهوية البلاد، مطار الكويت مثال ملموس عن حالتها، استغرقت قدر المدة التي قطعتها لأتسلم حقيبتي، أبو شعرة انفجر غضبه في وجه أحد العاملين، عبدالله أصابه التبرم حاله حال المسافرين، كنت أشاهد ذلك متحسراً على تردي الخدمات رغم ما ننعم به من خيرات، الفوضى مرتع خصب للمفسدين، إنفاذ النظام يعطل

مصالحهم ويقضي عليها، اجتثاثهم يحتاج قوة حديدية بعد أن تغلغلوا في جذور الوطن.

خرجنا من المطار بعد أن فقدنا نصف السعادة التي قضيناها وكأننا ندفع ضريبة ذلك عند دخولنا، صعدنا لسيارة أبو شعرة المركونة في المواقف واتجهنا لمنازلنا.

رؤيتنا للأشياء تختلف عما ألفناه عند عودتنا من السفر، عند وصولي للمنزل رأيت سيارة جديدة من نوع فولفو صغيرة الحجم مركونة أمام منزلي، أبو شعرة يقول إن عندنا ضيفة، لا يركب هذه السيارات إلا الإناث.

الساعة تشير إلى الحادية عشرة، من الزائر كنت أتساءل؟

* * *

رجل قاعد على أريكتنا بيده زجاجة بيرة، بياضٌ كسا أعلى شعره الناعم بشكل دائري أسفله أسود يذكرني بقمم الجبال حين يكسوها الثلج، جسمه نحيف، مادا رجليه على الطاولة أمام التلفاز، زائرنا لم يكن سوى أبي الذي أحس بدخولي فقام، تقدمت بخطوات سريعة، صافحته ولثمته بقبلة على جبينه، قعدنا وبدأ يسألني عن رحلتي الأولى خارج الكويت وكيف هي دبي؟

حدثته عن مدى روعة المدينة ونظافتها الملحوظة، عن المشاريع التي تملأ الأماكن الفضاء فيها، لم أر التراب أو الحصى يتطاير أو يتساقط على الطرقات جراء الإنشاءات الجارية، أجادت حكومتها التفنن في التفاصيل الصغيرة قبل الكبيرة.

كنت أحدثه وأنا لا أعلم لِمَ أحدثه بهذه الطريقة التي لم يسبق لي أن حدثته بها؟ سابقاً لم يكن بينا سوى سلام وقُبلة على الجبين وحمد لله على السلامة ثم الانطواء على نفسي أراقبه.

السفر نَفّسَ عن نفسٍ مكبوتة، علاقتي بوالدي شبه منعدمة، الاتصالات بيننا قليلة، هذه المرة اختلفت تماما، هل وجدت

ما أحدثه فيه لأعزز علاقتي معه في ظل صمتنا المتبادل منذ سنين؟

ألسنتنا جسور للتواصل مع الآخرين، فيما أنا وأبي جسرانا معلقان قبل هذه السفرة.

رأيته يبتسم لي! هل وجد ضالته أم هناك شيء يخفيه عني؟ صوت جدي يقاطعنا، قمت أقبل يده ورأسه، يحمد الله على سلامتي. دعوت الله أن يتقبل سَعيه وطاعته. عاد من مكة منذ يومين، التأم شملنا ثلاثتنا الأرملان والأعزب بعد شهرين من غياب والدي، حدثنا جدي عن مكة حيث بيت الله في الأرض مهبط الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الرجل الذي حمل رسالة الرحمن للعالمين من أجل تحريرهم من استعباد بعضهم بعض باسمه، أرسله الله ليحررهم من الرق والهوان الذي منع عقولهم من الانطلاق لعمارة الأرض في ظل شريعة سمحاء تنظم حياتهم ولا تخل بالآخرين ولا تظلمهم، المصطفى هو القدوة الرئيسية لتعاملاتنا هو المنهل الصافي الزلال للورود إلى جادة الحق وسعادة الإنسان.

لستُ أنا وحدي من تجدد بعد السفر، جدي يسترسل بالحديث ونحن مستمتعان، ثلاثتنا ممدنا الجسور، جسر أبي

ممدود السير فيه معلق إلى الآن. صمت جدي فجأة! ونظر لأبي المبتسم.

- عطيته الهدية؟ قال جدي.

- لا بعد.

وقفت مشاعري متأهبة للهدية التي فاجأني بتحضيرها! أبي قام وأخذ من فوق التلفاز علبة سوداء صغيرة، لم أنتبه لها ساعة دخولي، قدمها لجدي الذي أمره بأن يعطيني إياها بنفسه، قعد وناولني العلبة، لم أبد أي تعبير على صفحة وجهي حتى بدأت الزوبعة التي أحدثها فتحي للعلبة، تحركت عضلات وجهي راسمة ابتسامة عريضة، مفتاح سيارة فولفو ما في العلبة، جدي مبتسم وأبي كذلك.

الهدية مفتاح لجميع أنواع القلوب، هديتي الفعلية ليست هي السيارة بل هذا الاجتماع الباسم الذي جمعني بوالدين شكتهما الدنيا برصاص نافذ أدماهما سنين، كشرت عن أنيابها ومزقتهما ثم لفظتهما أجسادا خاوية من الشعور بطعم الحياة.

جدي أمرني بتوخي الحذر أثناء القيادة. أبي يقول... إن جدي من اختار لي هذه السيارة لمتانتها، يخشى علي من الحوادث فلا أكون سببا لقلقه وحزنه.

قمت وقبلت رأسيهما، خرجت لتفحص السيارة وهما يتبعاني، لم أحصل على رخصة القيادة بعد، أبو شعرة له الفضل في تعلمي القيادة منذ عام، ركبت السيارة، رائحة زكية تنفذ لأنفي محدثة بهجة في نفسي وشعورا بأن حياتي سعيدة جدا وهذه بدايتها. أدرت المفتاح، صوت المحرك يعمل، استأذنتهما بعمل جولة، دخلا البيت فيما رجعت للخلف ثم انطلقت بها أجوب الطرقات، هاتف عبدالله مغلق، أبوشعرة هاتف يرن لا يجيب.

سرت على الدائري الخامس، مصابيح الطريق ترحب بسيارتي الجديدة التي أحببتها، فتحت المذياع صوت سيدة الغناء العربي ما بادرني.....

ترا ترا تاء ترا ترا تاء

يا أنا يا أنا أنا وياك

صررنا من اللإصص الغريبة

يا أنا يا أنا وياك

و إن سرأت مكاتيبي

وعرفوا إنك حبيبي

وعرفوا إنك حابيبي.

ترنمت واستشعرت تلك الأغنية التي سمعتها لأول مرة، لحنها وكلماتها أصبحت في ذاكرة القلب، لم أعلم أنها ستكون لحن حبي لكِ، لم أعلم أن كلماتها هي حكايتي معكِ، أصبحت نَغمة حياتي وشدوها، ينبض قلبي ساعة رؤية طيفكِ، كلمة بخلت بها عليكِ حينما كنتُ معكِ.. نعم..

أحبكِ.. أحبكِ.. أحبكِ..

كلما رددتها سمت روحي وانتعشت نفسي، أُخبركِ قصتي لتعرفي كم كانت فارغةً قبل أن يعرف قلبي الطريق.. لعينيكِ.

هاتفي يرن، اسم أبو شعرة يظهر على الشاشة، أخبرته أنني سأعرج عليه بسيارتي الجديدة ونذهب لشرب العصير، بارك لي وسألني ما نوعها؟

- فولفو. قلت له

- سيارة البنات اللي واقفة عندكم؟ قال.

* * *

العائلة

أبي لا يسافر في شهر رمضان، يقضيه في الكويت معنا. رمضان ليس له طعم بلا مشاركة الأقارب والأصدقاء أجواءه. قالها عبدالله لي يوما. معظم الأيام نشارك أبا خالد وأبناءه مائدة الإفطار، الأجواء في رمضان مفعمة بالانشراح والسرور، قصيرة هي أيامه ولياليه، يبدو أن التواصل والزيارات هي السبب كأي فرح ساعاتهُ دقائق. لحظات سعادتنا تلهينا عن الوقت ومراقبته، الوقت ثابت لا يتغير، مشاعر الإنسان هي المتغيرة.

مائدة الإفطار جمعتنا عند أبو خالد، الأصناف متنوعة، توسطها سيدها الأرز يعلوه اللحم المصلى، تحلقنا ونحن قعود على الأرض حول الصحن، كنا نتزاحم لمد أيدينا، عبدالله أمامي وأبو شعرة بجانبي يده طويلة، أبي، جدي، خالد، أبو خالد وابنان له آخران وخادمهم الهندي، بعد الإفطار أدينا صلاة المغرب في ديوان أبو خالد وشرع يحدثنا عن النعمة التي نحن فيها مقارنة بأيام أجدادهم والشقاء الذي كابدوه للحصول على لقيمات، أخبرنا بقصص حدثت لأسلافه، يُتحفنا بالشعر يتغنى به. أبو شعرة خرج فجأة! القطران نقص في جسمه يحتاج

سيجارة لإعادة توازنه، أشم رائحتها قرب الباب حين وقف خارجا يدخن، جدي يستمتع بأحاديث أبو خالد ويقول:

لقد حدثناكم بما جرى على آبائنا من فقر وفاقة، رُبما يومًا ستحدثون أبناءكم أو أحفادكم عما كنتم فيه من خير ونعمة إذ لم تحافظوا عليها بالشكر والحمد لله.

* * *

مرت الأيام سريعة تتسابق، دخل أبو شعرة الكلية الأمنية، عبدالله وأنا في الجامعة، المرحلة الأخيرة للثانوية هي أفضل مراحل التعليم التي لا تنسى، أولادا كنا، نلهو، نتعارف، نحب بعضنا، المصلحة لا تعرف طريقها إلينا، الجامعة مرحلة بنيان الشخصية، الكل يتكسب على الآخر، يصعد على أكتاف معارفه، كلما زادوا ارتفع إن أحسن خداعهم بالابتسامة الماكرة والأحاديث المغلفة بالود، الأحزاب تتنافس لقيادة الاتحاد الطلابي، دولة مصغرة هي جامعتنا، الواسطة غالبة مستحوذة، قلة هم الأساتذة المتعلمون والمعلمون الممانعون للوساطة في التعليم، خلل هيكلي آلم به، أمة رأيتها تغرق في بحر الجهل، المُصلح في مجال التعليم يجد نفسه وحيداً أمام مجتمع مريض بداء الواسطة، لقمة هو في الحلوق، مضروبٌ ظهره بسياط سخطهم وجهلهم، الترحيب والود كل الود يقدم لمن يغش العلم، يهدم الأجيال، يرفع الجهل على العلم حين يرفع من درجات طالب فاشل على آخر مجتهد، حالة تنبئ بمستقبل مظلم للبلاد.

خضت جدول المقررات الدراسية، تعرفت على زملاء جدد، عبدالله انشغل بكتبه زادت شهيته للقراءة، أبو شعرة لا

أراه إلا يوما في الأسبوع، خمسة أيام محتجز بالكلية يقضيها في التدريب الشاق والمحاضرات، ويوم يقضيه نائما أربعة وعشرين ساعة، رأيت صديقَيْ تأخذهما تيارات الحياة، جدي على عادته قصصه لا تنتهي لا تُمل، اعتدت هذا الأمر حتى أتى اليوم الذي تعرفت فيه على سالم، شاب قصير لحيته كثة، أظن سبب فصاحته يعدو لاتساع فمه، جمعني به أحد المقررات الدراسية هو في مرحلة التخرج، الابتسامة والسلام كانا بداية التعارف الذي غير مجرى فكري، دعاني للعب كرة القدم مع أصدقائه في أحد الملاعب المستأجرة، بعد صلاة العشاء كان الموعد، حين وصلت ودخلت الملعب أقبل علي أصدقاء سالم مرحبين، أحسست أنني شخص عظيم في نظرهم، إحساس جربته لأول مرة في حياتي، بعضهم شذب لحيته وقلة أطلقوها، أحدهم ليست له علامات بينه بسبب لحيته التي غطت وجهة ولم تظهر إلا عيناه، الابتسامة تملأ الوجوه، الأعين مركزة علي وكأنني نجم الملعب ومحرز الأهداف، الصفارة تعلن انطلاق اللعبة، الكرة لي وحدي رغم إضاعتي للكثير من الأهداف التي كان بمقدور أقلهم مهارة أن يسددها، الكل أخذ رقم هاتفي ساعة خروجنا وتفرقنا على وعد ألا أنقطع عنهم، لم أحس

بطعم الأسرة إلا معهم، إخوة كانوا ساعتها.

مستقبلنا مزهر طيب الثمار إن أحسنا زراعة حاضرنا ودأبنا على المواصلة لمستقبلنا، كلمات سمعتها مرارا من سالم الذي لم يتوان في التعرف على جدي معربا عن مدى سعادته بمعرفته، بدأ سالم يُعرفني على أصدقائه في ضاحيتنا، كان لهم اجتماع أسبوعي في أحد المنازل والتخطيط لجدول الأسبوع المقبل، حياتهم مفعمة بالنشاط وتأدية الصلوات في المسجد، أخبرني سالم بألا أصلي في مسجدنا، إذ إن إمامه الشاب متشدد وغبي، غازي إمام مسجدنا شاب كثير تلاوة القرآن، كان سببا في حرق بعض كتب عبدالله على يد والده، روايات لا خير منها وكتب فلسفة أو فَلٌّ وسفه كما يراها. عبدالله استشاط غضبا وكره غازي من يومها، لا يصلي الجمعة عنده، يراه نموذجا سيئا لروح الإسلام. أيدت سالم على غباء غازي وتشدده وأجبته على أن أصلي في أحد مساجد أصدقائه في ضاحيتنا.

بدأت صلاتي مجاملة لهم حتى لا أنقطع عن عائلتي الجديدة التي كنت نجمها ووليدها الجديد، مواظبتي على الصلاة جعلتني أخجل من معبودي، كيف أخجل من الناس وأصلي ولا أخجل من الذي يعلم خافية الأعين وما تخفي

الصدور، عزمت بعدها على أن تكون صلاتي لله وليس على خجل من عائلتي، بدأت أطلق اللحية وأهذبها وأحددها، جدي لاحظ تغيري وكلما قعدت معه قال:

فيل السيرك لا يتحرك من المكان الذي يضعه سائسه فيه!

لم أستفسر منه عن سبب هذه الجملة، أنتظر إجابته بلا سؤال؟ فلا يسعفني بالإجابة. جدي لا يتكلم بقصة بلا سبب، لم أحفل، جدولي الأسبوعي مزحوم مع عائلتي، أبو شعرة افتقدني، يوم واحد لا يكفيه لمواصلتي، انشغلت عنه بالمخيم الربيعي الذي نقيمه مع سالم، ألعاب جماعية تخللها دروسٌ دينية عقدت في المخيم كل نهاية أسبوع وأضافت الأناشيد جوا رائعا على المكان، انغمست أكثر في العائلة التي استحوذت علي كشجرة كينا كاربس مدة جذورها السطحية مستحوذة على جذور برعم معيقة نموه.

جميع أفراد عائلتي يحبون كسب المزيد من الأصدقاء، مخيمنا استقطب عائلات أخرى من عائلتنا الأم من مختلف محافظات الكويت، كبار، صغار، مشاهير، مغمورون، الكل ألقى تحفظه خارج عتبات مخيمنا، تعرفت على شخصيات فاعلة في المجتمع، دونت أرقام هواتفهم، عبدالله لم يصدق

حين أخبرته بمعرفتي بهم، أخذته للمخيم معي ذات يوم، التقى بهم وأعجبوا بطرحه لبعض القضايا السياسية، أحسست بغيرة خفية من صديق الليالي والأيام.

كلما تعلمنا تحكمنا في ضبط أنفسنا ومشاعرنا، لا نرى سوء تصرفاتنا حتى نراها في أشخاص غيرنا فنكرهها ونحاول التخلص منها، غيرتي من عبدالله وقتها كانت شرارة لنار الحسد بعد أن توطدت علاقته مع عائلتي ولفت انتباههم عني، حجج تذرعت بها للجانبين حتى لا أكون أداة وصل بينهما، بدأ عبدالله يرمقني بنظرات عاتب من تصرفاتي، لم أدرك وقتها أن خير الأصدقاء هم أصدقاء الطفولة، الأصدقاء الذين عرفناهم متجردين من الزيف والخداع والتكسب والتبعية.

أبو شعرة أحس بجفاء بيني وبين عبدالله، دعانا ذات ليلة لوليمة في أحد مطاعم الطريق المشجر، بدأ الجفاء يزول كقطعة ثلج ذابت حين أضحكنا أبو شعرة بمقالبنا الماضية وشَعرته التي كانت سببا في حجزه في الكلية نهاية الأسبوع حتى اعتاد المدربون على نموها السريع وأطلقوا عليه لقب أبو شعرة، ليلة جمعتني بأعز صديقين وأعز أخوين حقيقيين.

تكررت زيارة عبدالله للمخيم حتى طلب سالم مني عدم

إحضاره! متعللا أن هذا المخيم مختص في القائمين عليه. لم أعرف السبب الحقيقي ساعتها! رغم رؤيتي لشباب آخرين يتوافدون على المخيم منهم من يستمر معنا ومنهم من ينقطع، سالم أراد قطع زيارة عبدالله للمخيم لسبب ما!

احترت كيف أخبر عبدالله حتى ألقى عن كاهلي عبءَ إخباره، حين أطلعني بأنه لن يزور المخيم بعد أن حصل نقاش حاد بينه وبين أحد القائمين على المخيم أمام الجميع. لم أكن وقتها حاضرا ولم يطلعني أحد أفراد العائلة عن الحادثة، وحده عبدالله أطلعني على الأمر الذي لم يتقبله منهم وأنهم مجموعة تصطاد الشباب لغايات سياسية، تريد من أتباعها الطاعة العمياء لمن فوقهم، نعم هناك إيجابيات من العمل معهم لكن! في النهاية يقمعون الأفكار النيرة التي تعارض طريقهم ومبادئهم. دائماً يقنعني عبدالله بآرائه إلا هذه المرة، شعرت أنه كرههم لمجرد اعتراضهم على ما حمله من أفكار استسقاها من كتب متنوعة، لم أعلم أنه لم يكن يريد إقناعي، بل يريد تحرير عقلي من التبعية.

استمرت علاقتي مع عبدالله رغم الساعات القليلة التي نقضيها معا، سالم حاول قتل علاقتي مع صديقي، محاولات

باءت بالفشل فهو جار وصديق، أتت عطلة المناسبات الوطنية، عندها رافقت عائلتي للديار المقدسة، سبع سيارات حملتنا إليها، بعد أن غادرنا منفذ السالمي الكويتي ودخلنا لمنفذ الرقعي السعودي وقت مغيب الشمس دَرة السماء، البرودة في تزايد وسط الرياح والأمطار المصاحبة للبرق، مررنا بمحافظة حفر الباطن، ثم محافظة المجمعة التي استرحنا ليلتنا فيها، كانت ليلة متعبة، الطريق طويل جدا، ستمئة كيلو متر قطعناها وتبقى ثمانمئة كيلو متر، هي سفرتي البرية الأولى، لم أزر المملكة العربية السعودية مسبقا، قلبي يملؤه الشوق لرؤية بيت الله الحرام، كلما قلصت المسافة بين قلبي والكعبة ازداد خفقانه، ولساني يردد...

لبيك اللهم لبيك إن الحمد والنعمة لك والمُلك.

كل سيارة لها أمير حتى حينما وصلنا إلى مكة، بعد أن أحرمنا من ميقات السيل الكبير ونزلنا في إحدى الشقق المستأجرة القريبة من الحرم، كان علينا أمير لكل غرفة حوت خمسة أشخاص، عند رؤيتي للكعبة للوهلة الأولى أصبت بالرهبة، رأيت الكعبة مرات عديدة عبر التلفاز ولم أشعر بالرهبة كرؤيتي المباشرة لها، الصور التي لا نركز فيها لا تنقل لنا الأحاسيس

والشعور كالروايات الخالية من الوصف.

لو كنتُ أعرفكِ ساعتها لركضتُ نحو الكعبة وتعلقت ببابها مستغيثا رب البيت أن يجمعنا معا قبلَ ما قُدّرَ لي ولكِ من أحداث مؤلمة.

المعتمرون يطوفون حول الكعبة، المكان مكتظ بمختلف البشر الذين أتوا من كل قطر وقارة، الكل منكب على نفسه يناجي ربه، مجموعة يتبعون شخصا يدعو الله ويسأله وهم يرددون كلامه، التكبير يزداد ساعة هطل المطر، الساعة تشير إلى السابعة مساء عندما بدأت بالدوران حول البيت، كتفي اليسرى مغطاة فيما اليمنى مكشوفة، شددت الحزام على قطعة القماش الأبيض التي تسترني، خشيت سقوطها وانكشاف عورتي التي تعرت من السراويل، قطعتان فقط تكسوان جسمي ليس لهما أكمام، المطر الشديد جعل الناس يكملون طوافهم تحت المظلات القريبة من الكعبة، صحن الطواف خال إلا من ثلاثة أشخاص أنا منهم، رفاقي طلبوا مني أن أكمل طوافي معهم في الدور الأول حيث المظلات، لم أعرهم اهتماما وأكملت الطواف، قطرات المطر تصطدم برأسي بقوة، أكملت سبعة أشواط حول الكعبة، ختمتها بقبلة على الحجر الأسود الذي

غسلته الأمطار من لعاب بني آدم ولم تستطع أن تعيد له لونه الأبيض بعد أن اسوَد من ذنوبهم، ركعتان خلف مقام إبراهيم أديتهما حال إتمامي للدورة السابعة، دعوت لنفسي وأجدادي ووالدي ولأبو شعرة وعبدالله وأبو خالد الذي أوصاني بأن أدعو له وخادمهم الذي يريد الزواج، أذن المؤذن لصلاة العشاء بعد أن أنهيت دعائي، تفاءلت خيرا بحياة هنيئة بعيدا عن تعاسة جدي وبحث أبي عن السعادة في مختلف الأقطار.

ثلاثة أيام قضيناها في مكة ما بين الحرم والتنزه في الأسواق، حفظت آيات من القرآن إثر مسابقة بيننا كنت الفائز فيها، قبل رحيلنا بيوم كنت في الحرم أتأمل الكعبة والناس حولها يطوفون وبعضهم متعلق بأستارها وآخرون مصطفون لتقبيل الحجر الأسود وبعضهم يتمسح بالكعبة ومقام إبراهيم، الشمس بدأت تغيب متوارية خلف سحب متفرقة، انتبهت لرجل وضع كرسيه بقربي وقعد، أمرد الوجه، له حاجبان أبيضان، أحمر البشرة، غدة تدلت أسفل فكه خمنت أنه جاوز العقد الثامن، كفه كبيرة جدا، عليه ثوب أبيض أزراره معدنية وعلى رأسه طاقية، سقطت علي عصاه التي ركزها على كرسيه.

– ما عليش يا ابني. قال لي.

- لا عادي يا عم. قلت له.

ناولته عصاه، شبك أصابعه على رأسها ووضع ذقنه عليها وأخذ يتأمل الكعبة، بادرني سؤاله هل أنا من الكويت؟ أجبته بنعم، كيف عرفت!

الكويتيون مميزون بشكلهم ولهجتهم، هم نيرو الفكر، دولتهم الصحراوية من أولى الدول تمدنا في الخليج العربي. بدأ يسرد لي أحداثا عن الكويت في مطلع الخمسينيات، أسرني سرده مُلم بتفاصيل أجهلها عن دولتي وأعتقد أن أبو القراطيس يجهلها أيضاً، أخبرني أن جامعة الكويت في السبعينيات مَنعت الصلاة فيها وأن وطننا العربي الكبير أضحى ألعوبة بيد الصليبيين الذين يستنزفون خيراته، الشعوب تشهد فوضى متعمدة من حكامهم، يريدونهم ألا ينهضوا كما يريده أعداؤنا، مؤامرة كبرى تحاك للأمة العربية، الغرب يريد أن يبقى في الصدارة علينا، خالقا العراقيل لعدم قيام نهضة عربية، حكامنا تواطؤوا معه فالعراقيل تخدم بقاءهم في الحكم، مشاريع تعطلت لأمد طويل، الأجيال الحالية تشهد مشاريع أقيمت من أجل أجيال سابقة لها ومشاريعهم أصبحت أحلاما، الحقوق في وطننا العربي أصبحت طموحات، النوابغ منا احتضنتهم الأحضان

الغربية، حتى أهل الخليج الذين كانوا يجيرون الأجير ويحمون من لاذ بهم تخلوا عن صفتهم التي فاقوا الأمم فيها، الغرب الآن هو من يجير من لاذ به ووصل أراضيه، يقومون بواجبه حتى يستطيع القيام على رجليه، نحن نطرد الأجير ولا نستقبله إلا إذا كان سياسيا ذا منصب، فاقنا الغرب بمكارم الأخلاق التي تخلى عنها أربابنا، قبل هؤلاء الحكام المصطنعين سُدنا العالم، أُشير للعربي بالبنان، كنا لبنة بناء للحضارة الغربية، لا بد لنا من العودة لأمجادنا وسؤددنا ولا يكون ذلك إلا بقلب الأنظمة.

كنت أستمع له بشغف، طرحه راق لي جدا وقتها، عقلي كان كالإسفنج الناشف يمتص أي شيء، ما ندخله في عقولنا هو ما يحدد شخصياتنا، المعرفة هي الطريقة الناجعة لشخصية بناءة للمجتمع. لم يقطع سرده إلا صوت الأذان.

الله أكبر الله أكبر.

في طريق عودتنا أخبرت رفاقي عما حدثني به ذلك الرجل المصري الذي عرفني باسمه، لم يعرفوه وأيدوا ما قاله وزادوا عليه أن أنظمتنا هي سبب تخلفنا.

عدت إلى البيت عصر اليوم الثاني من مغادرتنا لمكة، جدي ترك مفتاح البيت عند عبدالله كما أخبرني عندما هاتفني، ذهب مع أبو خالد وشخص آخر للبر حيث سيقيم عدة أيام، وجدت عبدالله قاعدا في الديوانية، رحب بي وقعدت أحدثه عن رحلتي حتى أخبرته عن قصتي مع المصري، دُهش لحظتها مما سمعه مني وأدهشني حين عرف الشخص!

مُفكر كبير احتضنته المملكة العربية السعودية ثم حصل على الجنسية الفرنسية كلاجئ، شخص مضطرب الفكر رغم أن كتاباته لها صدى واسع، هو بحاجة لترميم أخلاقه لأنه لم يشر إلى اليد التي ساندته قبل حصوله على الجنسية الفرنسية وأصبح يتشدق بالنهضة الغربية والطريق المؤدي إليها ملقيا اللوم على الآخرين.

لم يعجبني رد عبدالله بعد أن أثر المصري على فكري، الأقران لا يخضعون لأقرانهم وإن كانوا محقين يتطلعون لمن أكبر منهم وإن كانوا مخطئين غيرة مزجت بحسد، رفضي لما قاله عبدالله ليس من قِبل الغيرة، بل لأن أفكار سالم تتطابق مع أفكار الرجل المصري.

❊ ❊ ❊

قلّبت الأشهر صفحاتنا سريعا، أصبحتُ رئيساً لمركز الشباب في العائلة، وسالم أصبح موظفا بارزا في إحدى الوزارات وتقلد منصبا مهما في الدولة، سألته عن كيفية الحصول على ثقة أرباب العائلة؟

– الطاعة العمياء بلا سؤال وتنفيذ الأوامر بلا تردد والمؤازرة لأي فرد من العائلة يتم اختياره وعدم معارضة أي أفراد العائلة إن لم يوافقك الرأي أو العقيدة من غير الرجوع للأرباب. كان جوابه.

تعرفت أكثر على سالم خلال العامين اللذين قضيتهما بصحبته قبل أن ينشغل في منصبه الجديد، تبدت لي شخصيته الانتهازية للفرص بسرعة البرق، مصلحته طاغية على العائلة التي اعتبرها سلما للصعود، رأيت منه الكذب على الآخرين وإذا سألته لمَ تكذب وديننا يعتبر الكذب جريمة نكراء بحق النفس والمجتمع؟

ببساطة يجيبني إنها تورية وليست كذبة، علي أن أتفهم ولا أكثر السؤال. وقتها كنت غرا صغيرا مغررا به، فأيسر طريقة لاستعباد الناس هي الدين، أيا كان نوعه، بلا تكلفة، مجرد لسان محتال، يخادع الناس باسم الرب، يحرف النصوص نحو

مصالحه الشخصية، يرمي عليهم حبال خداعه ليطوق أفئدتهم ويسوقهم وراء رداء تدينه الذي كسا شخصية قبيحة.

حرصت على الأخبار مثل جدي، أتابعها يوما بعد يوم، هو يتابع قناة الكويت وأنا أتابع القنوات التي يتابعها أفراد العائلة، حتى الكتب بدأت أقرؤها ليس لتثقيف نفسي وتنمية قدراتي العقلية بل من أجل عائلتي، لأواكبها وأبرز أمامها دائماً، عبدالله فرح عندما رآني أقرأ ذات مساء في صالتنا، فرحه تبدد ساعة رؤيته لعناوين ما أقرؤه، ملاحظاته لم تجز لي.

نوّع كُتبك اقرأ لآخرين غير ما ينتمي له أفراد عائلتك من الخطأ قراءة كتب ذات اتجاه واحد، لن تتوسع مداركك لتفهم محيطك والطرف الآخر. قالها عبدالله. بعد أيام أهداني رواية لم أستسغها وقتها، أخذتها للبيت وتركتها على طاولة الصالة.

* * *

بدأت الثورات العربية، رياح التغيير بشرتنا بربيع قادم...

كل حزب شحذ همته لقطف الثمار، التعليمات أتتنا بتأييد الثورات، حضضت الشباب على بذل المزيد من الهمة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، الإسلام عائد بقوة والحكم بشريعة الله، بدأت الأنظمة تختل، الخوف اعتراها، كنت أمام التلفاز مع جدي وعبدالله نشاهد عزل الجيش المصري للرئيس مبارك (١١فبراير٢٠١١)، فرح شديد وسعني... وعبدالله ويقول:

ها هي إرادة الشعوب تنتصر على القهر والعدوان. ثم أنشد قول الشابي:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القـــدر
ولا بد لليل أن ينجلـــي
ولا بد للقيد أن ينكســـــر.

من تونس قالها ولم يعلم أن شرارة الحياة ستقدح من بلاده لتشمل الأمة العربية، جدي قام وذهب إلى غرفته وهو يردد...

- الله يكفينا شرها.. الله يكفينا شرها.

مد الثورات العربية وصل للكويت، اشتدت شوكة الأحزاب

المعارضة لنهج الحكومة،الأمر الذي أدى لقبول الأمير الشيخ صباح الأحمد لاستقالة الحكومة وحل مجلس الأمة (٢٨نوفمبر٢٠١١)، سابقاً كان أبوشعرة وعبدالله ومن في الديوانية يتشاجرون ويختلفون بأفضلية مرشحيهم، كلا الطرفين يجذبني لأؤيد مرشحي قبيلته، يختصمون وقت الانتخابات ويعودون أحبابا بعدها، طريقة تقسيم الدوائر الانتخابية التي انتهجتها الحكومة أدت لتنافر المجتمع، الثورات وحدت الصف، الكل يريد الأفضل لوطنه، أبو شعرة لم يهتم لمرشحي قبيلته وكذلك عبدالله، كلاهما اتفق على الأصلح؛ الذي ينادي بسن القوانين والتشريعات، لا الذي يخترق القانون لأجل فئة من المجتمع ساندوه للوصول إلى مجلس الأمة.

حصدت الأحزاب المعارضة مقاعد مجلس الأمة، الفرح طال الشارع الكويتي، نهجها لم يرق لجدي وأبو خالد! هي تكسب سياسي باسم الشعب، يوهمون الناس بالمطالبة بحقوقهم وفي الحقيقة يطالبون بغايات أخرى، نعلم أن حكومتنا قصرت في جوانب تنموية وإدارية إلا أنها تبقى أفضل من هؤلاء. أُذناي لا تسمعان لرأيهما، فقط تسمع وتصغي وتعمل لما يقوله كبار عائلتي.

ذات مساء ماطر بارد كنت قاعداً مع جدي حول مدفأة كهربائية نشرب الشاي، الإبريق فوق المدفأة، البخار يخرج من فتحة غطائه، كنا نحادث جدي وجدتي عبر تطبيق التانغو، أخبرانا أنهما سيحصلان على الجنسية الأمريكية هذا العام وكم هما مشتاقان لرؤيتنا وزيارة الكويت بعد هذه السنوات الطوال. حادثت خالي هاني الذي يصغرني بثلاثة أعوام، غلب على لهجته الطابع الغربي، عندما أنهينا المحادثة طرق عبدالله الباب ودخل علينا، قبّل رأس جدي وقعد يشاركنا الحديث ثم اندمجنا بهاتفينا الذكيين، أبحرنا في قراءة المواضيع المختلفة، جدي ينظر إلينا ويعيب الانكفاء على هذه الأجهزة.

- هذه التكنولوجيا قربت البعيد، خلتنا نشوفهم صوت وصورة، وجابت لنا الأخبار من كل صوب يا جدي. قلت.

- قربت البعيد وبعدت القريب، جابت لك الأخبار من كل صوب، ونستك اللي بصوبك يا ولدي. قال.

عبدالله ضحك مما قاله جدي وأشاد على قوله بكلمة.

- صاج يا عمي.

* * *

جو الكويت كحال الأمة العربية التي ارتقبت شعوبها الربيع بعد الشتاء الجامد فحل عليها صيف حارق، فلا ربيع بلا أمطار تذيب الثلوج وترطب الأرض، كان إيذانا بصيف سياسي ساخ على الكويت حيث حُل مجلس الأمة بعد بضعة أشهر بمرسوم أميري، مُعربا أن المجلس كان أداة إعاقة لتنمية البلاد وسببا في زعزعة استقرارها.

هاجت المعارضة وأتباعها، وخرجوا منددين بالحكومة والنظام، كنت ساعتها غاضبا لم أدخر جهدا لاستنكار وشجب هذه الطريقة التي حُل بها، سالم على الخط الهاتفي يؤجج سخطي ويطلب مني ومن الشباب الخروج، خرجت مع الشباب واصطدمت مع الشرطة ورجال القوات الخاصة التي فرقت المتظاهرين، كنت من المعتقلين، أنفي نزف دما جراء صفعة قوية من أحد رجال الأمن، حجزت بأحد المخافر، الحظ كان واقفاً معي عندما كان أبو عبدالله رئيس نوبة المخفر الذي اعتقلت فيه، رأيته يرجو الضباط لإخراجي وعدم تدوين اسمي مع المعتقلين، شفاعة أبو عبدالله نفعت في إخراجي من الحجز، ثم أخذني بسيارته للبيت، أنبني طول الطريق... ضحية للأحزاب السياسية... غر أنا مستخدم لا أكثر...

سينسونني ساعة وصولهم لغايتهم... حطب نار أنا وأشكالي من الشباب... هذه كلماته طول الطريق، تمنيت ساعتها أنه لم يخرجني، الزنزانة أرحم من التقريع الشديد.

دخلت البيت الساعة الثانية ليلا، جدي نائم، كانت آخر نصائح أبو عبدالله عدم إخبار جدي بما حصل لي، ثم عاد بعدها إلى مقر عمله، صعدت لغرفتي، انكفأت على وجهي ونمت.

جدي مطأطئ رأسه، أبو خالد يؤنبني على فعلتي، عبدالله يقول لي:

- استيقظ أنت واهم، ليس الإصلاح هكذا.

- إذاً كيف الطريق لإصلاح وطننا يا عبدالله إن لم ندافع عن شرعية حقوقنا؟

قبض على كتفيْ وهزني بشدة... استيقظ... استيقظ.

كنت أحلم ساعتها، عبدالله منزعج مني، رأيت ذلك في وجهه لحظة استيقاظي، ذهبت إلى دورة المياه لأستحم، الحادية عشرة صباحا هو الوقت عندما سألته؟ أنفي مخضر مُزرق لمسه مؤلم، أسمع صوت عبدالله من خلف الباب

يعاتبني على فعلتي، خلعت لباسي وفتحت الصنبور، ما أجمل صوت الماء حين يصطدم بالجسم ويعزلك عن الضغوط الخارجية المتمثلة بعبدالله ساعتها.

قعدت أمام جدي في ديوان أبو خالد وعبدالله بجانبي وخادمهم يقدم لي الشاي بالحليب كعادته، أنتظر تأنيب أبو خالد كما رأيته في الحلم، لم يحصل شيء يبدو أن أبو عبدالله لم يخبر إلا ابنه فقط، كنت قد ظننت به سوءا، يأمرني بألا أخبر أحدا ويناقض قوله، ما إن أنهيت كأس الشاي بالحليب حتى أتتني رعود أبو خالد.

مستهتر أنا... مجنون... غير عاقل... مطية للغير... مخرب... إلخ.

لم يدع شيئاً إلا قاله، كنت مطرق الرأس وجدي كذلك، فجأة! هدأ وبدأ ينصحني بلطف.

لم نر من حكومتنا إلا خيراً... يحسدنا عليها كل العالم... حكومتنا ضمت الضعفاء بجناح من الرحمة... أموال وبيوت وتعليم وتطبيب وتوظيف كل ذلك يحصل عليه الكويتي، حتى إذا مات تتكفل بنقله وتغسيله وتطييبه وتكفينه ودفنه والصلاة

عليه. كنت مُنصتا لما يقول حتى قال:

يا ولدي الحكومة كافلة الكويتي من المهد إلى اللحد، شنو تبون بعد.

ردي على أبو خالد لن يفلح مع عقلية قديمة في نظري، لا يعرف هو وجيله حقوقهم الحقيقية وأن ما ذكر ليس إلا من ضمن دستورنا الذي نظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، هذا قدره من العلم ولم أعلم أنني أيضا كنت جاهلا أعمى ساعتها وأن أبو خالد كان أبصر مني في حقيقة الأمر.

عدت أنا وجدي للبيت بعد أن تناولت الغداء على مضض معهم، لم يكلمني جدي، ملامحه هادئة كما عهدته قليل الانفعال هو، دخل غرفته وأغلق الباب، صعدت لغرفتي ونظرت لغرفة أبي، الغرفة التي لم أدخلها يوما، مغلقة هي كقلب أبي، غائبة عن البيت هي هذه الغرفة وكأنها ليست فيه كأبي، امتدت يدي نحو بابها، ترددت، لم أفعلها وأنا صغير كيف وأنا كبير، أمسكت مقبض الباب ضغطته للأسفل، ازدادت نبضات قلبي، دفعت الباب إلا أنه مغلق، هل مازال يحتفظ بصورة لأمي؟ تلك الأم التي فقدتها وأنا صغير وفقدت أبي معها ولم يبق لي إلا شيخي الجليل، طاعن في السن هو، إن حدث له مكروه ما

طعم حياتي بدونه؟

نفضت عن رأسي هذه الأفكار المزعجة ودخلت لغرفتي وغرقت سريعا في النوم.

أحسست بثقل في رأسي وفتور في جسدي عندما استيقظت، التقطت هاتفي لأرى الوقت غير أنه لم يستيقظ بعد، يحتاج إعادة شحن، تناولت ساعة المنبه الصغيرة لاتزال تعمل، لم أغير حجارتها منذ عام، الساعة تشير إلى الثامنة مساءً، قمت واستعذت من الشيطان، توضأت وأديت الصلوات، العصر والمغرب والعشاء، نزلت بعدها لأطمئن على جدي، وجدته يشاهد التلفاز وأمامه على الطاولة كيس إحدى الوجبات السريعة والكتاب الذي أهداني إياه عبدالله، قبلت رأسه وقعدت بقربه، أخبرني أن عبدالله أحضر له القهوة والشاي وقام على خدمته ثم طلب عشاء لي وله وعندما تأخرتُ عليه رحل ليكمل بعض واجباته. تناولت الشطيرة، مختلسا النظر لجدي الذي يتابع برنامجا عن تاريخ مجلس الأمة على قناة دولة الكويت.سألته هل هو غاضب مني؟

لم يغضب مني كما لم يخف علي، كنتُ مثال الابن البار له، الطريق الذي سلكته ليس بالضرورة يعجبه أم لا، كان

يعلمني لتكون لي شخصيتي المنفردة التي تعود علي بالنفع ولمجتمعي، الناس يتأثرون ببعضهم بعضا ليس علي أن أكون مؤثراً بقدر ما أكون سيد قراري، لكل إنسان طريقته في الحياة، أغلبهم يحبون من ينقش جروح مجتمعاتهم بمنقاش لا من يقدم الدواء لعلاجها.

كان يحدثني من غير أن ينظر إلي، يشاهد التلفاز الذي يعرض فيلما وثائقيا عن الشيخ عبدالله السالم وهو يتسلم الدستور، يكمل حديثه.. بأن الكويت في عهد حاكم محنك، سياسي من الطراز الأول، لا بد لنا من التعاون معه وليس التصعيد والتشنج من قرار الحل، الكل يسعى للسلطة ممن ثُرنا معهم، مجرد طوب نحن لاكتمال بنيانهم، من حق الحاكم اللعب أيضاً والدفاع عن مكتسباته، رأيه ليس بالضرورة ليقنعني كما قال، إنما لي عقل أفرق فيه بين صالح المجتمع وصالح الحزب الذي أنتمي له، حكومتنا كانت خيرا على بلادها ومن فيها وليس هناك كمال في الدنيا حتى في الغرب هناك نقص، لكن لا يراه إلا أهله، لكل شعب نمط عيشه الخاص الذي يختلف عن باقي الشعوب ليس كل ما هو جميل في أعيننا عندهم سيناسبنا.

قطع حديثه عندما أخذ نفسا عميقا وكأنه سيغوص، ثم أكمل.

الدول العظمى تتكسب من اتباع الدول الأخرى لها حتى تزيد نفوذها، قس على ذلك الأحزاب إن لم يكن لك قرار شخصي فلا طائل لك معهم، على الإنسان مراعاة المركب الذي هو فيه، غرقه هلاك للجميع والنصح أنفع وأنجع. صمت قليلا، ثم نظر إلي طويلا كأنه يستذكر شيئاً ما. بناء المجتمع يبدأ من بناء الفرد لذاته.

– اللي ما يعرف ماضيه يا ضياء يضيع تاليه. ابتسمت عندما قالها.

بعد أن شاهد الأخبار ذهب لينام، صعدت وأحضرت الهاتف الذي استيقظ بعد أن كبست الزر وكله نشاط ١٠٠٪، مكالمات فائتة، سالم وبعض أفراد العائلة وصديقي الحقيقي عبدالله، تحدثت مع عبدالله، انتظرني ثم ذهب لقراءة بعض الكتب. طلبت منه أن يأخذني لإحضار سيارتي من ساحة العلم. اعتذر بتردي الرؤية بسبب الجو المُغبر. كنت أشتم رائحة الغبار ولم أنتبه، أغلقت الهاتف على أن نلتقي غدا. أزحت ستارة الصالة ليبدو الشارع أمامي والجو مصفرا كئيبا كشعوري، عدت وقعدت أقلب القنوات، كنت لا أشاهد الأفلام ولا أسمع الغناء منذ أن اندمجت مع عائلتي، لست في مزاج لأكلم أحدا، تمنيت

أبو شعرة ساعتها، تطلعت حولي، فراغ تام، شعور لم أعهده من قبل، رأيت الكتاب أمامي عليه بعض الغبار، مسحته عنه، رواية هي بعنوان حينما يبتسم القدر، قرأت المقدمة.

القاعدة واحدة لهذا الكون ولكل شيء فيه قاعدة تعود لتلك القاعدة.

مبهمة هي بدايتها، أجاد المؤلف السرد والحوار، كانت أول رواية أقرؤها في حياتي، تاريخية هي، أعجبت ببسالة بطلها ودوره الفعال في المجتمع، لم أشعر بنفسي إلا على صوت الأذان الأول لصلاة الفجر، أنهيتها مع الأذان الثاني.

حدثت عبدالله عن الرواية فيما كان يقلني لاسترجاع سيارتي منتصف النهار، كان يبتسم وهو يقود وسط اختناق الشارع. هي رواية عبر عنها كاتبها من وجهات مختلفة من الأحداث التي استسقاها من كُتب مؤيدة ومعارضة أخرج خلاصتها للقارئ. قالها عبدالله. ثم أخذ يصب سخطه على الحكومة عندما شُلت حركة السير. هذا سبب من أسباب تردي أوضاع البلد وأنتم تلومون من خرجوا للتظاهر. قلت له.

ابتسم لي ورفع من درجة مروحة المكيف، يبدو أن قولي زاد من حرارة جسمه ولم يستطع الرد علي، كان انتصارا على شخص كعبدالله المثقف، شرعت في إطلاعه على ما قاله لي جدي وأنه لم يلمني على فعلتي.

جدي مثقف وفريد من نوعه كما يقول عبدالله، لا يراه يقرأ الكثير من الكتب ومع هذا يذهله منطقه، يظن أن ثقافة جدي تعود إلى التلفاز الذي يشاهده يوميا. أميل كثيرا لما قاله عبدالله.

بناء المجتمع يبدأ من الفرد، مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا كان من أسرة فقيرة، بائع فطائر هو في صغره، تعلم الطب في بلاده المحتلة من قبل اليابان، بناؤه لذاته أدى لبناء دولته ونهضتها، نعم بناء الفرد بالعلم هو بناء الوطن ورقيه. نظر لي ثم داس على دواسة البنزين لتنطلق السيارة عندما انفرج الازدحام متبعا قوله:

- المظاهرات خراب يا ضياء.

استقبلني سالم في مكتبه الكبير الذي تفوح منه رائحة الطيب، صافحني بحرارة وضرب على كتفي برفق، بطل، شجاع،

مخلص للدين والوطن أنا كما قال. القهوة والشاي والكاكاو الفاخر يقدم لي، قعد أمامي يسألني كيف خرجت من السجن؟ أخبرته بكل الذي حدث لي حتى حديثي مع عبدالله ورأيه في التظاهر. هو شخص مثقف ومطلع لكن ليس كل مثقف يعرف الطريق للإصلاح، لا بد من التظاهر السلمي لأخذ الحقوق وإرهاب الحكومة، البلد في تخبط، السرقات لا تحتاج لدليل معلقة لوحاتها على أماكن المشاريع، أرقام خيالية، آخر حق لنا سلب عندما حل مجلس الأمة بسبب حصد المعارضة لأغلب مقاعد البرلمان. ثم حثني على مواصلة شجبي واستنكاري وتأييدي لكبار العائلة في أي مجال.

أطلعته عن الرواية التي قرأتها، أخذ جهازه وبحث عنها في محرك البحث الرقمي، اكفهر وجهه ساعة رؤيته للرواية، لم يطلع عليها، قراره كان سطحيا لحظتها عندما قال:

تطبيييييل.

* * *

أتى شهر رمضان وأتى أبي معه، أراه أسبوعا كل شهرين أو ثلاثة إلا في شهر رمضان يقضيه معنا كله، اتصالاته معدومة تماما رغم ما نحن فيه من عصر الرقمية المتاحة للجميع، يظهر فجأة! دون سابق اتصال، أبو شعرة يخطط للسفر بعد رمضان، يريدني أن أصحبه في رحلته الأوربية مع بعض زملائه، اعتذرت لرعايتي لجدي. وحقيقة الأمر أنني أراه فاسدا لا تجوز صحبته. فتحت الإشارة الخضراء على جسر أبي المُعلق، بدأ يسألني عن دراستي؟ لم يكن يسألني قبلها!

كدت أسأله، هل تكرهني بسبب موت أمي؟

هل ترى أنني سبب ذلك؟

أم ما بك؟

لمحات هي حياتك في ذاكرتي، موتك يساوي وجودك في حياتي، ربما موتك أفضل لأجد تبريراً لغيابك، هل سبب سفرك هو البحث عن حبٍ كحبِ أمي كما استنتجت ذلك من جدي؟ كُنْ أبا، افتح لي قلبك، لا أذكر حضنك لي، ابتساماتك معدودة لا أذكرها، انظر إلي. نظر إلي وكأنه سمعني عندما دارت أسئلتي له في جدران جمجمتي، كرر سؤاله عن دراستي؟

- هي آخر سنة وأتخرج. كان ردي عليه.

في إحدى ليالي رمضان بعد أن انتهينا من صلاة التراويح ذهبت إلى عبدالله، ووجدت غازي قاعدا عندهم سلمت عليه ببرود، كان يحدثهم عن الصدقة في رمضان وثوابها، عبدالله لايزال يكرهه، أرى ذلك في وجهه، الأنفس الطيبة كالجداول الصافية يظهر على وجهها ما في جوفها.

سمعت قبل قدومي عليهم من أحد الدعاة في عائلتي عن حُرمة الصور التذكارية وأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة، أحببت ساعتها أن أتكلم وأبرز شخصيتي أمام الجميع، لم أندم قبلها على فعل كما ندمت حين أخبرت أبو خالد عن حُرمة صورة أبيه وأحد الأشخاص المعلقة في ديوانه.

- دين مثل دينكم يا ولدي ما نبيه. كان جوابه.

بدأ يستصغر فهمنا للدين وأننا سفهاء لا نعرف شيئا، سأل غازي عن حقيقة ما قلت؟

- اختلاف في الأمر بين العلماء. جوابه.

هدأت ثورته علي حينها. يتقبل الناس قول من ألفوا صنعته

لا من بدأ يتصنع. لم أغضب حين ثار علي، كنت أراه بمثابة جدٍ لي، احتضنني أكثر من أبي، حُبه لي جعله يطلب من جدي أن يعرض علي الزواج من حفيدته فاطمة شقيقة عبدالله، رفضت عرضه، كنت ألعب معها في صغري وعندما كبرنا حال بيننا البلوغ، اعتبرتها أختا لا أكثر، لا أتصورها زوجة لي رغم حسنها. محبتي لها محبة أخ لأخته. قلت لجدي وقتها.

لو ضغط علي جدي كما ألح عليه أبو خالد لتزوجتها حبا لأمر جدي.

قدري كان أن أقع ضحية لحبكِ، اعترافي بمحبتي وعشقي لكِ عبر هذه الصفحات ليس بدافع أن تتمسكي بي، عيناكِ وأفعالكِ ولسانكِ صرحوا لي بما حمله قلبك من مشاعر حب ولا أعلم ما سيكون عليه حبكِ لي عند نهاية هذه الصفحات التي تمثل قدري معكِ.

* * *

صفعة الحياة

صفعات الحياة موجعة والنسيان دواؤها الوحيد رغم بطء مفعوله، كنت مع عبدالله على شاطئ الشويخ وقت الغروب، نرسل صورنا عبر الهاتف إلى أبو شعرة الذي غادرنا منذ خمسة أيام والذي بدوره يرسل صوره لنا وهو في أحضان الطبيعة وأحيانا هناك جمالٌ فاتنٌ في أحضانه، أمحو الصورة بسرعة وأزجره على فعلته، وسط قهقهة عبدالله وسماعنا لصوته عبر التسجيل المرسل وهو يقول:

- يا مطوع فِلها وجرب الزين... يضحك بعدها.

قطع حديثنا معه مكالمة أبو خالد، منبئا عبدالله: أنه في المستشفى الصدري مع جدي المريض، فحوص طبية يجريها كما أخبره. نبضات قلبي تتسارع كلما اقتربنا من المستشفى، عبدالله يطمئنني على جدي، خوفي عليه سلب شعوري كله، أريد أن أراه، لم يكن يعاني شيئا حين تركته عصر اليوم، ماذا حدث؟

دخلنا المستشفى، أحد أعمام عبدالله كان في انتظارنا،

اقتادنا للمصعد، لم أسأله عن شيء، قلقي يتصاعد بينما نمشي مسرعين في الممر ونمر جناحا تلو الآخر حتى وقفت أمام جناح العناية الفائقة، عندها وقع قلبي، لا أشعر به، الأرض تدور بي، عبدالله أمسكني، رأيت أبا خالد يمسح دموعه بطرف غترته، متقدما نحوي ويطمئنني بأن جدي بخير ثم اقتادني حيث رأيته عبر الزجاج، طريح الفراش، أجهزة كثيرة حوله، امتدت يدي، لمست أناملي الزجاج وكأنني أمسح على رأسه، لا أعلم ما بي، لم أبكِ، فقط فقدت الشعور بما حولي، أقعدني أبو خالد على كرسي في حين كان عبدالله واقفا هو وعمه ينظران إلي بأسى.

تأخر عليّ فذهبتُ لتفقده، وجدته نائما، حاولت أن أوقظه فلم يستيقظ، خشيت أنه... لم يستطع أبو خالد قولها حين قطع البكاء حديثه لي.

اتصل بأحد أقاربه الذي يعمل مديرا لمراكز الإسعاف، حضرت سيارة الإسعاف ومعها طبيب، عند فحصه تبين أنه حيٌّ لكن صحته متدهورة، نقلوه إلى هنا وبعد الفحوص تبين أنها جلطة وأيضا لديه انسداد في شرايين القلب ولا بد من إجراء عملية جراحية فورا. وقع نيابة عني على عملها وسيباشرون العمل صباحا، كل هذا يطلعني عليه وسط تجمد مشاعري، فقط ذاكرتي تسجل.

رأيت الطبيب من خلف الزجاج يجري الفحوص له، أبو عبدالله حضر أيضا، الساعة تشير إلى العاشرة مساءً عندما نظرت إلى هاتفي ورأيت مكالمات فائتة، أبو شعرة عشرون مكالمة، سالم مكالمتان، وبعض الأصدقاء، الطبيب يهز رأسه لأبو خالد بعدما أنهى الفحوص، طلب مني أبو عبدالله أن أذهب للبيت مع عبدالله ووالده، في حين سيظل هو في المستشفى قرب جدي، استسلمت للأمر وغادرت معهم، لا أعلم لماذا انصعت بسهولة لطلبه! قبل خروجي من الجناح عندما فتحت الباب، تذكرت أن بيتنا خالٍ موحش وأن جدي هنا، اضطراب داخلي حدث في نفسي جعلني أرجع بسرعة وأقعد على الكرسي، محاولات أبو خالد وابنه لم تفلح معي بأن أذهب لأرتاح في البيت، لا جدوى من بقائي هنا. رفضت رغم رجاء أبو خالد، عبدالله فصل بيننا وقال إنه سيظل معي، رحل عندها أبوخالد مع ما في نفسه من تردد، لم أكن وحدي من اضطربت نفسه الجميع كانوا مضطربين، يتيم أنا في نظرهم، لم يسألني أحد عن أبي؟

هم أعلم به مني، حتى عبدالله يعرفه أكثر مني، والده أخبره عنه كثيراً، كانوا أصدقاء حتى توفيت والدتي فتغير وأنكر نفسه

ومجتمعه ثم بدأ في الهروب. عبدالله يطمئنني أنه سيتعافى، أمر طبيعي ما مر به جدي، كلنا سنمر بهذه الحالة في مثل هذا العمر، يحمد الله أنهم نقلوه للمستشفى الصدري ولم ينقلوه لمستشفى الفروانية حيث الفوضى تعج بين أركانه، نصف مليون شخص يراجعونه على مدار الشهر، مستشفى بُني في سبعينيات القرن الماضي ليعالج عشرة آلاف حالة في الشهر، لم تقم الدولة ببناء مستشفى غيره، فقط مدوه أمتارا قليلة من جانبين وعملوا حوله عيادات خارجية، يموت الشخص المصاب بحالة حرجة قبل أن يصل لسوره بسبب الازدحام المروري على أبوابه. كان يسليني يريدني أن أتكلم، لم أنبس بحرف، انطويت على نفسي، استندت إلى جانب الكرسي الحديدي، نمت.

رأيت جدي يبتسم لي، نازعا عن أنفه أنبوب الهواء الصغير الذي بين شفتيه وأنفه، استوى جالسا ثم نزع إبرة المغذي من وريده، وقال لي:

لا تخف سأعيش حياة طويلة هانئة، لا تحزن من أجلي عش حياتك.

ثم اقترب مني، حال الزجاج بيننا، اخترقه وكأنه شبح، مد يده نحو رأسي المنحني، عدله قليلا.

استيقظت على يد عبدالله، رأسي كان محنياً جداً فيما كنت نائماً، أراد أن يعدل وضعيتي حتى لا أتأذى، الساعة تشير إلى السادسة صباحاً، عينا عبدالله حمراوان يبدو أنه لم ينم على عكس ما أخبرني، قمنا وأدينا صلاة الفجر التي فاتنا وقتها في غرفة صغيرة خصصت للصلاة، دعوتُ لجدي كثير بأن يعافيه الله ويشفيه، ليس لي غيره، قلت لربي.

حلقي ناشف، الجوع فتك بي، منذ أمس لم أشرب ولم آكل، عبدالله يتضور جوعا، طلب أن نذهب لأحد المطاعم القريبة، إلا أنني امتنعت لا رغبة لي في الأكل، بعد دقائق عاد ومعه كيس فيه بعض الشطائر وكوبا عصير، نصف شطيرة ورشفتان من العصير هذا ما تناولته رغم إصراره.

لم تمض ساعة حتى دخل الأطباء على جدي وكشفوا ملف تقاريره، قرؤوه سريعا، أمضوا بأقلامهم على مستقبله معي، دخلت الممرضات، بدأن يجهزنه لمغادرة الغرفة، أبو خالد وأبناؤه وصلوا عندما دفعت الممرضات سرير جدي، توجهوا به إلى غرفة العمليات حيث أدخلوه وأغلقوا الباب.

ساعات خمس هي المدة التي قضاها الأطباء في معالجة قلب جدي وجراحته، بعدها خرجوا معلنين نجاح العملية،

وبعد ساعة سيكون في غرفة خاصة. كنا حوله في الغرفة ساعة استيقاظه، صوته متعب مبحوح، وحوله أجهزة القياس وأكياس متنوعة علقت بقربه ووصلت بأوردته لعلاجه، الممرضة طلبت منا المغادرة، نضُره إن بقينا، مناعته ضعيفة جدا.

فرحت عندما نظر إلينا، علمت أن سعادتي مرهونة معه، ما إن ركبت مع عبدالله في سيارته حتى قلت له:

- جوعان.

ارتفع علم همتي ونشاطي بعد أن ملأت معدتي الفارغة، عبدالله أيضا شعر بالسرور، لم يستطع أن يأكل بسبب قلقه على جدي قبل العميلة. أخبرني أن أبو شعرة سيصل بعد غد للكويت، بعد أن علم بالأمر منه. أنبته على فعلته، هل سيضيف حضوره شيئا، أحمق من يزف للمسافر الأخبار السيئة، هل سيمنع حادث اصطدام مركبة من كان ينظر لها من الطابق العاشر؟

أحس عبدالله بخطئه، لم يتوقع أن أبو شعرة سيرجع ويقطع رحلته التي دفع تكاليفها مقدماً.

اتصلتُ بأبو شعرة محاولا أن أثنيه عن العودة.

أصر على رأيه فجدي جد له أيضا، كان لطيفا معه في صغره لا ينسى الحلوى التي قدمها له حين كان صغيرا، والعشرة دنانير كل عيد. قالها لي.

عدنا للمستشفى، صعدنا إلى غرفة جدي، وجدنا أبو خالد يتحدث معه، قبلت يده، قعدت بقربه، صوته مبحوح، آثار الإرهاق بادية عليه، لازمته أنا وعبدالله حتى بدأ يستعيد نشاطه من الغد، كنا حوله ساعتها.

لم يشعر بنفسه، ما الذي حصل لي؟

أخبره أبو خالد بما حصل له، بدأ يتحسس صدره بأصابعه ثم كف وأخذ ينظر لنا، منذ أيام شعر بألم في قلبه، تجاهله حتى وجد نفسه في المستشفى، أبو خالد أحاديثه ظريفة يعرف كيف يضحك من عنده، ضحك جدي بصوت مبحوح وأخذ يسعل، قررنا تركه ليرتاح فيما دخل الممرض ليغير له ومعه عامل نظافة.

وصل أبو شعرة لأرض الوطن، عبدالله ذهب ليحضره، دخلت إلى غرفة جدي عصرا ووجدت أبو خالد الذي هم بالخروج ساعتها ليتوضأ، اقتربت من جدي الممدد على

السرير، الغرفة كبيرة واسعة نظيفة جدا، نافذة كبيرة بجانبه الأيسر تطل على الخليج الممتد، ويبدو النخيل الباسق على ضفاف الشاطئ، أرى الطيور تحلق وبعض زوار المستشفى يمشون في الحديقة، يوم جميل، غيوم متفرقة تحجب أشعة الشمس تارة وأخرى، كل هذا وصفته لجدي وهو ينظر، لم أجد ما أحدثه فيه بعد أن حمدت الله على سلامته.صحته أفضل بكثير عن أمس، نظر لي وابتسم ابتسامة صفراء، تذكرت فجأة! فيل السيرك الذي لم أهتم بسؤاله عنه؟ سألت عن سر عدم تحركه عندما يضعه سائسه في أي مكان؟ ولماذا ذكره لي؟ أعلمُ أن الوقت غير مناسب، لا حديث لدي لأفتحه معه في مثل هذا الوضع الجديد علي، ابتسامته الشديدة أراحتني وجعلتني أبتسم أكثر.

لم يظن أنني سأسأله بعد أن رآني كبرت وبدأت أعتمد على نفسي وأتخذ قراري، كثيرا ما كان يعلمني من غير أن يوجهني، يعلمني لأقرر بنفسي، لأحرك عقلي باختيار أفضل الطرق لما يصلح أمري، لم يخشَ علي في صغري رغم لعبي مع أبناء المنطقة الذين يغلب عليهم تدخين السجائر كعادة أغلب المراهقين، يظنون أن الرجولة في تدخينها متفننين في

مزمزتها، يعلم أن بعضهم يتعاطى المخدرات بأنواعها، لقمة سائغة للإهمال هم، لم يهملني يوما، عينه ترقبني وإن غبت عنه عين الله ترعاني بعد دعائه لي.

استمعت له بشوق، بسرور، بفرح، عاد ليحدثني، ظننته نسي سؤالي عن فيل السيرك؟ كانت مقدمات لما لم أتوقعه منه.

لم يخف علي مما ذكر، لم يخشَ علي من المشاجرات التي يفتعلها أبو شعرة وأكون ضحيتها أنا وعبدالله بعد أن يطلق ساقيه السريعتين ونرجع بآثار على وجهينا لا تزول إلا بعد أيام، لم يقلق علي أكثر من توجسه وقلقه عندما انضممت إلى عائلتي!

مسلمون نحن، نخطئ، نستغفر، نتجنب الكبائر وما يغضب الله، نحافظ على الصلاة، الصيام، الزكاة، الحج هذا هو الإسلام بعد التلفظ بالشهادتين من غير شَك.

مازلت أتساءل ما دخل الفيل بما قاله؟ هل العلاج الذي يمر في أوردته من غير استئذان هو السبب في خلطه للأمر؟

لا عِلمَ له عما كان يقصد الذي قال إن «الدين هو أفيون الشعوب»، يؤيده إن كان يقصد أن مستغلي الدين هم أفيون

الشعوب، ليس هناك أقوى وأشد من السيطرة على الناس من الدين، هو سلاح فعال لتعطيل العقل إن استخدم لمصالح دنيوية، الدين الحقيقي تكريم للإنسان وإطلاق الحرية لفكره فيما ينفع، لا الانقياد خلف مجهول أو شعارات رنانة. نظر إلي، ابتسم، بادلته الابتسامة بشرود.

– اللي ما يعرف ماضيه يا ضياء يُضَيّع تاليه. قالها حين انتبه لشرودي.

ابتسمت وتهللت أساريري عند سماعها، كما تتهلل أساريرنا نحن الكويتيين عند قدوم شهر رمضان، وسماع أغنيته الأثيرة.

عادت عليكم يا هلا يا هلا فيكم يا هلا...

الجُمَل والكلمات المكررة في أوقات نحبها لا تنسى، يحتفظ فيها القلب في ذاكرة الشعور.

بدا الإرهاق عليه وهو يحرك جسمه قليلا. يُذكرني بأن ديننا الإسلام وتحيتنا السلام ونبينا بعث رحمة للعالمين مرشدا للطريق السليم لصلاح الإنسان وسعادته، الله بعثه بتعاليم فيها السعادة الأبدية للبشر في الدنيا والحياة الآخرة، الله أعلم بعباده وطرق صلاحهم، منذ أن انطوى عصر الخلافة الراشدة

بدأ استغلال الدين لمكاسب دنيوية ممن حكموا إلا من هدى الله والتاريخ دوّن سِير المصلحين من المفسدين، مجتمعات الماضي ليست مختلفة كثيرة عن الحاضر، إنسان الماضي نفسه إنسان الحاضر لا اختلاف إنما الاختلاف بالأوضاع التي نعيشها ولم يعشها السابقون، الشر موجود والخير كذلك، الفساد لم تخلُ منه الإنسانية حتى في عصر الرسل وجد الفساد والمفسدون.

بدأ يسعل، قمت وناولته ماء، سالت قطرات على لحيته، مسحتها بمحرمة، طلبت منه أن يرتاح، أشار بيده أن أقعد فيما هو ينظر للسقف.

الدين يرقق القلب، يجعلك إنسانا تسعى لصالح المجتمع لا لهدمه، القوة لا تنفع في الإصلاح، الرفق هو الطريق لذلك، عبدالرحمن السميط رجل هدى الله على يده ألوف العباد، أخلص النية لله فكان عونا له في رحلة دعوته، مثال الرجل الصالح شفاهُ الله، فيل السيرك منذ صغره يُربط بحبل حيث يتركونه، يكبر على ذلك ومن بعدها لا يحتاج لحبل، أينما تركوه يقف ولا يتحرك، يظن أن الحبل في رجله، القيد الذي في عقله لم ينفك بعد معتقدا أنه ما زال في رجله، الإنسان كذلك

تقيده كلمات الآخرين منذ صغره ظنًا منه أنها من قرارات نفسه وهو لا يعلم أنها من الآخرين، والدين أشد الطرق نجاحاً لتقييد العقل ممن يستغلونه. نظر نحوي فيما كان عقلي يهضم ما ذكره لي ثم نظر خلفي.

– الله أكبر من هالزوار. قالها!

التفت خلفي، الباب مغلق! أي زوار. تساءلت؟

صفيرٌ ملأ المكان، جدي ينظر إلي باستغراب، الباب فتح بقوة فجأة! الممرضة تصرخ! لم يكن جدي من ينظر باستغراب بل أنا الذي كنت أنظر له باستغراب عندما جمدت حركته. اندفعت بسرعة للوراء ملصقا ظهري بالجدار، أبو عبدالله دخل وألقى باقة ورد أحضرها معه، صرخ بأحد الممرضين، أمرونا بالمغادرة فيما الأطباء يدخلون ويحاولون إعادته للحياة، إعادته لنا، إعادته لي.

وقفت خارج الغرفة، أبو خالد يبكي وكذلك خالد، أنا لا! لا أعلم سبب تجمد مشاعري، ظننت أنني مازلت أحلم، على الكرسي نائماً فيما جدي في غرفة العناية الفائقة حتى رأيت الأطباء يخرجون، طبيب توجه نحو أبو خالد ووضع يده على

كتفه وطلب منه أن يقعد، سمعت بكاءه الشديد، كدت أواسيه ظننت أن أحد أبناءه قد مات وليس جدي، خالد يمسح دموعه ويعزيني.

– أنت كأحد أبنائي. قال لي.

دخلنا إلى الغرفة، شعرت بثقل في قدمي، أراه أمامي مغطى، أحسست بشعور أنه سيقوم ويزيح الغطاء ويبتسم لي، لم يحصل شيء مما أحسست به، قعدت حيث كنت منه منذ قليل، خالد يترحم عليه، لست مصدقا أنه مات، انعكست صورتي على النافذة الكبيرة التي غطتها قطرات المطر، نادر ما يأتي في شهر سبتمبر، رأيت فيه حياة تنزل من السماء إلى الأرض وحياة تصعد من الأرض إلى السماء وأنا أترجح بينهما، لا حياة لي بعد أن رحل. دخل عبدالله وأبو شعرة...

– شنو فيه بشروني... عسى العملية نجحت... وين عمي؟ قالها أبو شعرة.

أظنه لا يعرف ما يقول، صدم بالأمر حينها، وقف خلفي ينظر للجثة بعينين جاحظتين، نحن نمزح، دعوه يقم، ما الأمر؟ لم يصدق حتى هز عبدالله كتفيه، وأن العم مبارك قد مات.

عندها دوى عويله وجثى على ركبتيه يبكي بحرقة، بكى عني ساعتها، فعل ما كنت سأفعله لولا الصقيع الذي ألم بمشاعري، كم أنتما كبيران بمشاعركما وبصداقتكما يا صديقي.

* * *

وارينا جسده التراب، كنت آخر من خرج من القبر بعد أن قبلت رأسه وتركت قلبي جواره، أهالوا التراب عليه، كدت أن أصفع أول من هال التراب.

- إكرام الميت دفنه. صوت الشيخ الرفاعي.

الرجل الثري الزاهد، حافي القدمين، ثوبه لنصف الساق، لحيته مائلة للحمرة، أبيض البشرة، بدين الجسم، قصير القامة، متكئا على عصا يدعو الناس للعودة للدين والتمسك بتعاليمه، حتى ينتصروا على أعدائهم.

كنت متلثما بغترتي التي سقطت وداستها الأقدام، أظنها دفنت مع جدي، عبدالله نزع شماغه ووضعه على رأسي، استمروا في الدفن، عبدالله ووالده وأعمامه وجده، أبو شعرة ووالده وإخوته، سالم، غازي، أصدقائي من العائلة حضروا، جيراننا، لم أرم عليه التراب، لم أكرمه، استعظمتها في نفسي.

- اُدعو له بالثبات فإنه يُسأل. قالها الرفاعي عندما نُضح الماء على قبره.

أبو خالد دعا له كثيرا وبكى سريعا، جسمه كبير وقلبه صغير رقيق، جسمي نحيف طويل وقلبي قاسي المشاعر، لا أعلم لم

تجمدت مشاعري؟ هل قلبي لم يحب جدي مثلما أحبكِ؟ يعتصره الشوق إليكِ، يخفق بقوة حين يذكركِ، أُحس في الاختناق ساعتها، مؤلم هو الحب، حبي لجدي لم يكن مؤلما فقدهُ هو ما آلمني وجعلني أمقت الدنيا وأراها حُلمًا باهت اللون، كم هي مريرة بلا حُب.

العزاء كان في بيت أبو خالد، اكتظ الديوان بالمعزين، أغلبهم من أفراد عائلتي، سالم لم يفارقني إلا ساعات النوم، غازي أيضا ذكرنا في سنة الحياة وبأن جدي رجل صالح كثيرا ما يتردد للمسجد.

– إن لم يكن صالحا فمن هو الصالح؟ قلت في نفسي.

أبو شعرة وعبدالله ناما عندي في البيت، لم أجرؤ على النوم وحدي كما لم أجرؤ على فتح غرفة جدي، خادمتنا العجوز بكت كثيرا عندما علمت بموته، أخبرتنا أنه ساعدها بمبلغ من المال لعلاج ابنها المريض بداء السرطان حتى شُفي. جدي رحمه الله لم يفرق بين البشر لأعراقهم أو طوائفهم أو أديانهم، كان يرى الإنسان إنسانا كما كرمه الله، حسابهم على الله يوم القيامة، خادمتنا من عباد البقر، لا تأكل اللحم كما لم تطبخه لنا يوما.

موت جدي كان إيذانًا بخروجي من الشرنقة الوديعة المسالمة إلى شيء لم أعلم بحقيقته حتى نبض قلبي بحبكِ، مُخطئ من قال إن الحب أعمى، الحب نورٌ يجلي الظلمة عن القلب، صعقته شديدة الإيقاظ للعقل، يُوسع المدارك، بركان ينفجر في قلب المرء مخرجًا معه الدرر الكامنة في العقل.

ظرف بريدي وصل إلى بيتنا عليه شعار الديوان الأميري، خطاب من أمير دولة الكويت الشيخ صباح الأحمد الصباح، يتقدم بتعزية أبي، تساءلت هل لأبي علاقة بالأمير؟

- عادة كريمة جُبل عليها حُكامنا يعزون الكويتيين في مصابهم ويمنحون مبلغا كبيرا من المال للأرامل. جواب أبو خالد بدد تساؤلي حين أطلعته على الرسالة الأميرية.

* * *

كنت نائماً عندما وصل والدي بعد أسبوع من وفاة جدي، لم أشعر فيه ساعة دخوله للبيت، عبدالله النائم على الأرض في غرفتي لم يشعر به أيضا حين أتى صباحا، دخل غرفته، استحم، نزل يبحث عن جدي، ذهب لأبو خالد لعله يجده عنده كالعادة، قابله أبو عبدالله وهو خارج للعمل، رحب به وعلم أنه لم يعلم بعد، أدخله الديوان حيث أبوه قاعد يتناول القهوة مع أحد الجيران الذي قام وعزاه.

لم يُرد أبو خالد ولا خالد صدمته بهذه السرعة، كذلك الرجل لم يكن يعلم عنه شيئا وأنه لم يعلم بعد بوفاة أبيه. نقل أبو عبدالله لي ما حدث ساعتها.

– عمن يتحدث؟ من الذي مات؟

طلب أبو خالد منه أن يهدأ وبعدها سيخبره، لم يبك عندهم بل حين عاد بسرعة للبيت ودخل غرفة جدي، انطلقت دموعه الحبيسة، أبو خالد لم يستطع دخول بيتنا، خالد من دخل خلفه وطلب منه أن يستعيذ من الشيطان. ثم صعد وأيقظنا مخبرنا بوجوده.

بعدما أزلت ما تركه النوم على وجهي بالماء ذهبت إليه،

وجدته جاثيا قرب السرير، ووجهه بين يديه، يبكي، حالته التي هو عليها أنستني أنني في غرفة جدي التي لم أجرؤ على دخولها منذ وفاته، اقتربت منه، لا أعرف ما أقوله له.

– لن يفيد البكاء يا أبي. هذا ما استطعت أن أقوله له.

نظر إلي بعينين كأنهما الجمر لحظة احمراره ثم احتضنني فجأة! نعم احتضنني وكأنه يقول:

لا ترحل فأنت من بقي لي... آسف على كل ما فعلته بكما طوال سنوات رحيلي طوال السنوات التي عشتها بأنانية عنكما.

أشعر بحضنه إلا أنني لا أشعر بشيء اتجاهه رغم أنها المرة الأولى التي أذكر فيها حضنه لي وأدونها في ذاكرتي، لم أطوقه بذراعي، أحسست أنه فقدني أيضا، كم هو مؤلم أن نجد من فقدناهم لحظة فقداننا لهم.

– كم أنت وحيد تعيس يا أبي. قلتها في نفسي.

أخذه أبو عبدالله بعد ساعة إلى المقبرة لزيارة قبر جدي والصلاة عليه، عبدالله ذهب ليستحم في بيته ويُحضر لنا طعام الإفطار، صعدت لأستحم أيضاً. وقبل أن أدخل غرفتي انتبهت

لشيء مفتوح عن يساري، غرفة أبي بابها موارب، ترددت في دخولها ثم عزمت ودخلتها، غرفة نوم قديمة، خشب سريرها يميل إلى اللون الأخضر، ديباج أبيض، ستارة زهرية، كرسيان صغيران في الزاوية، سرير طفل أظنه لي، لم أنعم به يوما لا أذكره، صورة كبيرة على الجدار لسيدة جميلة وبجانبها أبي، كم أنتِ جميلة يا أمي، لو كنتُ رأيت صورتك قبل دفن قلبي مع جدي لبكيتُ شوقا إليكِ، ماذا فعلت بقلبِ أبي بعد أن رحلت؟

عائلتنا عائلة كُتب عليها الحزن ونكبات الزمان، السعادة في نظرنا ليست إلا سرابا، لم نعد نطارده حتى وإن لم يكن سرابا، لا نظن السعادة لنا، أمي دخلتِ بيتنا وأصابك قدرنا المشؤوم، لم أر أبي في مثل هذه السعادة لحظة أسر عدسة الكاميرا لتلك الثانية معكِ لترتسم صورة زوجين عاشقين الحب يقدح من عينيهما.

انتزعت الصورة من الجدار أحببت أن أحضنها، ما زلت فاقدا للشعور بطعم الحياة، أعدتها إلى مكانها وفتحت خزانة ملابس أمي وأبي، رأيت ألبوم صور في أسفلها، فتحته، شاهدت رحلته معها للخارج، كم هما سعيدان وقتها، أظنها لم

تحمل بالمشؤوم بعد، صور الذكريات لها طعم وإن لم نعشها، رأيت صورة جديّ معها، تابعت مشاهدة الصور حتى رأيت صورة جدي مبارك، عندها لم أستطع أن أكمله، أقفلته، أعدته، غادرت الغرفة، رن هاتفي، عبدالله يطلب أن أحضر لأتناول الإفطار معه.

قعد أبي حيث يقعد جدي عادة أمام التلفاز، كنا وحدنا ليلتها، لن يسافر مرة أخرى وسيبقى في البيت. قالها. جسم غريب هو بالنسبة لي، لن أتقبله وإن سكن معي، روح البيت رحلت وماتت بموت صاحبه يا أبي. قلتها في نفسي.

حثني على الاجتهاد في دراستي والاهتمام بنفسي. ضحكة ساخرة ترددت في صدري، لا يعرف ما يقول، يريد أن يلعب دور الأب بعد هذه السنين، شتان بين أسلوبك وأسلوب جدي الذي لم يقل لي يوما بأن أفعل أو لا أفعل.

أسبوع مضى وأبي معي في البيت، واظبت على الصلاة في مسجدنا، لحيتي بدأت تنمو، عزفت عن عائلتي، حياتهم ضحك ولعب أكثر من العبادة، سالم بدأ يتوحش مني عندما رافقت غازي وأصدقاءه.

– أكثر التزاما هم منكم وأحرص على التفقه بالدين. قلتها له يوماً.

بعدها انقطعت اتصالاتي مع أفراد عائلتي الذين اعتبروني مارقا فاسدا، كم كانت عائلة مزيفة رغم ما تعلمت منها وأحسست بالأُخوة بينهم، يهجرونني لأنني تحررت منهم، يريدونني عبدا مطيعا أحب من يحبون وأكره من يكرهون، ونهاية ذلك أكون أسير بضعة رجال يقودونهم لغاية الله أعلم بها.

انضمامي لأصدقاء غازي كان لحظة انكسار نفس ومقت للدنيا وكره للحياة بعد جدي، بارك أصحابه انفصالي عن العائلة التي وصفوها بالمستغلة للدين والمتكسبة على أتباعها ومخادعة الناس.

عشتُ مع عائلتي، رأيت فيهم ما هو جميل وما هو قبيح.

انكفأت على قراءة القرآن والأحاديث النبوية، لم أغص في علمها بل أسبح على ظاهر القول والأخذ فيه، لم أكن أعلم أن القرآن والأحاديث لا تأخذ في ظاهرها دائما دون الرجوع لعلماء أجلاء سبروا غورها وفهموا قصصها وسببها، بدأت

أحضر الندوات والتزام الجماعة، وأقضي أطول وقتي في المسجد، عبدالله نهاني عن غازي وأنهم قوم سلكوا طريق التشدد الأعمى، حتى أبو شعرة الذي يستعد لتخرجه قال لي:

- ليتك مع مطاوعتك الأولين.

لم أعبأ بما قالاه، ظننت أن كره عبدالله لغازي هو ما دفعه لنهيي عنهم كما أن أبو شعرة أحب أن أكون كما كنت في السابق، مع نمو لحيتي أكثر وانكماش ثوبي لنصف الساق وإسدال غترتي، نما حب الناس لي واحترامهم، اللحية والثوب القصير دلالة لدى الناس على التقوى والإيمان، يُجِلون من يُعفي اللحية ويُقصر الثوب، وسيلة سهلة للخداع والتضليل والتكسب، كثيرًا ممن عرفتهم لحاهم أوفر من عقولهم وأثوابهم القصيرة أطول من رؤيتهم.

سابقا كنت أستمع للآيات والأحاديث التي يُمليها علينا دعاة عائلتي، هذه المرة اختلفت ليس الاختلاف في النصوص، إنما في الطريقة المراد اتباعها من ملقيها، أطلعونا على عصر الرسالة والصحابة والتابعين والزهاد وكيفية حالهم وما هم عليه من الطاعة، جعلونا نرى الناس وكأنهم ضُلال مقصرون في واجبات دينهم، أطلعونا على أعلام لسنا في مستواهم ولم

يطلعونا كيف كانت حياتهم من قبل، أستذكر مقولة جدي لي قُبيل وفاته:

- مجتمعات الماضي ليست مختلفة كثيرة عن الحاضر، إنسان الماضي نفسه إنسان الحاضر لا اختلاف؛ إنما الاختلاف بالأوضاع التي نعيشها ولم يعشها السابقون.

استهوى قلبي سير الصالحين، وقوة الإسلام في الماضي كما استهواها الكثير ممن على شاكلتي وقتها، رأيت اختلافاً كبيرا بين عائلتي التي تتخذ الطريقة السياسية لنيل غايتها وبين أصدقاء غازي الذين يرون أن تحقيق عزة الإسلام يكون في الالتزام بالقرآن وتعاليمه، ولم أعلم حينها أنهم اخترقوا تعاليم القرآن بفهمٍ خاطئ.

* * *

خرجت من البيت يومًا فسمعت عبدالله يناديني من غرفته في الطابق الأول، يريد أن أذهب معه لبعض شؤونه، طالبا مني الانتظار لحين تغيير ملابسه.

رَكنت شقيقته فاطمة سيارتها، كانت عائدة من الجامعة، السنة الأولى لها في الدراسة، أشحت بوجهي عنها وأطرقتُ بنظري للأسفل، سمعتها تلقي السلام علي، اختلست النظر لها بسرعة ورددت السلام، ابتسامتها جذابة حتى قوامها جميل رغم العباءة السوداء التي ترتديا، لاحظت ذلك، غازي ينكر هذا النوع من العباءات، يراه بلاء حل على المسلمين ويجب أن تكون العباءة واسعة سوداء من الرأس إلى الأرض، لا يجوز ظهور أي شيء من المرآة فهي فتنة على المسلمين، وهذه العباءات الضيقة على الخِصر والصدر فتنة الفتنة نفسها. أيدته حين أخذت أفكر في فاطمة مستعيذا من وسوسة الشيطان.

بعد أن قضى عبدالله شؤونه ورجعنا للبيت، ذهبت لغرفتي لأنام حتى لا تفوتني صلاة الفجر، ما إن وضعت رأسي حتى وصلتني رسالة على هاتفي:

- إنت فاضي؟

رقم غريب! ربما أحد الأصدقاء الذين لم أدون أسماءهم بعد، نعم.أجبته. بدأ عندها في سؤالي عن حالي وأنا أجيب باستغراب! حتى طلبت منه أن يخبرني باسمه الذي كان بمثابة صدمة لي!

فاطمة.

من كانت تراسلني، تشعر بوحدتي بعد رحيل جدي، حزنت علي كثيرا، تعلم أن وجود أبي لن يعوضني عن فقده، ترددت كثيرا قبل أن تقدم على مراسلتي، تأسف لإزعاجي. غضبت من جملة أنت كأختي يا فاطمة. أنهت مراسلتها فجأة!

انطوت الليالي وفاطمة تراسلني كل ليلة، متعللة بأسئلتها الشرعية، كانت تريد فتح باب مغلق معي لتصل إلى قلبي، لم تعلم أن قلبي دُفن مع جثمان جدي وأهالوا عليه التراب، لم أشعر بشيء تجاهها إلا شعور حاجة الرجل للمرأة، شعور الذكر للأنثى، كنت أفكر في حلاوة كتابتها وصورتها الجميلة التي بعثتها لي بطريق الخطأ كما قالت. كم هي حسناء، لم أنتبه لحسنها يوما إلا الآن، بعد كل مراسلة بيني وبينها أمقت ذاتي، كيف لي أن أغدر بأهلي وبجيراني وبصديقي عبدالله، كلما حاولت الانقطاع عنها ترسل لي فأستسلم لرغبتي الذكورية، لم

يحدث بيننا أي شيء يُخل بي أو بها، بدأت تتصل ليلا وأكلمها، أحسست معها بطعم الأنثى وأهميتها للرجل، نظرتي لعبدالله ووالده تغيرت، أحسست باهتمام زائد نحوهما، حتى أبو خالد بدأ يستمع لأحاديثي، عندما أنكرت عليه وضع الصورة في مجلسه قام من فوره وأخفاها، هل تغيرت نظرته لي حين صاحبت غازي ورفاقه؟ أم أن حبه لجدي انتقل إلي بعد أن فقد صديقه ونديمه؟

ثلاث ليال لم تراسلني فاطمة أو تتصل، اشتقت لها، أبي لم يسافر لَزم البيت، جسرهُ المعلق مفتوح الآن فيما جسري أصبح معلقا يَفتح دقائق قليلة معه، اتصلت بعبدالله لعلي أسمع صوتها، لا شيء أسمعه غير صوته... انقطعت عني بلا سبب.

بعد أسبوع اتصلت وأخبرتني أن أحدهم سيتقدم لخطبتها. باركت لها ودعوت لها بخير وأنني فرح بالخبر. أجابت بإغلاق الهاتف في وجهي وانقطعت أسبوعا كاملا. لم أجرؤ على الوقوف أمام بيتنا لأراها إلا تلك الساعة حين كنت واقفا بقرب سيارتي، مرت وركنت سيارتها ثم نظرت لي نظرة شرسة ودخلت بيتها، وصلتني رسالة منها تلك اللحظة، ما هو شعوري تجاهها؟ تَساءلت ما هو شعوري تجاهها فعلاً؟

هل استطاعت أن تخرجني من عزلتي الداخلية بأنوثتها؟ هل كان حبًا لها؟

لم أهتد إلى شعوري الحقيقي تجاهها، كنت أشتاق لمحادثتها للأُنس بها في وحدتي، هي الأنثى الوحيدة التي أكلمها، لم أستطع أن أجيبها، حتى أخبرتني ليلتها بأنها كسرت كل الحواجز حين قالت:

- أحبك.

فاجأتني بتصريحها! لم أعرف كيف أجاوبها إلا أني قلت لها إنني أحبها أيضا.

لم أكن أقصد الحب الذي تريده، بل حب الأصدقاء، حب الأخ لأخته، لا أتصور أنني خنت صديقي مع أنني لم أخدش كرامتهم بشيء، ضميري يؤنبني جدا، مرارة أحسست بها في نفسي. طارت فرحًا حين أخبرتها بحبي لها، تصريحي لها جرني لما لم أرده حين سألتني ما بعد هذا الحب؟

- الزواج. قلت لها من غير تفكير.

أصابها الخجل وأنهت المكالمة، بيني وبين نفسي تلك الليلة حدث شجار كبير أرقني ليلي كله وأنهك تفكيري، كيف

سأنكث بوعدي لها، نعم أحبها كحبي لعبدالله كحبي لوالدها كحبي لجدها، لا أستطيع تخيلها زوجة لي، كم هن رقيقات القلوب ساعة الحب، كم هن شرسات ساعة الكره، بمقدار الحب تكون الكراهية.

* * *

رحلتي البرية أبعدتني عنها، بعد انقطاع شبكة الاتصالات عنا في إحدى براري المملكة العربية السعودية، شيخنا كان ممن جاهدوا في أفغانستان ضد الاتحاد السوفييتي، أخبرنا ببطولات المجاهدين وما هو أجرهم عند الله، أحيا فيّ حب الشهادة ونيل الأجر، بدأ يبرر أسباب انتكاس الأمة الإسلامية بأنها تركت الجهاد، عرض لنا صور القتلى في سوريا وما حل فيها، تلا آيات من القرآن تحرض على النفير ثم استشهد بأحاديث نبوية وأقوال علماء، تلك الليلة بدأت ميولي الجهادية تنمو بسرعة، أحببت لقيا جدي بعد كرهي للدنيا. غازي شجعني وأخذ يشحذ همتي الجهادية، كل يوم يخبرني بقصص المجاهدين وأن الجهاد أقصر الطرق لعبور الدنيا للدار الآخرة.

- كيف الطريق للجهاد؟ سألته.

كان رده بأن أفكر قبل أن أحسم أمري وأن أحتفظ بالسر ولا أبوح لأحد به أبداً. كنت قد اتخذت قراري في ذلك المخيم. لم أجب عن مكالمات فاطمة حين عدت، كما لم أنظر إلا لرسالة واحدة من رسائلها، كتبت:

أكتب أحبك وأنت تكتب أحبك

مدري تحب بصدق وإلا كتابه

جعلتني أكتب لها رسالة طويلة، بأن حبي لها حب أخ لأخته ولن يتعدى ذلك، اعتذرت لها عما حصل بيننا ساعة ضعف من أمري ونصحتها بأن تتوخى الحذر من الذكور، فرغبة شهواتهم أسرع من حُب قلوبهم للإناث، من يُحب بِصدق يطرق الباب لا من يطلق الوعود بطرقه مستقبلاً.

حاولت الاتصال بي لدرجة أنني ظننت أنها ستصيح في الشارع بأن أرد عليها حين أكثرت علي الاتصال.

وصلني على الهاتف تسجيل صوتي منها، أغمني كثيرا حين سمعت بكاءها، تحبني منذ أن كنا صغارا، تُذكرني يوم رسمت اسمها على الرمل مقابل بيتهم حينما كنا نلعب، لم تنس اهتمامي بها ومشاركة البوظة معها، تحس بريقي في جوفها.

لم أستسغ قولها ولم أعلم عن مدى حبها لي إلا تلك الساعة، تمنيت لو كان جدي حياً لذهبت لخطبتها فورا شفقةً لحبها لي.

لا أريدكِ أن تفرحي بحبي لكِ، حتى تنهي قصتي وتقرري مصيري معكِ، اعذرني، سامحني عما جرى لي ولكِ، عن أمرٍ

لم يكن لي قرار فيه غير قرار القدر في قصتي معكِ.

أكدت لغازي على قراري وأنني لن أتراجع عنه، كنا في المسجد ساعتها بعد صلاة العصر، لم يكن فيه أحد غيرنا، عندما لمس صدق رغبتي أمرني بأن أنتظر ساعة ريثما يعود، قرأت آيات من القرآن وأنا أنتظره، رأيت شابا ملتحيا يدخل ويقعد، كان يختلس النظر إلي ويتحدث بالهاتف بصوت خافت، استنكرت أمره فسلمت عليه، رد السلام ثم قام وقعد قربي فيما أغلقت المصحف.

ضياء. جوابي حين سألني. أمرني أن أقف فأخذ يفتش جيوب ثوبي، يبدو أنه من طرف غازي، لم يجبني حينما سألته عنه.

- إن أردت الجهاد فعليك بامتثال الأوامر وتنفيذها بكل دقة حتى لا تعتقل. أجبته بإيماءة برأسي. ثم غادر المسجد بعد أن وعدني أنه سيتواصل معي شخصيا.

اختفى غازي يومها ولم أره، المؤذن أخبرني أنه سافر للعمرة وسيعود بعد أسبوع، فاطمة ما زالت تراسلني وترسل لي أبياتا من الشعر، لم أرد عليها، أبو شعرة وعبدالله يطلبان مني أن

أرافقهما لمجمع الطريق المشجر، كثيرا ما طلبا مني ذلك منذ أن صاحبت غازي، أعتذر لهما بأنه مكان انحلال خُلقي، يعج بالنساء الكاسيات العاريات، بدأ عبدالله يسب غازي.

– كان سببًا في حرق كُتبي والآن تسبب في إتلاف عقلك.

أبو شعرة اكتفى بتدخين سيجارته والنظر إلي وقال:

– يا حلو الكاسيات العاريات.

❊ ❊ ❊

بينما كنت في المسجد مساء، حضر الشاب وطلب مني أن أتبعه بسيارتي، تبعته إلى منطقة الرقعي عند أحد المطاعم، طلبنا بعض الأكل فيما ظل كل منا في سيارته، ثم طلب مني إحضار مبلغ من المال لم يحدده، وأن أنتظره في أحد مساجد منطقة كبد، أغلق زجاج السيارة ثم رحل بعد أن تسلم الطعام.

احترت في أمره وطريقته، ازدادت شهيتي لمغادرة الوطن، لألحق بركب المجاهدين، أصبحت الحياة أكثر مللا في نظري، فَلَتّ من حبل الشيطان حين أرسل لي فاطمة، كنت أتفكر في أمري معها، لم ترتم في طريقي حتى عرفت الطريق القويم لله وها هي تحاول أن تثبط همتي عن الجهاد، لم تمل من مراسلتي، جنون الحب يدفعها، تتعلق الأنثى بمن يتجاهلها.

أصابتني الدهشة حين أطلعني موظف المصرف على رصيدي، كنت أريد أن أسحب المبلغ الذي فيه وكان لا يتجاوز ١٥٠٠ دينار لأكتشف أنني أملك حساباً آخر باسمي فيه ٣٦,٠١٥.٦٥٠ دينارًا، كان جدي من فتحه لي في صغري وهو متاح لي الآن كما صرح لي الموظف، سحبت منه ٣٠٠٠ دينار وغادرت، أحسست بفقد رغبتي للجهاد عندما رأيت المال إضافة إلى أنثى غارقة في حبي، هذه أيضا

من حبال الشيطان ليثبط همتي عن الجهاد قلت لنفسي. لم أعلم أنني أسير في طريقه الرئيسي وقتها، تدخلات الخير النازلة من السماء في حياة الإنسان تأتيه على شكل انحناءات قرب طريق الشر الذي يسلكه، نُطلق عليها في جزيرة العرب كلمة (خيرة)، فاطمة كانت من انحناءات الخير، المال الكبير الذي تركه جدي لي حين اقتطع مبلغا من راتبه الشهري كان من تلك الانحناءات التي ظننتها طريق شر لتبعدني عن الطريق الذي أسلكه ظنا مني أنه الطريق القويم، بداية العقد الثالث من حياتنا هي مرحلة في غاية التقلبات كسفينة في بحر مظلم لا تهتدي لطريق النجاة، تمخر عبابه نحو أدنى ضوء يلوح لها ظناً أنه الطريق السليم.

- مبلغ كبير.

قالها الشاب حين قابلته في أحد مساجد منطقة كبد كما حدد، لم يُرد سوى ٥٠٠ دينار من أجل رحلتي التي سيكون طريقها إلى الأردن حيث سألتقي بصديق له، أخذ المبلغ كصدقة للمجاهدين كما قال لي. وأظن أن المبلغ لن يغادر جيبه إلا لنفسه فقط.

بدأت أتجهز لرحلتي نحو الجنان المرتقبة، أبلغني الشاب

أن طائرتي ستقلع بعد يومين، تسلمت منه التذكرة صباحا في مسجدنا بعد أن أعلمني باسم أبو دجانة، الشخص الذي سيقابلني ويرتب معي، غازي لم يعد من العمرة، خمسة أيام مضت ولم يتصل بي، لم تكن تلك عادته، زُرت قبر جدي الذي مضى عليه شهران منذ وفاته، دعوت له بخير وأخبرته أنني ذاهب للجهاد وقريبا سألتقي به بعد أن أحرر روحي من الجسد الدنيوي.

قبل رحلتي بليلة، أطلعتُ أبي بأنني سأذهب لمساعدة السوريين في الأردن، وافق على تردد رأيته في عينيه، يريد فتح علاقة متينة معي بعد تلك السنوات العجاف، كلمة لا هي كلمة فاصلة بين العلاقات تَعظم بِعظم الموقف كلما اختفت متنت العلاقة، أبي تجنبها مع ما بنفسه من إطلاقها.

خالد ووالده تمنيا لي التوفيق بعدما زُرتهما وأعلمتهما عن رحلتي، قبل أن أخرج أعطاني أبو خالد مبلغا من المال كصدقة عنه أوصلها للمحتاجين، رفضت معتذرا له بأننا قد أعددنا كل شيء، ألح علي بشدة فأخذته منه، عبدالله وأبو شعرة كانا في طريق عودتهما للبيت، طلبت منهما أن نلتقي في حديقة جمعية الفردوس. انتظرتهما في الحديقة التي كانت كبيرة في

أعيننا ونحن صغار وأصبحت صغيرة في أعيننا ونحن كبار، لا تتجاوز مساحتها ١٠٠م^2 شبه مظلمة، أكثر روادها الخدم يبثون همومهم وأفراحهم فيما بينهم فيها، حالة الحديقة مزرية كضاحيتها الفردوس، الكويتيون يدعون الله بأن يكونوا من أهل الفردوس الأعلى، أما فردوس الكويت فيدعون الله ألا يكونوا من أهلها، ضيقة شوارعها، صغيرة بيوتها، كبيرة هي بقلوب أهلها واسعة بعلاقاتهم الاجتماعية.

وصل صديقاي وعلامات الاستغراب تلوح على وجهيهما! ما سبب قعودي في هذا المكان القذر وسط برودة الجو وتساقط الأمطار؟

طلبت منهما الانتظار، ذهبت واشتريت من المطعم الهندي خبز الشباتي ملفوفا على الفلافل والحلوم وشايا مُزج بالحليب، ذَكرتهما بأيام طفولتنا حينما كنا نلعب هنا ونعد ما بقي معنا من نقود لشراء الطعام، حينما تقاسمناه معا مبتهجين، كنا صغارًا همومنا بقدر أحجامنا كلما كبرنا ما كبرت معنا، بدأ أبو شعرة يأكل ويذكرنا بأحداث استطاع أن يستخرجها من أعماق ذاكرتنا، ضحكنا تلك الليلة حتى أخبرتهم أنني سأذهب لمساعدة السوريين في الأردن.

انقطع الضحك فجأة! تبدلت معالم وجهيهما خاصة عبدالله، لستُ مضطرا للذهاب وحدي، سَيذهبان معي إن صممتُ على رأيي. لم أستطع أن أنفك مُنهما حتى تمنيت أني لم أخبرهما، حمدت الله أني لم أطلعهما على مغادرتي غدا صباحا.

قبل أن أخلد للنوم وصلتني رسالتان على هاتفي، واحدة من عبدالله وأخرى من فاطمة، فتحت رسالة عبدالله الذي حذرني فيها من أفكار غازي، ويخشى أن يستدرجني لجهاد وهمي لا أساس له من الدين بل هو حرق للمتشددين تقوم الدول بتسهيله للخلاص منهم.

فاجأني برسالته! التي لم أعرها أي اهتمام، يستعد هو وأبو شعرة لمرافقتي للأردن بعد أسبوع كما قلت لهما بعد إصرارهما على الذهاب معي. رتبت مع أحد شباب مسجدي ليوصلني للمطار غدا.

ترددت في فتح رسالة فاطمة، ترددي ضعف أمام الفضول لمعرفة محتوى آخر رسالة سأراها منها.

كنا صغارًا نلعب بالرمل معا، تخطني اسما على الرمل

فانمحى أثره ليرتسم اسمك في قلبي، ضياء كم أحببتك منذ كنا أطفلًا نلهو، أحببت فيك طيبتك الطافية على عينيك، شعرتُ بحزنكَ عند وفاة جدك، أحسست أنك غبت عن الدنيا، والدك حضر وعاد للمنزل وأنت غبت روحا عنه، حبي لكَ أكبر من حُب أخ لأخته، اشتياقي إليك كاشتياق بُستان اصفرَ أعلاه شوقا للماء، كوردة ذبلت من حر الهجر، عودتك كالنسيم البارد لها، أحبك يا ضياء فلا تهجرني.

معاك فكري والعقل دوم شارد
دايم وشمسي في هوى حبك شروق

شعرتُ بالحزن والأسى تجاهها، مسكينة هي تعلقت بشاب ليس له قلب ينبض ليؤجج المشاعر التي حركتها برسالتها، ما أعظم حِيل الشيطان حين يُصمم المرء على عمل طاعة كبيرة. قُلتها.

لم أعلم أن رسالتها أيضاً من انحناءات الخير في طريقي الذي سلكته.

* * *

كُنت في الطائرة ومعي حقيبة صغيرة فيها بعض الملابس القليلة والحاجيات، قبل إقلاع الطائرة بعثت ثلاث رسائل اثنتين إلى صديقيّ أودعهما فيها، والأخرى لفاطمة، أطلب منها أن تنساني فقلبي ليس معي لأحبها.

عندما ارتفعت عجلات الطائرة عن الأرض، رن هاتفي... أبي المتصل، صوته متقطع... سمعته يقول:

– الله يحفظك وترجع لي بالسلامة.

* * *

الفصل الثاني

أ. بديع

نور الأمن وظلمة الفقد

أُسميت بيسان بعد موافقة والدتي على الاسم الذي اختاره والدي لمولودته البكر، مفتخرًا بأصوله الكنعانية، القوم الذين رحلوا من جزيرة العرب ليستقروا في الشام ويؤسسوا مدينتهم بيسان كما ذكر أبي. كان مسقط رأسه في بستان جدي في بيسان سنة ١٩٤٨م، تلك السنة التي احتلت فيها إسرائيل أراضي فلسطين، أجدادي حمصيو الأصل ولهم أراض في فلسطين يوم كانت البلاد تحت حكم دولة بني عثمان.

نشأت بين كنفي أبوين حنونين، كنت مصداقا لنجاح علاقتهما الزوجية التي توجت بعد سبعة أعوام بميلاد أخوي التوأمين إسحاق وإسماعيل، مدينتنا حمص القديمة التي أصبحت كبيرة بعد أن حلت حضارة القرن العشرين في قلبها وأحاطها العمران الحديث، وامتلأت بجميع الطرق لعبادة الرب أغلبها الإسلام وطوائف قليلة تنتمي للإسلام خلطت مابين تعاليمه وتعاليم المسيحية التي لاتزال توجد على أرض الشام، كان التسامح قائمًا بيننا رغم اختلاف طرقنا في عبادة الرب، لا أحد يزدري أحدا أو يتدخل في طريقة عبادته، مندمجون فيما بيننا تُظلنا غمامة التعايش.

كان مسقط رأسي في الحميدية قلب مدينة حمص حيث

بيتنا القديم، بعد التوسع العمراني المصاحب للضجيج حول بيتنا الصغير، وافق والدي على بيعه عندما عُرض عليه مبلغ كبير مغر وبالعملة الأمريكية، استملكنا شقة في الغوطة وأرضا زراعية كبيرة فيها، من أجمل أحياء مدينة حمص وأرقاها وأغلاها هي الغوطة، مدخل البناية أمام شارع زكي الأرسوزي، البطل القومي الذي قاد ثورة ضد تركيا وفرنسا حين انتزع لواء اسكندرون من سوريا ليصبح أرضا تركية، عُرفت ثورتهُ باسمه من يومها، كان فيلسوفا ومؤلفا مغرما بالعروبة، استقى ميشيل عفلق من أفكارهِ فكرة القومية ليؤسس بعد حين حزب البعث الاشتراكي، اعتدت على قصص والدي عندما يصطحبني في جولة لشراء البوظة من العم خليل الذي يركن عربته قرب جامع السيد عمر بن الخطاب، مولع أبي بسيرته أيضا وأنه أصل الهوية الإسلامية الحقيقية التي تمثل الوجه الحقيقي للإسلام إبان حكمهِ، كما يشير في طريق عودتنا فيما ألعق البوظة ممسكا يدي الصغيرة إلى ملعب خالد بن الوليد هو من أعظم قادة جيوش العالم حنكة ودراية.

دأب أبي على تعليمي منذ صغري، كلما مر بشارع أو منطقة أو حتى في الأحوال الجوية، يخبرني بما يعرفه هذا هو أبي، أمي ليس لها سوى التفنن في الطبخ وبهرجة شقتها، كثيرا ما أجبرتني على تقطيع البصل، كُنت أبكي حقيقة وليس من قوة رائحته النفاذة، كم كانت قاسية أمي علي، اكتشفت أن قسوتها لم تكن إلا رحمة بي، تريد تأديبي وتعليمي لتتزن شخصيتي بين أب يفسد بدلاله وأم تصلح بقسوتها، أو كما تقول بأمثالها الشعبية المتعددة:

ضرب الأم يربرب وضرب الأب يؤدب.

أُسرة كنا وقتها سعيدة، حتى عندما بلغت وبرز جسدي الفاتن، وتقت للحب كما تفعل صديقاتي، عندها انهالت علي نصائح أمي كنزول المطر المفاجئ على حفل في العراء، لا ترى الحب بين شباب جيلنا، مخادعون هم، حذرتني من الوقوع في حب شاب خارج ملتي، كم تكرهُ ارتدائي للجينز والقميص الضيق، تراني طعاما شهيا في أعين الذكور والمنحرفات من الإناث. صديقتي هِبه العلوية تقول:

– إن لم نتباهَ بأجسادنا الجميلة التي منحنا الله إياها الآن فمتى نظهر جمالها؟

رؤية اللذة في أعين الشباب نوع من أنواع اللذة الجنسية لها ولي أحيانا، عشيقها من الطائفة الدرزية، سرير والدتها المطلقة شهد حين ذهابها للعمل أفعال الدفع والجذب بينهما، أمي لا تحب تصرفات هِبة، تنصحني بقطع علاقتي معها لا تريدني أن أكون مثلها شهوانية تُسلم جسدها بسهولة، تحذرني من مكر الذئاب البشرية وألا أكون مُجرد تنفيس للرغبة، يجب أن أكون متزنة الشخصية أفرضها بقوة لا بضعف.

صديقاتي يتحدثن عن علاقاتهن بعشاقهن، يكذبن كثيرا في قصص غرامهن، لم يكن لي عشيق وقتها حتى تعرفتُ على خالد، الشاب الذي يعمل في محل أبي، مثقف، صارم الملامح، قليل الكلام، يعمل بمكتبة أبي في بيع الكتب المستعملة، تَعلم على يد والدي الذي ساعده في دخول جامعة البعث، خالد يُعيل أسرة مكونة من خمسة أنفس، سجن والده بسب تراكم المخالفات المرورية، ستة أشهر تحولت إلى سنة حين رفض دفع الرشوة التي لا يملك ثمنها، مات في سجنه هماً على أسرةٍ رُميت في الشارع.

خالد يعمل بصمت، يُعد الشاي لوالدي ويقعد معه إلى حين إقفال المكتبة ليلا، قليلا ما نظر في عيني والدي وكأنه عاجز

عن شُكره لتوظيفه بمبلغ كبير بالنسبة له.

كثيرا ما احترت في أمره! لا ينظر إلي، يُطرق بنظره للأرض ويتشاغل في ترتيب الكتب عند زيارتي لوالدي، حتى إنه لا يختلس النظر إلى البطيختين اللتين حُشرتا بقسوة في الجينز وبان مفرقاهما القاتل كما ينظر لهما الآخرون ويشهقون.

كثيرًا ما تعرضت للتحرش والمضايقات من شباب مختلفي الأشكال، الوسيمين منهم لو أحسنوا التصرف لكنت عشيقة أحدهم، حتى الشاب الجميل الذي أعجبني وتقت إلى توطئة علاقتي معه صدمني بتصرفه الأهوج! حين تحدثت معه ونحن متوارون عن الأعين في الحديقة العامة، اجتاز حدوده، فدفعته ونهرته، فلم يردعه عني سوى شجار عشيق هبة معه، خِفت من الشباب حينها، حتى تحرش فيّ أحدهم وألح على تحرشه، كان يرقب خطواتي يوميا، حتى تمادى وأزعجني أمام باب عمارتنا، ألح علي أن أقبله كصديق وأنه واقع في حبي، ضايقني تصرفه عصر ذلك اليوم، كان خالد أمام باب عمارتنا لغرض طلبه والدي منه، رأى الشاب يعاكسني ويفتح ذراعيه كأنه يريد احتضاني، أرعبني خالد حين أطبق بقبضتيه على رقبته، وهزه بقوة ثم رماه أرضا، صرخ الشاب فيه، مرسلا قذائف الشتم،

التي انقطعت حين ركل خالد مؤخرته ليفر هاربا. أعجبت بخالد يومها وأحببته، لم أكن أفرق وقتها بين الحب والإعجاب كطفل لا يفرق بين السكر والملح.

الذكريات السعيدة مؤلمة حينما نستذكرها وقت الألم، العطاء يُنسي ما قبله والأخذُ ينهي ما بعدهُ، حُرمنا من كل شيء بعد أن كنا في نعيم، ها أنا وحيدة الآن.

نبض قلبي بِحبكَ حين نبهتني أم أَسد لمشاعرك اتجاهي، لم أكن قبلها أشعر بشيء تجاهك، سوى عظيم الشكر لما فعلته من أجلي، فقط هم العُشاق الصادقون من يبذلون أرواحهم من أجل عشيقاتهم، ما رأيته منكَ وقتها هو الحب بروحه وجسده، صمتكَ وحدهُ ما كان يقف عثرة بيننا رغم ولعي بكَ.

كما رويتَ لي حكايتكَ بِصدق، سأروي حكايتي.

* * *

بدأت علاقاتي بخالد حين وجدته وحده في المكتبة، شكرته على ما قام به من أجلي، برودة رَده كانت قبيحة.

- أي شخص سيفعل مثلما فعلت. قالها.

ركلتُ برودته جانبًا وألحقتها بتحفظي، طلبتُ منه أن نذهب لشراء البوظة، إلحاحي عليه جعله يوافق ويغلق المكتبة قبل منتصف النهار بساعة. مع الأيام تكررت طريقتي معه، هو تقبل ذلك واعتاد علي، تباهيت أمام صديقاتي بحبه لي، بدأ يبوح لي عن مدى ألمه مما جرى لوالده، يتمنى الانتقام من هذا النظام الفاشي، القانون الذي يخدم البلاد أصبح طوعا لكل مرتشٍ حتى رجل الأمن يتجاوز عن المخالف نظير مئة ليرة، بعضهم يهدد بالمخالفة التي تصل لآلاف الليرات مقابل ربعها يدخل لجيبه، مطية هو القانون بين حاكم ومحكوم.

لم أهتم لهمه وما يضمره من حقد على النظام، قُبلةً ما أريدها منه.

بدأ يحادثني بالهاتف ليلاً وينقل لي كل ما جرى معه، من ذلك الخليجي الملتحي الذي أتى لحمص يسأل عن كتب دينية متوفرة في بلاده وممنوعة في بلادنا، وتلك السيدة التي تبحث

عن كتاب خاص في الجنس، وأخرى تبحث عن كتاب يُعلّم طرق السحر، عوالم غريبة تمر عليه في مكتبة أبي، انتظرت منه أن يغوص في حديثه ويشعرني بلذة الغوص، أن يكشف المحار ويتحسس على لآلئه، انتظرت منه أن يفتح الضوء الأحمر عبر الهاتف ليشعرني بقشعريرة يصدر عنها صوت الآهات، بيد أنه لا يشعر بي ولا يرغب.

– هل هو منحرف؟ تساءلت.

نقلت له سؤالي مع مرور الأيام حين طال عدم شعوره بأنوثتي عندما كنا في إحدى الحدائق؟

نظر لي مدهوشا! ثم بدأ يضحك عاليا وينظر لي ويصمت ثم يضحك حتى تضايقتُ منه وأردتُ الانصراف فاستوقفني.

– لماذا سألتِ هذا السؤال بالذات؟

خجلت وحاولت الابتعاد، مسك عِضدي ولف جسمي نحوه، واضعا يداه على كتفي، حدق فيّ وأنا مطرقة وجهي خجلة أنتظر قُبلته.

– لستُ منحرفاً. قالها.

نظرت في عينيه الودودتين ثم أطرقت للأسفل بخجل.

– ما هو شعورك نحوي؟ قلت له.

يَراني فتاة صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة، لا يشعر بشيء نحوي أبداً، ليس له أصدقاء غيري، يرتاح عندما يحدثني. تلك الليلة كُنت في أوج سخطي عليه، شعور أحسستهُ لأول مرة، اعترفتُ لهبة بكل شيء حدث بيننا.

– لم يحدث بينكما شيء! كنت تكذبين علي بشأن قبلاته المحمومة. قالتها. ثم ضحكتْ وسط غضبي وندمي على إخبارها.

– عنين هو فتاكِ، حظكِ سيء.قالت.

لم أعرف معنى كلمة عنين، حتى أخبرتني هبة، رجل لا يشتهي النساء، لا يشعر بالجنس. لطمتُ خدي، فتاة أنا أبحث عن حبٍ آمن وسط مجتمع ينقل الشائعة عن الفتاة بسرعة الجراد، من حُسن حظ هبة أن عشيقها لا يبوح لأحد عن علاقته السرية بها، لم أعد أرغب في مقابلة خالد رغم تكرار اتصاله بي.

* * *

عدوى حقد خالد على نظامنا الحاكم أصابت أبي، عندما صادر محافظ حمص أراضٍ في الغوطة ليقيم عليها مشروعا تجاريا كبيرًا، اقتطعت أمتار كبيرة من أرض أبي، لم تفلح مساعيه لاستردادها أو قبض ثمن لها، أغلقت الأبواب في وجهه، إغضاب والدي أهون من إغضاب المحافظ خليل الأسرة الحاكمة.

- ابن بائع الجولان يقف ساكنًا أمام تجاوزات صديقه المحافظ.

قالها أبي عندما اجتمع أصدقاؤه في صالتنا التي مُلأت بدخان سجائرهم، كان غاضبًا من مصادرة أرضه للصالح القومي، لم يكن وحده من وقع عليه الظلم بل كل من طالته يد المحافظ. تقلد محافظة حمص منذ بضع سنوات وشرع في نهبها عن طريق جبي الضرائب والطرق الملتوية، ساعة الكهرباء سعرها في حمص وحدها خمسين ألف ليرة، وفي باقي المحافظات ثلاثة آلاف ليرة، كيس الخبز محسوب على كل فرد، يُمنع أخذ المزيد من الخبز، لكل شخص حصته المقدرة سالفاً وكأن بلادنا بلادٌ جرداء، انتقائية هي مدينة حمص من بين المدن الأخرى، كم عانت الكثير من السلب والتخريب والدمار في ظل المنتسبين لنظامنا الحاكم.

* * *

خالد استوقفني في المكتبة بعد أيام من انقطاعي عنه، كنت أتحجج بالبحث عن رواية لقراءتها، ألح علي لمعرفة سبب انقطاعي المفاجئ؟

– عنين أنت. قلتها له بكل وقاحة.

أزبد وجهه واحمر، ليس عنينا يعلمُ ما أريدهُ منه، احترامه لأبي وأمانته تمنعه من تجاوز حدوده معي. ثم أخذ بيدي وجذبني لأحد أركان المكتبة، ليطبع أول قُبلة ذكورية تلقتها شفتَيْ، وأدخل عالمها.

صرخة قوية وحدها جعلت أبوابه تغلق بشدة في وجهي وأصحو على كارثة! عند سماع صوت وقع أثره على قلبينا.

– يُؤصف عمرك شو تعمل. قالها أبي بصوت كدوي الرعد.

ابتعدنا عن بعضنا وكأن كهرباء صعقتنا، خالد امتقع لونه فيما احمر وجهي خجلاً وخوفًا، تقدم أبي وقبض على ذراع خالد بشده وألقاه خارج المكتبة ليسقط على قفاه، مخبرًا إياه أن يأتيه غدًا ليأخذ باقي حسابه.

عاد إلي مهدداً متوعداً ثم جذبني من ذراعي واقتادني لخارج

المكتبة، أغلقها وعدنا بسيارة أجرة إلى شقتنا وسط صمت أبي وخفقان قلبي الشديد.

شدتني أمي من شعري وحبستني في غرفتي بعد أن صادرت هاتفي، أسمع والداي يتشاجران، أمي تلقي اللوم على أبي الذي وظف خالدا، هذا هو جزاء الإحسان معه. ثم ختمت شجارها معه قائلة:

- الأرض الواطية بتشرب مَيّتها ومَيّة غيرها.

دخل علي التوأمان: ما الأمر؟ ببراءة يسألان.

هجمت عليهما أمي وأخرجتهما وأغلقت باب الغرفة بالمفتاح وهي تقول:

- كِبرت الباذنجانة ودَندلت أجراسها ونِسْيَتْ الطين يَلي فوء راسها.

* * *

عزفت عن الأكل، كلما وضعت أمي الطعام تجده كحاله حتى خافت علي بعد مرور يوم وليلة، كنت متدثرة بغطاء صوف عندما سمعت صوت الباب يُفتح فدسست رأسي، صوتها الدافئ يعاتبني على فعلتي... هل كان بإرادتكِ أم لا؟ أخبرتهما مرارا أنه بإرادتي لا ذنب له. لم أرد عليها حين كررتها.

– تعايشنا نحن والمسلمون منذ عصور خلت، حدث بيننا قتال على مر الأزمنة إلا أنه قليل، نحن أصدقاء وجيران لكن! لسنا أصهارا، يكفي ما لحق والدك من عار حين هربت شقيقته مع مسلم. قالت أمي.

المرأة التي تُحب خارج دينها امرأة خائنة في نظرهم، عابت علي وقوعي في حُب خالد المسلم الفقير، كوني مسيحية لا ينبغي لي سوى الوقوع في حب شاب من ملتي، لا تريد لي أن أُقتل على يد أبناء طائفتي كما قُتلت سوسن التي أحبت مسلما وتزوجته في السِر، فقام شقيقها بِدك جُمجمتها بمطرقة بعد أن سحبها من عُشها في غياب زوجها وغيرها من فتيات طائفتي اللاتي قُتلن حين تزوجن من مسلمين.

أعادت لي هاتفي ورحلت مغلقة الباب، الهاتف يرن... هبة... علمتْ بكل شيء... أخبرتها أمي واطمأن قلبها علي حين علمت من هبة أنه لم يحدث بيننا شيء أكثر من قُبلة، بعد أن أخبرتها أن خالدا عنين.

انتشر خبر خالد بين صديقاتي ومنهن لعشاقهن ثم إلى الشارع، العنين لقب اشتهر به بسبب هِبة، لم يعلم بلقبه الجديد حتى تشاجر مع أحدهم فنعته به.

غضب عليّ غضبا شديدا، فُضح أمره، كان حقيقة عنينا، ما فعله معي ليس إلا حفظا لكرامته كرجل أمامي، ذهب لعاهرة ليثبت رجولة اكتشف أنها مشلولة، حاولت العاهرة معه كل الطرق فلم يناولها ثمنًا لعُهرها معه. سَيئة هي بتصرفها لا تعرف كيف تحيي رجولته. قال لها بغضب.

أفشت خبره بين سكان حارته، ممن يرتادون سلة المهملات التي في جسمها، اختفى خالد تمامًا بعدها، شعرتُ بالذنب كنت سببا في قطع رزقه وفضحه.

* * *

أحسست أن حظي السيئ لازمني منذ تلك القُبلة، أبي أخذني لكنيسة أم الزنار؛ تلك الكنيسة التي تفتخر بزنار السيدة العذراء مريم، الزنار الذي حصل عليه القديس توما وانتقل مع رفاته إلى مدينة الرها ثم أحضره الأب داود للكنيسة منذ ستة عشر قرنا لتسمى به.

كان أبي يريد تطهيري من الإثم الذي ألحقته بنفسي، اعترفت بخطيئتي للمطران فغفر ذنبي.

حُب المسلم لمسيحية أمر لا يقبله، لم لا تتزوج المسلمة مسيحيا؟ هل هي أحرص على دينها من المسيحيات؟ يرى أن الفتنة عظيمة فيجب أن نتمسك بدين المخلص اليسوع؛ الذي ضحى بنفسه لخالص البشرية، ألا ينبغي لنا أن نخلص لديننا من أجل الرب؟. تطلع إلي فيما كان يعدل نظارته التي ارتخى جانبها.

يرى أنه إذا تزوجت المسيحية مسلما فلا شك لديه أنها ستنسلخ عن دينها، التجارب أرته ذلك.

لم يعلم أن حُبي لخالد وقتها ليس إلا إعجابا وشيئا من التباهي أمام صديقاتي ولأُشبع رغبة متأججة، حُب القاصرين

ليس إلا شهوة، تغيب عقولهم وتحضر رغبة النفس بالمتعة، الحُب هو تضحية، الحُب هو الخوف على المحبوب من أن يخدشه شيء في جسده أو سمعته سرا كان أو جهرا، الحُب إن لم يأت من طرفين فهو أعور لا جمال فيه، لم أعلم أنني سأقع أسيرةَ حبكَ ومعروفكَ الذي صنعته معي، عيناكَ المشعتان حبا لي تجذبان قلبي بشدة إليكَ، كلمة أُحبكِ وحدها ستقيدني بأغلال الهيام والكلف فيك وحدكَ إن أطلقتَ سراحها.

❊ ❊ ❊

آذار عام ٢٠١١م، ثارت بلادنا بعد شهر من قُبلة الشُؤم، لتلحق بركب الدول العربية التي تحررت من الرق، حتى تستبشر بالربيع العربي القادم كما تناقلته وسائل الإعلام العربي، أبي خرج للمناداة في الإصلاح وعزل المحافظ، مع تزايد الجموع المنادية بالإصلاح، بدأ القمع برصاص القناصة، عصابات يتشحون بالسواد مقنعون بدأوا باعتقال المتظاهرين وسحلهم، أُطلقت النار على المتظاهرين لتفوح رائحة الدم، هلع أبي من القتل خشي على سورية من الانزلاق في وادي الدم، لم يخرج لإسقاط النظام والمطالبة بخلع الرئيس، بشار في نظره أفضل من القادم المجهول، طالب بعزل المحافظ والإصلاح فقط، ما رآه من سفك للدماء أنبأه بسقوط سورية في أتون الجحيم.

- آَالو ربيع! هاد شوب حارِئ مِشْ ربيع.

قالها أبي لي ونحن نشاهد المتظاهرين يُقتلون برصاص قناصة تمركزوا فوق أسطح البيوت، المصارف أُقفلت بعد أن سحبت الحكومة الأموال منها تحسبا لأعمال نهب، محلات المجوهرات خلت تماما خوفا من الفوضى التي انتشرت في أرجاء حمص، حَمل الحمصيون السلاح بعد أَشهر من التظاهر السلمي لتبدأ حرب الشوارع وتستعر في كل مكان، بَكيت حسرةً

على بلادي الآمنة الجميلة سورِية، كانت تشهد قبل الثورة ظلمًا وتعسفًا وفسادًا في ظل نِظام مستبد والآن انزلقت في مستنقع الرذائل، وكل من رأى صواب رأيه داسها لكي لا تنهض.

لزمنا شقتنا والخوف يعترينا جراء سماعنا للقصف، وصل الرصاص المتطاير لزجاج شقتنا فهشمه واستقر في جدرانها، إحداها في صورة أبي المعلقة، نذير شؤم ذلك الرصاص من بين كل الرصاصات، رحلنا عن شقتنا وسكنا في إحدى دور حمص القديمة.

* * *

انصرم العام ونحن في هرج ومرج، سَيل الدماء لم يتوقف، تضاعف مع الأيام، طائراتنا بدأت بقصفنا، كانت مُعدة ومجهزة لحرب الشعب وليس للعدو الذي تغنت الحكومة بالصمود في وجهه، شعب أصر على الخلع ونظام استمات على البقاء، تذكرت مقولة أحد أصدقاء أبي الفرنسيين من أصل سوري حين قال:

- الفرنسي كالعاهرة يلين أمام النقود أما العربي فتأخذه العزة بالإثم.

قاصداً أن الفرنسي سلس في تعامله بما تقتضي مصلحته، أما العربي فمتغطرس جامد التعامل خشنه. نظامنا جنى على نفسه حين استخدم القوة في زمن أصبح العالم كله في بناية يشاهد ويسمع ويؤثر بسبب وسائل الاتصال الحديثة المحمولة في اليد، بعد أن كان في مدينة كبيرة حين استخدمت الحواسيب.

تضورنا جوعاً، أبي نحل جسمه، أمي فقدت نضارتها، التوأمان توسدا الأرض من شدة الجوع، خرجت من البيت بحثاً عن لقمة ما. خلت المنازل بعد أن هجرها أهلها بسبب العصابات التي اغتصبت وقتلت المسالمين، أبي رفض الرحيل، يفضل الموت على أن تخطو قدماه خارج حمص. وجدت فتاة

محجبة تبحث عن الطعام، أخبرتني أن هناك فرنا ما زال يعمل آخر الحي، توجهنا إليه، وجدناه يعمل، الناس مزدحمون على بابه، يوزع صاحبه الخبز بالمجان، ثلاثة أرغفة لكل شخص. بعد عناء امتد لثلاث ساعات أخذت الخبز عندما بادرنا صوت تبادل إطلاق الرصاص واشتداده، هرب من حولي كذباب هرب من ضربة بنعل، بقيت أنا والخباز فقط نحدق في بعضنا بعد أن شل الخوف حركتنا، انتبهت للفتاة التي تصرخ علي من بعيد، ركضت نحوها، استترنا عن رصاص لا نرى أثره حولنا.

بعد ساعة بدأت القنابل تسقط وتنفجر، محدثة دويا شديدا وهزات عنيفة وغبارا رماديا متطايرا، أسرعت الخُطى نحو بيتنا، ركضت، الناس يتدافعون نحوي أنا والفتاة التي لازمتني، تغيرت ملامح الناجين إلى لون الرماد كلهم بلا استثناء، الفتاة عثرت على والدتها العجوز ولم تدعاني أذهب وحدي، وصلت إلي بيتنا، سقطت على ركبتي، أبكي غير مصدقة ما أرى...

انهار البيت على من فيه تمامًا، أشلاؤهم تحت الركام مدفونة، احتضنت الخبز بحرارة وكأني أحتضنهم، ظللت أبكي حتى فقدت الوعي، غبت عن العالم.

* * *

الجماعة

حطت الطائرة التابعة للملكية الأردنية في مطار الملكة علياء، أخبرني من كان بجانبي أنها زوجة الملك حسين بن طلال، اسمها أطلق على المطار بعد مقتلها إثر سقوط طائرتها جنوب الأردن، والدها هو بهاء الدين طوقان السفير الأسبق للمملكة الأردنية الهاشمية في واشنطن. استمر في سرد لمحات من تاريخ الأردن، لم أكن في مزاج لسماع سرده. عندما وقفت في صالة القادمين أنتظر أبو دجانة، ألح علي الرجل أن أقبل دعوته.

– جيرة الله عليك تقبل عزومتي. قال.

تخلصت منه بلطف، عرفني على نفسه، أستاذ دكتور عبدالرحمن الفقير أحد المحاضرين في جامعة اليرموك، ناولني بطاقة عنوانه طالبا مني عدم التردد بالاتصال، رأيته يذهب ويتلقاه أحدهم بالأحضان.

– ضياء. صوت رجل خلفي.

التفت ورأيت شابا أطول مني، نحيفا، ملتحيا، أبيض البشرة،

أزرق العينين، ارتدى سترة لونها بني فوق ثوب رمادي اللون واضعًا شماغاً أزرق على رأسه مرخيًا طرفيه.

- أبو دجانة. قلت له.

أشار لي بأن أتبعه، سرت خلفه حتى ركبنا سيارته الصغيرة المهترئة المركونة في إحدى زوايا مواقف المطار، حضنني عندما أغلقت بابها مُرحبا بحرارة. جاب شوارع الأردن وأنا أتطلع في جمالها، لم أتوقع أنها بهذه الروعة، شعرت بالبرودة يداي ترتجفان، سخر مني... كيف أتيت إلى الأردن مرتديا ثوبا صيفيا؟

عندما ذكرت كنيته مرة أخرى نهرني وطلب مني بألا أقولها أمام الملأ! هي فقط للخاصة، أمام الناس يكنى أبو جمانة، وصلته عدة صور لي، عرفني ساعة وصولي، ابتعد عني حينما رأى الدكتور يكلمني، حَذرون هم على أنفسهم وعلى سلامة المجاهدين.

توقفنا أمام شقة في منطقة أبو نصير، أحد الأحياء الراقية في العاصمة، دخلنا الشقة، رائحة اللبن تتسلل إلى أنفي، شربنا الشاي في الصالون، ثم طلب مني أن أستحم. شعرت بالراحة

بعد الاستحمام وارتديت بنطالا وقميصا، أديت صلاتي الظهر والعصر قصرا وجمعا، دخل علي مع زوجته المتشحة بالسواد من رأسها إلى أصابع قدميها، دعت لي بخير وأن يتقبل الله عملي خالصا. كانت تنعى لي نفسي ساعتها وأنا أؤمن على قولها. ثم أخبرتني أنها طبخت لي المنسف الأردني، وهو لحم يطبخ بالإقط المذاب في الماء ورز مشرب بالسمن، وصفته لي ورائحة الطعام تُنبئ بمدى لذته، لم أذقه من قبل سمعت عنه والسمع لا يغني عن التجربة أبدا.

ما إن نضج إلا وقد زاحمني عليه أربعة آخرون من جيرانهم، كنا نأكل ونحن وقوف بعد أن وضعه على الطاولة، هي عادة البعض في الأردن كما قال أحدهم. لكل شعب عاداته وطرق الترحيب والضيافة، شعب كريم الكل يدعوني لتناول الضيافة في بيته حتى فقيرهم يدعوني إلى تشريفه، شعبٌ مضياف هم أهل الأردن.

بدأ أبو دجانة ينسق دخولي إلى سوريا لأنصر المستضعفين، لألحق بركب الشهداء، وأرفع جدي لمنزلتي بعد أن ألقاه في الحياة الآخرة، الطريق ليست بالسهلة لأصل إلى جماعتي التي علمت بقدومي، بعد أن أرسل لهم أبو دجانة صوري وصورة

جواز السفر. طرق الأردن مراقبة جيدا من قوى الأمن، حتى الجانب السوري ما زال مسيطرا على حدوده معنا، جماعتي في شمال سوريا في مدينة أعزاز، رسم لي طريقة للوصول إليهم بعيداً عن تقصي المخابرات لي إن حدث وعلمت عني، أنطلق من عَمان إلى إسطنبول ومنها إلى مدينة غازي عنتاب ثم مدينة كلّس، حيث سينتظرني عند مقر الحافلات أبو البراء ليأخذني إلى جماعتي.

مكثت يومين في الأردن، ثم رحلت بعد أن أقلني أبو دجانة إلى المطار، اشترى لي هاتفا غبيا للاتصال بعد أن حطم هاتفي الذكي المحتوي على صور وأرقام أصدقائي، لم أحزن على فقدانه، فقد فقدت أعز شخص على قلبي وها أنا أنطلق لألحق به.

* * *

نقلتني الملكية الأردنية لوجهتي إسطنبول، منذ تحليق الطائرة إلى استوائها في السماء لم أر إلا تدرج اللون الأزرق والغيوم، ليس كما في الخليج الغبار يملأ الأرض وسماءها لا تكاد تنفك منه إلا على علو اثني عشر كيلو مترا ومع ذلك يلامس السماء، عندما وصلنا لأجواء إسطنبول، هالني منظر الغيوم المتراكمة على بعضها بحجم الجبال هي أو أعظم، ساعة نزولنا رأيت جنات الدنيا وزخرفها، علمت أننا فقراء في الخليج رغم ما بأيدينا من أموال طائلة.

هبطت الطائرة في مطار أبو الأتراك؛ الرجل الذي سلخ الدين عن الدولة وحاول اجتثاث هوية شعبه الإسلامية فبارت مساعيه. أنهيت الإجراءات الجمركية والتأشيرة وخرجت أسأل عن الطريق إلى مدينة غازي عنتاب، لا أحد يفهم انجليزيتي الركيكة حتى موظفو الاستعلام لم يفهموا ما أريد، أحد المسافرين أرشدني، قطري أتى سائحا، زار غازي عنتاب من قبل، مدينة تشتهر بحصنها الذي فوق هضبة تتوسطها، مطار صبيحة كوكشين يبعد ثلاثين كيلو مترا، سأجد فيه طائرات مخصصة للطيران الداخلي. شكرته على مساعدتي وإرشادي، قبل أن أذهب قال لي:

– لا تنسَ أن تتذوق الكباب العنتبلي الشهير.

انطلقت نحو مطار صبيحة، سائق سيارة الأجرة يحاول أن يقول لي شيئا فلا أفهم عليه، حتى أخرج هاتفه الذكي وكبس على محرك البحث الرقمي، أراني إياه وهو يقول:

- Uncle google. يشير لعلامة جوجل ويضحك.

كتب في الترجمة ما يريد إيصاله لي، ثم أراني ما نقله العم جوجل من اللغة التركية إلى العربية:

صبيحة كوكشين، كوكشين تعني نائلة السماء، هي فتاة تبناها الزعيم مصطفى عزت أتاتورك وأصبحت من أولى النساء في قيادة الطائرات وتعد أول امرأة تركية قاتلت بالطائرات القتالية.

* * *

طائرة صغيرة سبحت في الهواء نقلتني ومن معي إلى مدينة غازي عنتاب، أجانب من كل لون وعرق وبلد، في المقعد الذي خلفي فتاة سوداء شعرها كالحبال المبرومة وبجانبي شاب أوربي بشرته رغم احمرارها قاحلة باهتة، الظلام يكسو محيط الطائرة بشدة، فهمت أننا وسط غيوم عملاقة كما قال قبطان الطائرة حين اهتزت، كنا كجنين أحاطت به الظلمات، ظلمة الليل وظلمة الغيوم وظلمة الطائرة حين ضربها البرق فأطفأ محركها، سمعت تضاؤل صوت المحرك، جسم الطائرة يهوي، أحسست بانعدام وزني، لحظتها لم أخف بقدر ما أرعبني صوت الصراخ، خاصة من مبرومة الشعر التي خلفي، ثلاث ثوان مرعبة وكأنها دقيقة مرت على الطائرة، التي عاد محركها للدوران وسبح جسمها في الهواء مخترقا الغيوم، ازداد إرهاقي بعد الحادثة المرعبة أغمضت عينيْ ونمت.

* * *

ظلام ودخان

فتحتُ عينيْ، لا أرى شيئا!

الظلام الذي يحيط بي جعلني أشك أني مستيقظة، صوت شيء يتحرك مقتربا مني، يد ربتت على كتفي فجأة! فزعت واندفعت للوراء ليصطدم ظهري بعنف بحائط ما.

متسائلة أين أنا؟

أين أمي؟

أين أبي؟

التوأمان؟

من قال إن الصوت لا يشيخ؟ سمعت صوتها ولا أرى شخصها، عجوز عندما سمعتها تخبرني أن الجميع خسر أهله وماله، مصيبة تحل على الجميع أهون من مصيبة تنتقي المرء من بينهم.

اختفى زوجها، قتل ابناها، لم يظل لها إلا ابنتها شيماء. تساءلت.. لما سردت لي هذه المآسي؟ حتى قالت... إنهم

لم يستخرجوا من ركام بيتنا سوى جثتي طفلين يبدو أنهما توأمان.

هنا تذكرت... أن بيتنا هُدم على من فيه، انتحبت كثيرا، نحيبي أيقظ الجدران حين رددت صداه لتشاركني مصيبتي، احتضنتني العجوز عندما تقرفصت على نفسي واضعة رأسي على ذراعَي، أضاء نور في المكان، أحسست بجمع يلتف حولي، أسمعهم يقولون:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

أحدهم يقول:

- يا بنتي الله يعوض عليك وعلينا، لا تدبحي حالك.

رفعت رأسي، رأيت أشباحا حولي، لا أميزهم بسبب الدموع التي موهت أشكالهم، مسحت دموعي، رأيت البؤس على أشكالهم المغبرة بغبار الأبنية، جروحهم الندية بادية على وجوههم، لوحة تعبر عن حال الإنسانية في بلدي، رسامُها والمتفنن فيها من عجز عن حماية شعبه.

اقتربتْ مني فتاة بنفس عمري، أخذتني لإحدى زوايا المكان الذي تبين أنه مخزن، أشم روائح أشياء محترقة، بدأت ذاكرتي

تنشط حين تذكرت الفتاة، هي من كانت معي ساعة ذهابي للفرن، شيماء اسمها ابنة العجوز، حكتْ لي أنها حملتني مع والدتها لهذا المكان بعد أن انتشرت العصابات في الحي، يقتلون كل شيء يدب على الأرض، الفتيات الجميلات كعكة تأكلها حيوانات على شكل بشر، إلى أن تنفد ثم ترمى للموت، علي أن أغطى رأسي، أرتدي ثيابا واسعة وأُلوثُ وجهي بعد الزيوت العطرية بالرمل والطين، أشوه معالم جمالي حتى لا أفقده كما فقدت سورية جمالها. أخرجتْ من كيس صغير كان معها ثوبًا وحجابًا.

– لست مسلمة. قلتُ لها ودموعي لاتزال تذرف.

– كُلنا على دين الإنسانية الآن يا... ما اسمك؟

– بيسان، بيسان الحزينة يا شيماء.

* * *

صوت أنثى تخلل مسامعي فيما كنت بين النوم واليقظة، لم يوقظني سوى لمس أناملها لذراعي، فتحت عيني على وجه سيدة نحيفة، متجعدة الجبهة، مبتسمة. وصلنا ولم يبق إلا أنا في الطائرة. ابتسمت لها ابتسامة أشبه بالعبوس لحظة استيقاظي. قمت لآخذ حقيبتي الصغيرة فلم أجدها! تلمست هاتفي الغبي في جيبي، اختفى أيضا! سُرقت لحظتها، اليد لم تطل جواز سفري وبطاقتي البنكية التي في الجيب الخلفي لبنطالي، أخبرت المضيفة، بحثت معي ولم تجد شيئا، أكدت لها أن حقيبتي سرقت وهاتفي، لا بد أن من كان قربي هو السارق، تقدمت ببلاغ لأمن المطار الذين وعدوني بالبحث عن السارق من الغد، أرشدوني إلى فندق قريب من المطار، ذهبت إليه بسيارة أجرة، منحت السائق عشرين دينارا كويتيا كانت في جواز سفري، خمس دقائق قضيتها معه مُحاولا أن أقنعه أنها أكثر من الثلاثين دولارًا التي يريدها، لم يأخذها فدخلت إلى الفندق وطلبت من الموظف بالإنجليزية أن يسحب من البطاقة المصرفية مبلغا زائد على أجرة ليلة حتى أمنحها للسائق الذي رفض أخذ عملة دولتي.

-لا تاكل هم. قالها.

سوري هو! لم أصدق أنني وقعت على من يتكلم العربية، ذهب وأعطى السائق أجرته ثم عاد إلي لأسرد له قصة سرقتي في الطائرة وعلامات التعجب بادية على جبينه! قضيت ليلتي في فندق متوسط الحال لسريره كلما انقلبت صرير ينبئ بشيخوخته.

قمت صباحاً على ضوء الشمس الذي تخلل النافذة الزجاجية، وضعت يدي لأستر عيني من الضوء الساطع، تاركا عليهما الظلال كقصتي تماما حين لم أنتبه لانحناءات الرحمة في طريقي وأحببت السير وراء الظلام.

معدتي تنبئ بجوع بَدني بصوت متقطع، أشبه بصوت طقطقة درج الفندق عندما نزلت، لم أجد الموظف الذي استقبلني، مناوبته انتهت منذ ساعة كما أخبرني زميله الذي يتقن الإنجليزية. غرفة الاستقبال صغيرة، مفاتيح للغرف يستخدمون وليست بطاقات ممغنطة. أرشدني إلى مكان جهاز الصرف الآلي وبقربه مطعم صغير، سرت حتى وجدت جهاز الصرافة، كبست على زر مئة ليرة، لا عِلم لي بقيمتها مقارنة بعملتي، رُبعها قام بسد جوعي وزاد حين طلبت الفلافل والحمص والمتبل، كم هو شهي طعامهم، زاده لذة خبز التنور الحار

والشاي المركز. عربي هو النادل الذي قدم لي الطعام، أطلعني أن المئة ليرة تساوي خمسة وثلاثين دولارًا أمريكياً، حسبتها في رأسي تقابل أحد عشر دينارًا كويتياً. سأجد محل هواتف خلف دوار المحكمة الذي يتوسطه تمثال لشخص لا يعرفه رغم وجوده هنا منذ سنة. شكرته على إرشادي ثم ذهبت.

اشتريت هاتفا وشريحة اتصال، اتصلت بغازي الذي صُدم عند سماع صوتي...

أيني؟ وماذا أفعل في تركيا؟ لا يعرف عني أي شيء، أغلق الهاتف بسرعة! إنكاره فاق اطمئنانه علي، خاف من شيء ما!

خمس دقائق حتى اتصل بي أبو دجانة، أخبرته بقصتي فطمأنني أنه سيرتب لي الأمر، علي شحن هاتفي وعدم الذهاب للأمن للبحث عن السارق هي نصائحه لي.

تجولت في المدينة، اضطرني البرد اللاسع لأن اشتري معطفاً ثقيلاً أحسسني بالدفء. انتصف النهار وأنا أتجول منتظرا اتصال أبو دجانة، الغيوم بدأت تحيط بالمدينة العتيقة التي رصفت أزقتها بالحجارة بدل الزفت كما في بلدي، برودة الجو الشديدة ورائحة اللحم المشوي جعلتني أشعر بالجوع،

عرجت على أحد المطاعم، دخان الشواء يغطي منتصفه، قعدت وطلبت كبابا رأيت صورته في القائمة التي قدمها لي النادل، عندما ملأت معدتي عدت لفندقي الذي أضعت طريقه، حرقت ما أكلته بعد أن قطعت ثمانية كيلو مترات تزيد أو تنقص بحثا عن فندقي، مررت على الكثير من الفنادق في طريقي غير أني لم أرغب إلا بفندقي القديم حتى وجدته، مميز هو بطوابقه الأربعة ذات اللون السكري وشرفاته الحمراء، لم أنتبه لاسمه ليلة وصولي، أمعنت النظر في اسمه Yunus Hotel.

دخلت ووجدت الموظف السوري يبتسم لي، جددت حجزي في نفس الغرفة ثم قعدنا في صالة الاستقبال، صغيرة هي، إضاءتها خافتة، سجادها أحمر، ضمت أربع طاولات بكرسيين، تطل على الشارع، نافذتها كبيرة ونظيفة كأنها غير موجودة لولا قطرات المطر التي غطتها حين هطل بقوة، رائحة التربة والنباتات ورطوبة المكان تتسرب معانقة الهواء لأنفي، قدم لي فنجان قهوة تركية، لم أزر أياً من الأماكن التي سألني عنها؟ لا قلعة غازي عنتاب التي لا أحد يعلم من الذي بناها رغم شبهها الشديد بقلعة حلب، لا متحف الفسيفساء الشهير، لا المطاعم التي اشتهرت فيها عنتاب، كثرة اللاءات التي أصدرتها عندما

كان يحدثني أثارت شكوكه حولي؟ خاصة لحيتي الطويلة، نهرته بشدة حين أراد أن يعطيني رقم مومسات جميلات!

نظر إلي، أشعل سيجارته، قمت بعد أن استأذنته بالذهاب، كرهت حديثه وفندقه، استوقفني بلطف، أطفأ سيجارته التي لم يدخنها، يَعلم أنني ذاهب للجهاد، شك في أمري من أول ليلة وصلت فيها، نصحني بعدم الذهاب، ليس هناك جهاد، إنما حرب عصابات، أصبحت سورية كجيفة نهشتها الأسود، مزقتها الضباع، نتفتها النسور، بدأ الدود ينخرها ويعشعش في ما بقي منها. تطلع في عينيْ ثم نظر نحو المطر المتساقط، مكملا حديثة... لستُ بأسد ولا ضبع ولا نسر في نظره لا يكمل...، طلب مني الرجوع إلى بلدي فأنا غِرْ مخدوع مثل الكثيرين من شاكلتي، لن يحل مشكلة البلد إلا أهلها، لا يريد أن تكون بلده مستنقعًا لتصفية الحسابات فتطول رجعته.

– واهم أنت في شأني. قُلتها له ثم قمت، سمعته يقول فيما أصعد الدرج:

– يا عمي ارجع لِبْلادك.

* * *

استيقظت صباحًا على صوت رنين الهاتف، أبو دجانة، أخبرني أن أبو البراء سينسق معي بعد هدوء العاصفة التي علينا. أغلق الخط بسرعة.

- أي عاصفة. قلت!

قمت وأزحت الستارة لأرى ثوبًا أبيض يكسو المدينة، كم هو دافئ هذا الفندق لم أشعر بالبرودة فيه.

احترت في أمري ماذا سأعمل في ظل هذه الأجواء؟

حين نزلت قدم لي موظف الاستقبال كأس حليب كاكاو ساخنا، شكرته وشربت منه، كم هو لذيذ، أحسست بالدفء الشديد حين ارتشفت آخر قطرة فيه، لولا منظر الثلج لخلعت معطفي، خرجت من الفندق قاصداً المطعم وتناولت حميسة لحم دسمة، الطعام لذيذ ساعة البرودة الشديدة.

رن هاتفي... رقم غريب... صوت يخبرني أنه أبو البراء، علي أن أنتظر لحين معاودته الاتصال، إن كان ينقصني المال فسيرسلني لشخص قريب مني ليعطيني ما يكفي حتى ألتقي به.

أخبرته عن حديثي مع السوري، استمع بإنصات وكأن بقربه

أحدًا يستمع لما أقول. طلب مني أن أخرج من المدينة فورا وأتوجه إلى مدينة نيزب التي تبعد عني ساعة جهة الشرق، علَي أن أركب مع سائق أجرة كبير في السن، فقط مئتا ليرة كفيلة بإسالة لعاب أي سائق ليوصلني، سينتظرني أمام الباب الرئيسي للحديقة العثمانية في نيزب عصر اليوم.

بحثت عن سائق عجوز ولم أعثر عليه، بدأت أمشي حتى تعبت وقعدت أمام محل صغير يقدم المشروبات الساخنة، أشرت بإصبعي على حليب كاكاو حين لم تجد الكلمات نفعا في التعامل.

– سيت شيكيلما اسمه. قالها صوت مبحوح خلفي.رأيت رجلا عجوزا يشير على صورة الحليب الكاكاو... إن اسمه بالتركي Süt Şekerleme علي تعلم التركية، هي سهلة قريبة جدا من العربية. قالها.

أخذت كأس حليب الكاكاو الساخن، أصر على دفع الثمن وقعد بقربي، أخبرته أنني من الكويت حين بدأ يسألني؟ هو كردي يتقن اللغة العربية والتركية والكردية، يأمل أن يطول به العمر ليرى دولة للأكراد، هم عرق لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة، بلادهم غنية جدا، أصبحت مقسمة بين العرب والترك.

لم أعبأ بحديثه، أتطلع لعلي أجد سيارة أجرة سائقها رجل كبير كما طلب مني أبو البراء.

نصحني العجوز بأن أعود إلى فندقي قبل اشتداد العاصفة. قام ومشى خطوات، ركب سيارته المركونة في إحدى الزوايا، قمت كالفزع حين رأيت لونها الأصفر، ركضت نحوه، ولم أكمل مشروبي الساخن، طلبت منه إيصالي لمدينة نيزب. بعيدة هي لن يوصلني أحد الآن، بعد العاصفة سأجد الكثيرين. ثم أدار محرك السيارة وتحرك، توقف فجأة! حين سمع أنني سأعطيه ثلاث مئة ليرة.

– اركب. قالها وهو يضرب بيده سقف سيارته من الخارج.

* * *

ليس له إلا بنت وحيدة متزوجة في مدينة كلّس، زوجته توفيت منذ عام، حزن عليها كثيرًا، اسودت الحياة في عينيه بعدها، الإنسان ينسى أحبابه الموتى بعد أن تشغله الحياة. أنا لم ولن أنسى جدي مبارك، الذي مر شهرين على وفاته سألحقه عما قريب إن كُتبت لي الشهادة. قُلتها في نفسي.

بدأ المطر ينزل، مسّاحة سيارته جيدة إلا أن سرعتها لا تتجاوز الستين كيلو مترا، مقياس السرعة يشير إلى أن أقصى سرعة في مقدورها هي مئة وأربعين كيلو مترا في الساعة، كم هي قديمة، لا أحب أن أسأله حتى لا يفتح لي قصة طويلة لن تنتهي حتى وإن دُرنا حول الأناضول.

الأكراد طيبون مسالمون، ما تناقلته وسائل الإعلام عنهم بأنهم لا يحبون التعايش مع اللاجئين السوريين غير صحيح، أغلب الدول تخلق المشاكل دائماً لتستفيد منها لمصالحها الشخصية، ضحيةُ تلك المشاكل هم المسالمون، الساسة يؤججون النار ويسكبون عليها الزيت وبيدهم مطفأة الحريق، مسيطرون هم على الوضع. أُجاوبه بإيماءة من رأسي لعله يُسرع قليلا لأصل قبل الليل، الساعة تشير إلى الواحدة مساء، سرعته بدأت تصل للأربعين، اعتذر حين خفض السرعة بسبب

قوة المطر مع أن الرؤية واضحة تماما، ما سلاني هو رؤية المروج الخضراء والبيوت الجميلة المترامية هنا وهناك، كل بيت بقربة عمود إضاءة صفراء، الغيوم تكاد تلامس الأرض، ليست كغيوم وطني من يراها يظن أنها هاربة عن أرضنا من شدة بعدها، توقف فجأة! عندما رأى فتاة تؤشر، نصف شعرها يغطيه حجاب، حاملة سلة على رأسها، قميصها أخضر ضيق أبرز معالم جسدها النحيف، وتنورة واسعة سوداء. اعتذر مني حين توقف لتصعد معنا، لم أقدر أن أعترض عليه لكي لا أكون أقل نُبلا منه ونحن العرب مشهورون في نجدتنا، يبدو أنها شكرته بالتركية أو الكردية، فتاة سمراء، جميلة الملامح، بدأت تحدثه وكأنني سمعت اسم الكويت من خلال حديثهما، أحسست وكأنه رفض أمرا ما طلبته منه، صمتت دقيقة وقالت جُملة جعلته يضحك فجأة! هازًا رأسه بالنفي.

بعد بُرهة توقف عندما أشارت إلى أحد البيوت، وهو يضحك ويهز رأسه، فتحت الباب وقبل أن تنزل قالت شيئا... جعله يخبط المقود بيده من شدة الضحك ويُلوح بيده لها بأن تنزل، سمعتها تقول:

- تشكُلاش. خمنت أنها كلمة شكراً.

انطلقنا ومازال يضحك ويهز رأسه. هذا الشاب وسيم ويبدو أنه لم يَذُق طعم النساء منذ زمن وأنا مستعدة لأن أُقدم له الدفء الآن مقابل مئة ليرة. نقل لي ما قالته. شاركته الضحك وأضحكني أكثر عندما أخبرني، أنه قال لها بأن الشاب على عجل من أمره ولا يبحث عن دفء جسدكِ. ردت عليه: إذًا أنت سأرجعك شابًا من جديد، أنا ماهرة في التعامل مع المسنين مقابل خمسين ليرة. وعندما نزلت قالت: سأمنحكما الدفء كلاكما مقابل خمسين ليرة.ضحكت وقتها كثيرًا، لم أضحك منذ وفاة جدي كما الآن، حقيقة أن السفر يجتث الأحزان.

سُرعان ما ندمت على ضَحكي على تلك الفتاة، لم تقدم دِفء جسدها للغرباء إلا لفقدها لِدفء الرخاء، يوم ماطر وقفت فيه تحمل سلة لا أعلم ما فيها، ربما فضلات طعام جمعتها لأسرةٍ مستها الفاقة، ليس هناك أعز على الإنسان من جسده فهو حدود كرامته وإنسانيته، فتاة لم تتجاوز الخامسة والعشرين إن صح تقديري. أخبرت العجوز بما دار في نفسي، عَض على شفته السفلى وأصدر صوت ضُراطٍ طويل، لم يعبأ لها هي في نظره فتاة لعوب، تحب المال كغيرها من الفتيات.

لم يَرِقّ قلبهُ كما رَقّ قلبي لها، سألت نفسي ما الفرق بيني

وبين رجل عجوز عركتهُ الحياة لا يحن للآخرين لا يشعر بمعاناتهم؟ لِمَ لم ينظر لها وكأنها ابنة له وهو أب أحس بالأبوة؟ تَساؤلي قادني لأن أسأل نفسي:

هل من الغباء أن نستشعر هموم الآخرين ونقدم لهم يد العون أم أن إنسانيتنا تتفاوت درجاتها، إن عَلت فإلى الكمال الإنساني وإن انحدرت فإلى الانحطاط البهيمي.

وصلت لحديقة نيزب العثمالية أمام بابها الرئيسي، المطر ينهمر بشدة وصوت أذان العصر يدوي من المسجد القريب منها، نقدته أجرته ومنحته خمسين أخرى على شرط أن يبحث عن منزل الفتاة ويوصل مئة ليرة لها، ابتسم لي وقال:

- إي كالب...

ترجمها لي بالعربي «قلبٌ طيب»، سيوصل الأمانة بإذن الله، وعد قطعه على نفسه، قلقٌ علي، هل هناك من ينتظرني هو لا يرى أحدا؟

طلبتُ منه ألا يقلق ولينصرف مصحوبًا برعاية الله. صافحني وحضنني مطبطبًا على ظهري، رأيت سيارته تخترق المطر حتى أخفتها قطراته المتساقطة.

بحثتُ عن أبو البراء، لا وجود له، ذهبت للمسجد، وجدت ثلاثة أشخاص يصلون. بعد أن سلمت قعدت أُسَبح، اقترب مني رجل أحمر البشرة، ممتلئ الجسم، يتهادى في مشيته، لحيته صهباء، سلم وقعد يسألني من أين أنا؟

أجبتهُ عن أسئلته. يُحب الكويت، أهلها طيبون، حتى حكومتها يدها طويلة بفعل الخير لجميع البشر، ينقصها أن تطبق شريعة الله التي استبدلتها بقوانين وضعية. لغته العربية ركيكة يبدو أنه أجنبي.

– هيا بنا يا ضياء لقد تأخرتَ على الجماعة هم ينتظرون قدومك.

فاجأني حين نطق اسمي بلغته الركيكة وأن الجماعة تنتظرني! خَرج من المسجد وانحنى ليرتدى حذاءه العسكري وأخذ بربط خيوطه ناظرًا إلي:

– أنا أبو البراء يا ضياء لا تخف. قالها.

* * *

بدأت الغيوم تنقشع كلما اتجهنا جنوبا، عبرنا طريقا ذا مسار واحد بسيارة دفع رباعي حديثة من نوع الباجيرو، أطلعني عن اسم الشارع ، كركميش نسبة لمدينة كركميش الحدودية، مشهورة في كتب التاريخ حيث انتصر البابليون بقيادة بختنصر على الجيش الآشوري والمصري المتحالفين، كما ستنتصر جماعتنا بإذن الله على أعداء الله. آمين أتبعتها بعد دعائه بالنصر.

شرع بتعريفي على المكان؛ الذي تراصت فيه الحقول الخضراء وملأته أشجار الحمضيات والفستق، نهر الفرات يمر عن يسارنا، منحدرا من جبال ضروس! استدرك خطأه وعدله جبال طوروس في شرقي الأناضول، له عام منذ أن اعتنق الإسلام، ألماني يبلغ من العمر السابعة والثلاثين، درس تاريخ المشرق في بلاده، مما جعله يغرم بالحضارة الإسلامية.

حاذينا نهر الفرات، مركز كركميش عن يميننا، يبعد خمسة كيلو مترات، طلب أن أناوله هاتفي فأخذه وكسره بعد أن أخرج الشريحة وقذفها هي والهاتف، جواز سفري وبطاقتي المصرفية كان مصيرهما التمزيق أيضا. هويتي الدنيوية انمحت حين أقبلت على خوض الجهاد لأنتقل إلى هويتي الحقيقة في

الجنة. كما يقول.

خيم الليل علينا حين توقفنا عند جندي تركي، ناوله أبو البراء ظرفا صغيرا أزرق ثم سمح لنا في العبور، اجتزنا وسط حقول عرانيس ذرة لمستُ ورق أحدها حين أخرجت يدي من السيارة، كانت أنوار السيارة مطفأة وأبو البراء يرى من منظار ليلي ملتصق برأسه، طريق وعر مررنا عبره بين مستنقعات وحجارة، اقتربنا من مدينة جرابلس. هي كركميش الحقيقية التي حدثت فيها المعركة، جماعتنا في بلدة الحلوانية ناحية الغرب منها، ليست بعيدة. كما ذكر.

سرنا حتى توقف وأطفأ المحرك، نظرت إلى السماء، رأيت جمالها لأول مرة في حياتي، النجوم قريبة جدا، الصمت حضن المكان، ظننت أنه لو مرت نملة لسمعنا دبيبها، سكونٌ تام وكأن كل ما حولنا يتنصت علينا.

أخرج أبو البراء قداحه، رفع يده خارج السيارة، قدح ثلاث مرات، بعد برهة خمس مرات سريعة، لحظات قليلة انتظرناها حتى صُوّب علينا شعاع ليزر أخضر، أدار المحرك، تقنع منظاره، انطلقنا نحو مصدر الشعاع، ثلاث دقائق حتى وصلنا إليه، سمعت تكبيرًا وترحيبا باسمي، لا أرى إلا أشباحا.

نزلت من السيارة ورأيت عدة أشخاص يتقدمون نحوي، بدءوا يحتضنونني، يحمدون الله على سلامتي وهدايتي إلى طريق الحق!

صوت غليظ أبعدهم عني، يبدو أنه أميرهم، احتضنني، لهجته مصرية... ضياء الدين هو اسمي. كما قال. يتفاءل بالأسماء التي كاسمي. عِـميشٌ اسمه، أمير سرية سيف الحق التابعة لجيش القرآن، غدًا سيعرفني على أفراد جماعتي وأرضهم التي ملكوها مؤخرًا، علي أن أرتاح الآن. ثم أمر أحدهم بخدمتي.

أيقظني أحدهم، يريد أن يُؤْجر حين أُؤدي صلاة الشفع والوتر قبل الفجر، أحضر لي إبريق ماء حين خرجت من غرفةٍ لم أتبين معالمها بعد، هواء بارد جدا لفح وجهي وجعلني أرتعد، توضأت، الماء كان فاترا، ما إن غسلت وجهي حتى انتبهت لأصوات خافتة حولي، قِراءة آيات من الذكر، تكبير، ركوع، سجود، جماعتي تقوم الليل فُرادى، كلٌ يبعد عن الآخر مقدار خمسة أمتار، صليت الشفع والوتر، دعوت الله أن يتقبل عملي ويغفر لي ولجدي.

أذن المؤذن... صلينا الفجر... إمامنا عِميش صوته أجش. بعد الصلاة مكثنا نُسبح ونتلو الأذكار حتى أشرقت الشمس،

ثم قاموا وبدأوا يتحدثون ويمزحون، ملامحهم بدأت تتضح حين سطع النهار، أحدهم اقترب مني وقدم لي كأسًا من الشاي، سمعت أحدهم يناديه بِقِرشع! فذهب إليه مسرعا يتخبط فيما كنت أرتشف الشاي، أخذت أتطلع إلى ما حولي، بيوت متفرقة خالية، غير بعيدة عنا بيوت صغيرة متلاصقة، جميعها من طابق واحد.

بلدة الحلوانية حررناها من جنود الشيطان وهي أرض مسلمة الآن. قال عميش بعد أن توقف بجانبي وهو يتناول قدح قهوة أشم رائحتها. استشهد منا أربعة فيما قَتلنا أحد عشر منهم وأسرنا عشرين ألحقناهم بزملائهم. استغربت منه! كيف يطلق سراحهم، لم أفهم قصده؟ حتى ضم أصابعه الخُنصر والبُنصر والوُسطى، وفَرج بين الإبهام والسبابة على جبينه وكأنها مسدس ثم أبعدها بسرعة قائلاً:

– ما فيش أسرى يا طياء الدين. قالها ثم مَطّ شفتاه لترسم ابتسامة عريضة على وجهه.

عِميش في العقد الخامس من العمر، طويل، ضخم المنكبين، غليظ اليدين، لحيته قصيرة خشنة وكأنها شوك متشابك، شاربه مصيره الحصد كلما نمى، حاجباه مقترنان سميكان، صغير

العينين، ضخم الشفتين، واسع الفم، إذا ضحك ترى ضرسيه العلويين الأيمنين الذهبيين، بنيته كالمصارعين مع أنه لم يدخل ناديًا رياضيًا كما زعم لي. جماعتي تعدادهم ثلاثة وسبعون شابًا، أغلبهم عرب والبقية من أوربا وآسيا الشمالية، التونسيون أغلظهم طباعًا والشيشان يمشون حفاة، يرون أن أرض الشام أرض مباركة لا ينبغي أن تدوسها الأحذية!

بدأتُ تعلم الرماية على سلاح كلاشنكوف، ذُهل عميش حين أصبت الهدف الأول! حظ مبتدئين. قال.

ابتسم حين لم أصب الهدف الثاني. مؤكداً مقولته. اندهش حين أصبت الهدف الثالث والرابع، أصبت يومها أربعة عشر هدفاً من أصل عشرين، مما جعل عميش يقرر إنزالي للميدان وأن أكون على رأس أول من يهجم على مدينة منبج حين تأتيهم الأوامر، فرحت بالخبر، ها هي الشهادة على الأبواب، أحببت أن أخبر أبو البراء، لا أثر له، أين هو كان سؤالي؟

– دوره فقط ينطوي على جلب المجاهدين وتوزيعهم على السرايا والكتائب. كان جواب عميش لي.

* * *

قضيت أيامي معهم في طاعة وعبادة وتعلم على السلاح ورمي القنابل اليدوية والمصارعة، عميش كان البطل دائماً، حتى أن أربعة لم يقدروا عليه، أخبرني يوما أنني غير هؤلاء الذين معه، يراني شخصا مميزا لا يعلم كيف؟ فقط يقول:

- إنتَ شَبْ مِفَتَحْ.

التدريب اختصر لي الوقت في معرفة أفراد جماعتي أكثر، الكل كان يُهنئني على الهداية، حين يشاهدون التلفاز من أجل الأخبار يعتمون لونه حتى لا يروا المتبرجات ويوضحونه إذا تحولت الصورة عنهن. يرون أنهم المسلمون الحقيقيون والبقية ضُلال، يجب هدايتهم ومن أبى يُحكم عليه بحكم الردة!

الربا والقوانين الوضعية ما لجم اعتراضي على فِكرهم، كيف ارتضته دولنا، بل كيف عَملت بالقوانين الوضعية دون الاحتكام لشرائع القرآن، شعوبنا الإسلامية قبلت تلك القوانين ورضيت. هم ضُلال فعلا كما قالوا.

استمرت جماعتي في بث أسباب مناهضتهم للدول التي تحكم المسلمين، الحُكام ارتضوا الهوان وتركوا الجهاد راكنين للدنيا، رعاياهم أطاعوهم على فتات يقدمونه لهم فيما

هم يستأثرون بخيرات الأرض، فُساق الشعراء تغنوا ببطولاتهم الوهمية المنطلية على السُذج، ليس للحُكام دين سوى دين سلطتهم، يميلون مع كل ما يبقيهم عليها. اقتنعت بمنطقهم وتفتحتُ عينيْ على حقيقة حُكامنا وشعوبنا، عبدالله ضال، أبو شعرة أَضل منه يجاهر بالفسق والفجور، توقفت عند صورة جدي عندما عرضتها الذاكرة، هل كان ضالاً أيضًا، لِمَ لم يتخذ طريق الجهاد بدل العيش مع الضُلال؟

أغلب جماعتي طيبون جدا وصالحون، لم أكن أعلم وقتها أن للإنسان وجهين، نحن من نحدد أي وجه نريد أن نراه. عندما أقابلهم بالابتسامة كانوا يبتسمون، وافقتهم على فكرهم وما يرونه صالحا للمسلمين، الشهادة في سبيل الله كانت هدفي حتى ألحق بجدي، لست مهتما لأمر الأمة مثلهم، قَدري هو من قادني إليهم من غير اختيار مني لهم بالذات.

الأيام وحدها كشفت لي عن حقدٍ دفين في أنفسهم، لمسته من خلال أحاديثهم كان هو الدافع لجهادهم، كنتُ على النقيض تمامًا عنهم، الحب هو دافعي للجهاد.

الحُب رأس كل خير والكُره رأس كل شر، كلمة سمعتها من أستاذ التاريخ بديع، عندما استرسل في حديثه فيما كنا في السجن ... أن جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم كان دافعه الحب للبشرية، لتخليصهم من شراك الشيطان وتعريفهم على الدين القويم، الجاهل طفل يكره الدواء المُر الذي فيه خلاصه. كان العرب أمة مفككة لا هدف لها قبل الدعوة للإسلام، كره مُعظمهم ترك عادتهم حتى أرهبتهم قوة الإسلام ثم تمسكوا فيه عندما وجدوا حلاوته وصلاح حالهم، وإلا لكان الإسلام انفرط مع مضي العقود والقرون.

أستاذ بديع هو من صَفى فكري وأراني الحقيقة، وأنت من انتشل روحي من الضياع وطريق الهلاك، كم كنتُ تائها في دهاليز متاهة الفِكر الضّيق قَبل أن أرى نجمُ حبكِ يرشدني إلى طريق الحياة، إلى جنة الحب.

عميش اتخذني ساعده الأيمن، يراني كفأ للمنصب، وحقيقةً رأى مني شخصا مندفعا للموت وأفضل ترسانة بشرية يثق فيها.

الدروس، المحاضرات الدينية، التدريب على حمل السلاح، التنسيق فيما بين جماعتي، وحدها التي جعلت الأيام

والليالي تتسارع، بدأ قلبي يقسو من شدة الخطاب الديني الذي حمل صفة الكراهية وأُلصق بهتانا بالرحمن الرحيم.

بعد خمسة أسابيع من وجودي بدأت أولى معاركي الجهادية، حين أعلمنا عميش أننا سندلج منتصف الليل لفتح مدينة منبج، أتته الأوامر بذلك. كان البرد شديدا، إلا أننا لم نشعر به عندما وجدنا دافعاً محفزاً لأنفسنا، الجميع أحيا ليلته في صلاة القيام وتلاوة القرآن بعد أن أدينا صلاة العشاء.

انطلقنا بعربات جديدة، علتها البنادق الآلية الخارقة للمدرعات، عشرون مركبة سارت خلف بعضها البعض، ساعتان قضيناهما على الطريق الصحراوي، حتى شممت رائحة الرطوبة والحشائش، الليل يحول عن رؤيتي للمكان، كنا في صحراء ثم دخلنا إلى أراض زراعية، أخبرت عميش القاعد أمامي في السيارة حول تخميني للمكان. يُصدق على قولي بأن أمامنا نهر الساجور وسنتوقف أمام بلدة الدادات للتنسيق. ثم التفت إلي بوجهه الضخم وجبهته السوداء من أثر السجود الطويل، هي أوضح شيء في وجهه تلك الليلة.

– مِش أُلتِ لَكْ إنك شَبْ مِفتح. قالها وضرساه الذهبيان باديان إثر ابتسامة مشوهة.

سمعت صوت أذان الفجر ونحن نعبر بلدة الدادات، أحد سكان القرية لوح بيده لنا، إشارة بتأييدنا، الأسلحة التي نحملها كفيلة بترويع الآمنين، كانوا مؤيدين أم رافضين لنهجنا، ابتعدنا عن البلدة ثم سلكنا طريق جرابلس جنوبا نحو منبج، عندما لاحت لنا أضواؤها من بعيد توقفنا لأداء صلاة الفجر.

صعدت فوق حوض السيارة أنظر نحو المدينة بعد أن أدينا الصلاة، عميش يسألني عن سبب نظري للمدينة؟

- كنت أتوقعها صغيرة كالدادات، كيف لجماعتنا أن تحررها من العدو؟

ضحك عندما أجبته، ثم تحدث مع أحدهم عبر الجهاز اللاسلكي الخاص بالجيش، أخبره أننا سنكون في موقعنا بعد عشر دقائق. لم نكن وحدنا من توجه إلى منبج، بل هناك غيرنا.

سارت المركبات، وعندما أشرفنا على منبج مقدار كيلو متر توقفنا، بدأت المركبات تأخذ مكانها بشكل متواز، كل مركبة تبعد عن الأخرى مقدار مئة متر، سمعت قصف مِدفع، تلته نار أضاءت وسط المدينة ودخان خالط زرقة السماء، ثم بدأ

صوت الرصاص يملأ المكان، لا أعلم من أي اتجاه، انفجارات في كل مكان في المدينة رأيتها، عندما أشرقت الشمس رأيت عدة أشخاص متفرقين ينطلقون صوبنا، بدأت جماعتي في حصدهم، عميش يأمرني أن أطلق النار عليهم، ترددت حين رأيت أن بعضهم مدني والآخر عسكري، كانوا هاربين بلا أسلحة، جماعتي لا يميزون بينهم كرصاصاتهم لا تميز بين خير أو شر، عميش يغلظ علي القول بأن أطلق النار. أطلقتها ويدي ترتعد وأنا لا أعلم هل هو من البرد؟ أم من الارتباك؟ أو خوف ألم بجسمي؟ دون قلبي الذي لم أسمع نبضاته تتسارع.

أطلقت الرصاص بعشوائية دون تمييز، رأيتهم يتساقطون ومن سَلِمْ استسلم لنا، توجهت مركباتنا نحوهم وحاصرتهم، أربعة جرحى وخمسة لم يمسسهم سوء، ربطنا أيديهم وأمرنا عميش بإطلاق النار على رؤوسهم، مرددا أننا لم نؤمر بإبقاء الأسرى أحياء. اندفع أفراد جماعتي لتنفيذ أمره وكأنهم عطشى يتدافعون نحو الماء، خصني عميش بأحد الأسرى لأقتله، هم ليسوا مسلمين إنما مرتدون وكفرة وواجب علينا قتلهم، ولكي يشتد قلبي ولا أجبن. كان تبرير عميش الذي أخرج مسدسه وأمسك يدي.

وضع يده فوق يدي، وإصبعي على الزناد، وفوهة المسدس على رأس الأسير الذي زاغت عيناه وفقد النطق، إصبع عميش يقترب من إصبعي ليضغط على الزناد، ضغطت عليه دون مساعدته، مما جعل عيناه تُبحلقان في بدهشة! فيما خر الأسير صريعاً.

حقيقة لا أعلم كيف ضغطت على الزناد؟ هل تحولت إلى قاتل؟ أم أن تبرير عميش هو ما دفعني دون أن يرف لي جفن؟ أم أن الإنسان إذا اسودت في عينيه الحياة لا يفرق بين حق وباطل؟ لا يكترث لشيء في الدنيا إذا أراد الخلاص منها؟ عميش استعاد مسدسه وهو يقول بإعجاب:

- عفارم.

* * *

قضيتُ ليلتي في أحد الفنادق التي فر صاحبها لتصبح سكنا مؤقتا لجماعتي، السُّهاد احتضنني، كلما أغمضتُ جفنيْ رأيت صورة الرجل الذي قتلته وكأنها طبعة على جفنيْ من الداخل حائلة بيني وبين النوم الذي فقدت لذته. أخبرت أبو الريان وهو سعودي كان شريكي في الغرفة. لا تهتم ستعتاد على ذلك عند قتلك لآخر وآخر، نحن نعيد للأمة أمجادها، نحررها من رق الأعداء الذي أوهنها. قالها وغط في نوم عميق غَبطته عليه.

جماعتي في داخلها الرحمة ومن خارجها العذاب، الاستقامة والصلاة والرحمة فيما بينهم جلية لا تتعدى لغيرهم إلا لمن يتبعهم ويرضخ لحكمهم. حاكم المدينة الآن هو شقيق عميش، قائد جيش القرآن، جيشه منتشر في كل نواحي منبج، ليس له اسم سوى كنيته أبو النار، سمعت أن الرحمة لا تعرف طريقاً إلى قلبه على أعدائه أو من خالفه، يتفنن في طرق قتلهم وسبي نسائهم حتى وإن كانوا مسلمين، مَثله وقدوته مسلم بن عقبة الغطفاني؛ القائد الذي استباح المدينة المنورة حين خلعت بيعة يزيد بن معاوية، سنة ثلاث وستين للهجرة. كما أخبرني عميش حين ذهبت إليه أسفل الفندق ليلتها.

قضينا أسبوعاً في منبج، كانت من أطول الأسابيع في حياتي،

لم أذق طعم النوم إلا سويعات، بعض أفراد جماعتي اشترى سبايا من بعض الجماعات الأخرى التابعة لجيش القرآن، ناولني عميش خمسمئة دولار نصيبي من احتلال المنطقة، رفضتها، لم آت للتكسب أو سبي النساء. قلتها له.

هذا ما يعجبه فيّ، مُميز أنا في نظره. أجبرني على أخذ المال، فدسسته في جيبي.

شعرت بالراحة حين تحركنا صباحا لتحرير بقية المناطق، بعد أن بقي أبو النار في منبج، مررنا ببلدات زراعية ورأيت الخوف في عيون أهلها، جب الثور وطوق الخليل ومقطع البوغيث والمقبلة وزعرايا أسماء البلدات التي عبرناها، حتى توقفنا في بلدة تل السوس التي التحق منها عناصر من جماعتي، مهمتهم تمشيط الأرض قبل أن نأتيها، سوريون ثلاثة لم ألتقهم إلا آنفا، باشروني بالترحيب والسلام وحمد الله على هدايتي.

رطوبة المكان دفعت برودة الجو عنا، السماء ملبدة بالغيوم منذرة بهطول المطر، الشمس بدأت تغيب، وصوت عميش يأمرنا بالمبيت في البلدة، مكثنا في مزرعة شمندر في بيوت صغيرة، أعدها لنا السوريون الثلاثة، ذبحوا ذبائح وطبخوها مع الأرز، رائحة الطهي اقتحمت أبواب شهيتي المغلقة منذ أن

قتلت الأسير، عهدي بالأرز عند أبو دجانة، حين تناولت منسفه اللذيذ.

بعد العشاء فيما كنا نتناول الشاي، سمعت أحد السوريين ويدعى علاء القرفاطي يُطلع عميش أن هناك عائلات نزحت من مدينة السّلمية إلى بلدة دير حافر، تدعي الإسلام وفي حقيقتها تعبد فرج المرأة. سأله عميش باهتمام ملحوظ عن معرفته في أماكن هذه العائلات؟ أجاب وهو يُرجع رأسه للوراء ويفرد صدره للأمام:

- لَكان.

وقفت ليلتها أتطلع في البستان وأنوار البيوت الصغيرة المتفرقة البعيدة، صوت الصرصار جعل للمكان ضجيجًا مميزًا، المعطف الرمادي الذي اشتريته من عنتاب حمى جسدي من البرودة، اقترب علاء مني وناولني كأس شاي ساخنا، يظن من يراه أنه سينفد من شدة تبخره، الضوء الخافت خلفنا من مقر إقامتنا عكس ظلالنا على الزرع.

- هم قوم ينتمون لديانة قديمة جدًا، يعبدون فرج المرأة. جواب علاء حين سألته عن عبدة الفرج؟

يعتبرون الأماكن الحساسة عند الأنثى مقدسة، حين تبلغ الفتاة يأتون بها عارية تمامًا ويقعدونها ويجثون على ركبهم مقبلين فرجها ويقولون:

- يا معبود، تلك أيام السعود، قطعنا لك كل العهود.

وإذا مات أحدهم يأتون بامرأة عجوز عارية ويمررون الميت بين ساقيها ويقولون:

- يا معبود منك خرجنا وإليك نعود.

عميش الذي وقف خلفنا ولم ننتبه له قال:

- العاجوزَ ما ليش فيها... أم العَيّلة لي فيها شغل تاني. ضحك هو وعلاء وسط دهشتي من أُناس تعبد الفرج!

لأول مرة في حياتي أسمع عنهم، لم أكن مصدقاً ما سمعت، ربما في الأمر مبالغة، حين أستذكر بني إسرائيل وعبادتهم العجل رغم وجود موسى بين أظهرهم وتخليص الله لهم من فرعون بعد أن شق البحر ليغرق عدوهم، لا أستبعد على الإنسان إذا اتبع هواه أن يعمل عَملًا يخل بإنسانيته التي تميزت بالعقل دون سائر المخلوقات الدنيوية.

غلبني الإرهاق تلك الليلة ونمت نومًا عميقًا. رأيت عميش صباحًا، لا أظنه نام، السهر ترك آثار على جفنيه، متلهفا للسبي من الوثنيين، دِفاعا عن الدين وفي رأيي أنه دافع لشهوته المتأججة حين سمع حديث علاء.

سرنا، اخترقنا بلدة دير حافر، الجيش والشرطة هربوا حين احتلت منبج، قادنا علاء لبيوتهم، طوقناها وأخرجنا منها الرجال من البالغ إلى العاجز، أحسست بإنسانيتي نحوهم، يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله. كاذبون في نظر عميش وجماعته، لا يقبلون منهم هذا القول، قادوهم بعد أن ربطوهم إلى ساحة كبيرة، كانوا أكثر من خمسين شخصًا، أطلقوا النار على مؤخرات رؤوسهم، قتلت رجلا مُسنا ساعتها. يهون على المرء فعل الفظائع في ظل جماعة ولا يجرؤ عليها وحده، المرء لا يرى سوء عادات مجتمعه حتى يبتعد عنهم، حينها يرى من بعيد ما كان يفعله من قبيح فعل معهم.

دخلنا البيوت وجمعنا النساء والأطفال في بيت فسيح، طلب علاء من عميش أن يختار من السبي، سمح له، فذهب فورا لبنت اختارها مسبقاً، بدأ لي أنه كان يخطط للانتقام منهم حين سمعت صوت الفتاة تصرخ بكرهه. لن تكون زوجة له. قالت.

– بِدك اتكوني شغالة لي مِش زوجة يا فلتانه. قالها وهو يصفعها بكفه ويجرها من شعرها وسط عويل النساء.

علاء خطط لهذه المجزرة، شككت في كونهم عبدة فرج حقاً، لا دليل على ذلك، عميش يبحث عن أي خيط شك ليستبيح البشر. جعلني أختار مُرغماً من السبي، من أوائل من يختار، اخترت دون أن أمعن النظر فيهن، صغيرة كانت، سمراء محجبة، تبكي بحرقة. غرفة صغيرة جمعتني بها في أحد البيوت، عميش أخذ ست فتيات جميلات، سمعت صراخ إحداهن فيما كنت أمر أمام بيته الذي سكنه. فَزعتْ أمَتي حين دخلت عليها، استلقيت على الفراش فيما انحشرت في ركن الغرفة، السماء ترعد والمطر اشتد نزوله، حتى إن سقف الغرفة لم يحمنا من قطراته، طُرق الباب ففتحته، قِرشع أحضر لي خبزًا وجبنا ومشروبا غازيًا وقنينة ماء كبيرة، قعدت لآكل ودعوت الفتاة التي رفضت، قمت وأحضرتها بجانبي، ارتعدت من الخوف، أشفقتُ لها وأقسمت إنني لن أفعل بها شيئا، أكلتْ قطعة خبز مرغمة وشربت قليلا من الماء، مع مرور الوقت بدأت تتكلم عندما ارتاحت لي.

هل ستقتلون كل الأقليات التي تَدين بِمعتقدات غير

مُعتقدكم؟ عشنا في هذه الأرض منذ مجيء الإسلام فلم يُجبرنا القائمون على شؤوننا على ترك معتقدنا، هل أنتم أفضل من أسلافكم الذين دعونا لدينهم بالحسنى لا بالقتل والسبي؟. لم أعرف كيف أجيبها فسألتها...

- هل أنتم فعلا تعبدون...؟ لم أرغب في نطق الكلمة فاكتفيت بالإشارة له.

أشاحت بوجهها عني دون أن تجيب، فعرفتُ أن الأمر حقيقي وليس خطأ وقعنا فيه، تساءلت في داخلي هل سنقتل كل من يخالف معتقدنا؟ أم ندعه يحيا بيننا دون إظهار معتقده لعل الله أن يهديه؟

لم تفاجئني فتاتي حين أخبرتني أن علاء كان يعشق كوثر البنت التي لطمها، رفضته حين تقدم لخطبتها قبل الفوضى التي حلت في سورية، راودها منذ سنوات حتى تضجر وجههُ بالدماء حين قبض عليه إخوتها، والدها اختفى منذ اندلاع الفوضى، لم يحمل سكينا ولا بندقية، خرج لكسب رزقه ولم يعد، وها نحن نقتل ما بقي من عائلتها، فأين إسلامنا؟ لم تعهد من المسلمين إلا كل احترام وحسن جوار، نحن خلافهم، حالنا حال المتشددين في كل دين. لم أُجار جاريتي في كلامها

ولم أعترض عليه، استمعت لها حتى غلبني النوم.

لم أر في جفني ذلك الرجل الذي قتلته، ما قاله أبو الريان عن الاعتياد على القتل حقيقي. لكل حالة عليها الإنسان سَكرة، كُنت شابًا وديعًا لم يحمل السلاح يوما، أصبح يحمل السلاح ويقتل، إذا سُوغ الدافع بأمر عقائدي يرتكب الإنسان الفظائع دون تردد، أصبحت شخصا آخر لست ضياء الشاب الهادئ، لن يصدق عبدالله وأبو شعرة قصتي، تعلمت شيئا من تجربتي مع جماعة عميش، أن الإنسان وليد البيئة التي يتطبع بِطباعها، يكتسب لونها وما يُهيئهُ للعيش فيها.

نمت ملء عينَيْ لا فزع يراودني ولا أرق، استيقظت على قطرة سقطت على أذني من السقف المبلول، رأيت الفتاة منطوية على نفسها بقربي، أحسست بشعور يجذبني نحوها كمغناطيسين سالب وآخر موجب هما الرجل والمرأة إن تركا وحدهما، قطع أذان أحد الجماعة رغبتي فيها، كدت أندفع إليها بلا شعور، يغيب عقل المرء في مثل تلك الحالة، الشهوة تغلب العقل إن لم يكن أكبر قوة منها. قمت سريعا وخرجت، صوت الأذان أراحني، توضأت وصليت الفجر مع الجماعة.

عميش مبتسمًا حين تناول البيض المسلوق صباحاً، الأرض

رطبة، السماء صافية، الجو بارد، مدفأة الزيت قامت بتدفئة الغرفة التي ضمت جماعتي، بدأ أحدهم ينشد:

جِراح الأمة الثكلى تنادي

فهبوا يا بني قومي أسودا

أعيدوا للدنا أمجاد عصر

وفلوا بالحديد لنا قيودا.

أطربني المنشد بصوته العذب، سوغ لنا فعلنا وطريقتنا، عدت إلى جاريتي ببعض البيض والشاي الساخن، استوقفني أحد الجماعة يدعى أبو الصارم، يريد شراء جاريتي فرفضت، زاد بالثمن... ألف دولار. أخبرته أنني سأعتقها. ضحك وانصرف. ناولتها الطعام، أكلته بسرعة من فرط الجوع، ولم تفرح حين أخبرتها أنها حرة!

- أين سأذهب بحريتي؟ الظلم في كل مكان حولي. قالت.

لم أهتم لأمرها وانصرفت، توجهت نحو الأمير عميش، الذي أمر بالتجهز لغزو بلدة السفيرة هذه الليلة.

تأهبنا للانطلاق ورأيت عميش يطلب ماءً دافئًا ليستحم. أحب أن يستلذ بدفء جواريه المغتصبات قبل أن ينطلق للغزو.

تحركت المركبات بنا، بعد أن ترك عميش على السبايا عشرة من الشباب عليهم أبو الصارم. دَبّ في قلبي كُره أعمالهم، رأيت منهم هَبلا وعقولا سخيفة، لا يعرفون معنى الحياة والجهاد الحقيقي. تُقت للموت أكثر والموت لم يَتق لي بعد.

التففنا حول سبخة الجبول، متجهين نحو بلدة الرضوانية التي توقفنا فيها منتصف الليل، نزلنا في بيوت خالية وأعددنا طعام العشاء، علاء كان مرشدنا، أعلمني أن سبخة الجبول كانت مستنقعا فيما مضى، وأصبحت بحيرة بفعل معمل السكر الذي بُنِيَ قربها، مياهها الضحلة جذبت إليها مختلف الطيور، مدينة السفيرة مدينة كبيرة وقديمة، كان اسمها شَبرتا وتعني الجميلة، فيها آثار مختلفة على اختلاف الممالك التي حكمتها.

– هل سَنُخلف آثارا مثلما خلفوها حين عمروها؟ أم أننا سنُخلف الدمار فقط؟

قُلتها لعلاء الذي أوصلها بعد ساعة إلى أُذن عميش. وبخني

حين كنا وحدنا، نحن نعمر النفوس التي ستعمر الأرض. قالها.

بتنا ليلتنا، ومع بزوغ الشمس كنا على مشارف الجميلة التي سنحيلها إلى قبيحة. بدأ التنسيق مع أبو النار ومجموعات أخرى، اندلعت النار في المدينة... المتفجرات سقطت في كل مكان، المواجهة أشد من مواجهة منبج. طلبوا منا التدخل ودخول المدينة، دخلنا ورأينا ساترًا عسكريا، بدأنا إطلاق النار عليه، لحظتها طلبت الشهادة حقا، نزلت من المركبة وانطلقت نحو أحد المباني، الطلقات تمر إزائي ومن حولي، استترت بحائط اصطدمت فيه الطلقات ناقشة عليه آثارها، ثم صعدت أحد المباني ورأيت العدو خلف الكمين الذي يعيق تقدم جماعتي، فتحت عليهم النار ففروا كالحشرات، انطلق نحوهم عميش بسرعة البرق وحصد معظمهم برصاص الموت ونجا منه من فر بنفسه، كنت تواقًا للشهادة التي لم تُكتب لي كما كُتبت لي البطولة والشجاعة في أعين جماعتي.

فر العدو من جيش أبو النار وتحصنوا في بلدة خناصر، الأوامر أتتنا بملاحقتهم، سرنا جنوبًا إليها، ابتعدنا عن السهول

الخضراء لنتوغل في صحراء صفراء، وصلناها عصر يومنا، الإنهاك بادٍ علينا، الأوامر تقتضي في الاشتباك لحين وصول القوات المساندة. دخلنا شوارع خناصر، بلدة صغيرة، بيوتها كحجمها، الغبار يتطاير، أكياس صغيرة طارت أمامي فيما كنت أنظر لمركبة سارت أمامنا للكشف، فجأة! شاهدت انفجارها، كرة نار تلتها سحابة عملاقة من الدخان الأسود ثم انهالت علينا الطلقات، نزلنا من المركبات بسرعة واحتمينا بالبيوت، سمعت صراخ النساء وبكاء الأطفال وأصوات الرجال، امرأة أصيبت وهي تركض في الشارع أمامي، عميش يصرخ عبر الجهاز اللاسلكي بأننا محاصرون ونطلب الإسناد فورا. ثم أمر الجماعة أن تتراجع فيما يقوم مجموعة بصد العدو. كنتُ أول المضحين من أجل الجماعة، بدأنا إطلاق النار فيما استطاع عميش ركوب إحدى السيارات والفرار، تبعته سيارة أخرى لم تقطع مسافة أمتار حتى انفجرت أشلاء، فر أغلب جماعتنا وبقيت أنا وخمسة شباب نطلق النار من أحد البيوت، طلبت منهم البقاء فيما أخرج وأسهل لهم الطريق للخروج، ما إن خرجت حتى وقعت عليهم قذيفة، قذفتني في الهواء عدة أمتار، ارتطمت بالأرض، غشاء أسود كسا نظري لحظتها ثم فقدت

الشعور بكياني وبما حولي، الدماء تغطي عينيْ، لا صوت أسمعه، رأيت الأرض تدور تارة وتتموج تارة أخرى، فقدت بعدها الوعي مدة لا أعلمها. صحوت على صوت أحدٍ يركض نحوي، رأيت السماء حمراء وكلاباً تقترب مني وتنهش قدمي لتسحلني، كلب يأمرهم! بأن أُعالج لأُستجوب فأنا الوحيد ممن بقي حياً.

كنت أرى كلاباً فعلًا تسحلني ولا أشعر بأعضاء جسمي، غبت عن العالم والموت يقترب، ها هو جدي أمامي في ثوب أبيض، حاولت أن أقترب منه لأحضنه وأقبله. أمرني بأن أتوقف، الغضب بادٍ على وجهه وهو يقول:

- أمامك طريق حافل، ليس الآن يا ضياء.

* * *

أستاذ بديع

سنتان مرتا على احتضار سوريا ولا أمل أشاهده في الأفق، حمص أضحت دمارا، البراميل المتفجرة انهالت على رؤوس المجرمين والأبرياء، الحياة شبه منعدمة، نزح معظم السكان إلى خارجها وبعضهم خارج الوطن، أقمت مع شيماء وأمها في حي كَرم الزيتون، هم أسرتي الوحيدة بعد أن فقدت الأهل، هي كذلك اعتقل والدها ثم قتل شقيقاها، ما أصابني أصاب كثيرين غيري، تهون مأساة المرء حين تتكرر في كل بيت، مرض شيماء اضطرني إلى الخروج صباحا لإحضار الطعام من أحد البيوت، أخبرتنا امرأة أنهم يوزعونه بلا مقابل، الأيادي البيضاء تنير الليالي الظلماء.

بيوت مدمرة بعضها آيل للسقوط، الحجارة في كل مكان، أنواع القاذورات ملقاة في الطرق، حطام الزجاج يملأ الشوارع ودخان الإطارات المحترقة، البرد القارس جعلني أضم يديْ وأضعهما تحت إبطيْ، أرتدي قميصًا من القطن السميك وبنطالاً ثقيلاً وفوقهما عباءة وحجابا شددته على رأسي، وجهي كساه ما كسا وطني من آثار الدخان والغبار، كنت أخفي

عيني لكي لا ينظر لي أحد كما نصحتني شيماء، تراهما فاتنتين جذابتين ستجذبان الشر لي بسرعة. خطَوت بين الأزقة حتى سمعت صوت حركة! خلف نافذة بيت سقط بعض جدرانه، اقتربت بحذر ونظرت من خلال النافذة المكسورة، أصابني الرعب...

عندما رأيت كلبين ينهشان جثة رجل، اندفعت للخلف فجأة! من أثر الخوف وسقطت، نهضت بسرعة وعدوت، أسمع نباحهما خلفي يقتربان أكثر، الخوف أطبق علي، رأيت باب منزل مفتوحا عن يميني، دخلته وأغلقته بسرعة، سمعت ارتطام أحدهما بالباب ساعة إغلاقي له، بدأا يحفران بمخالبهما الباب الحديدي وعتبته، وضعت يدي على الباب بقوة فيما كان إطاره يهتز بشدة، قلبي يخفق بسرعة كلما نبحا وبدأا بالحفر أو الاصطدام بالباب، لو لم أرهما لظننت أنهما رجلان يحاولان قتلي. بعد مرور وقت طويل رحلا وظللت أدفع الباب وقتًا أطول، حتى أرهقت قواي عندها استدرت ووضعت ظهري على الباب وسقطت على الأرض من التعب، كنت مطرقة برأسي حتى رفعته لأنظر للمكان الذي دخلته، تملكني الهلع ووقع قلبي بين رجليْ حين رأيت رجلاً يتدلى من حبل وقد بان عظم فكه، لم أستطع الصراخ، شُل لساني، زحفت للخلف

بقوة وظهري يدفع الباب، ثم قمت وفتحته بارتباك وهربت، ركضت على غير هدى ودموعي تتطاير في الهواء حتى توقفت في أحد الأزقة وسقطت على ركبتيْ منفجرة بالبكاء.

سمعت شخصا يسألني هل أحتاج لمساعدة؟ هززت رأسي نافية. سمعت آخر يسأله ما بها؟

صوتهُ ليس غريبا سمعتهُ من قبل، رفعت رأسي ورأيتُ خالدًا أمامي، وقفت وارتميت بحضنه فيما رفع يديه عني، لا يجوز ما أفعله يريدني أن أبتعد عنه، احتضنته بشدة أكثر، كنت في أمس الحاجة لحضن رجل، ليس لشهوة إنما للشعور في الأمان، حضن النساء لبعضهن لا يغني عن حضن الرجال لهن. أخبرته أنني بيسان.

قبض على ذراعي وتطلع في وجهي. نعم بيسان... أين عمي؟ أين أهلك؟ ماتوا. قلت له. ثم بكيت وعدت لأحتضنه، عندها وضع يديه حولي وصاحبه يقول:

– ما بيصير هيك يا زَلما.

بعدما أفرغت ما بقلبي من خوف وبكاء دللتهما على جثة الرجل، كان معلقا من يديه، آثار التعذيب بادية على مظهره الذي تقشعر منه الأبدان، تُركت محفظته على الأرض، فتحها

خالد وتعرف على اسمه ثم قام هو وصاحبه بإنزال الجثة ووجدا ستارة خضراء ملقاة، لفاه فيها ثم حملاه حتى اقتربا من أرض فضاء، حفرا حفرة غير عميقة ودفناه ووضعا شاهدًا من الطوب على القبر.

تطلعت في وجه خالد، لحيته طويلة، حاله حال الكثير، لا مجال للتزين في بلد فقد زينته، أعلمته أين أسكن وسبب خروجي. ذهب معي لمكان توزيع الطعام ولم نجد إلا كيس خبز، كنت أنظر إلى خالد سابقا بنظرة الشهوة، الآن أنظر له بنظرة الحماية والاطمئنان، ليس لي غيره سندًا وعونا، سار معي حتى وصلت إلى البيت، دخل وتعرف على شيماء وأمها، لم ينقطع عني ساعتها، يغيب يوما أو يومين ويعود ومعه الطعام، أحضر لنا هاتفًا حتى يطمئن علينا إن احتجناه، نقلنا بعدها إلى عمارة في منطقة الوعر حيث يتمركز هو وأصحابه، لم يعلم أنه سعى في هلاكنا.

لم يمض على انتقالنا أسبوع حتى حاصرت العصابات المسلحة منطقة الوعر، ليبدأ خالد ورفاقه بحفر عدة أنفاق لإخراج المحاصرين.

* * *

لا أعلم لم ساعتها رأيت الناس في منظر الحيوانات؟ ربما اصطدام الرأس بالأرض يريك حقيقتهم، ظننت أنني في القبر لحظة إفاقتي! غير أن القبور لا تحوي مصابيح إضاءتها إضاءة الشموع، أحسست بالآلام المبرحة في كل أنحاء جسدي ورأيت جرذًا يقترب مني وكلما اقترب زاد حجمه حتى أصبح بحجمي، حاولت الهرب منه، جسمي لا يستجيب، سمعت الجرذ يقول:

- لا تخاف يا ابني!

غبت عن الوعي بعدها ساعات ثم أفقت على ماء انسكب علي وضرب متفرقا على جسمي بعصا، صرخت من الألم واستطعت أن أرى رَجلاً نحيلاً يحول بيني وبين جلادي ويتلقى الضرب عني، فقدت وعيي على صوته يقول:

- ما فيكُن رحمة.

سمعت صوتا يتسرب لأذني، يُطمئنني أن جسمي يمتثل للشفاء، فتحت عينيْ، رأيت رجلا مُسندًا رأسي على فخذه، ينظر لي بوجهه الذي ملأه الشعر والوسخ، ابتسم وأخبرني أن اسمه بديع الحمصي وأنني اجتزت المرحلة الحرجة، لا بأس

علي الآن. حاولت النهوض مثل رضيع في الشهر الثالث يحاول الانقلاب. سألني ما اسمي؟ ومن أي بلد؟ ضياء من الكويت.

عجزي عن الحركة وصل لفكري فأجبته على الفور. رغم أن عميش نبهنا بِعدم الإفصاح عن هويتنا فمن يقبض عليه ميت لا محالة. طلب بديع مني أن أحتفظ بهويتي لنفسي، إذا سمعت الباب يفتح فأتصنع أنني مازلت فاقدا للوعي مهما عملوا فيّ، إذا استيقظت سيكون عذابي أشد وأقسى مما أنا عليه، صغير في السن ما الذي أحضرني لهذا الجحيم؟ صمت لحظة، ثم سألني في أي يوم وشهر نحن؟

حاولت أن أتذكر، ذاكرتي لم تنشط بعد، فقط تذكرت يوم موت جدي في١١/ ٩/ ٢٠١٢م. بكى بشدة عندما ذكرت له التاريخ وأخذ يلعن كل ما حوله حتى أنا! ويقول:

- عيلتي يارب... عيلتي شو حل فيهن.

أغمضت عيني، استسلمت للنوم، تاركًا إياه ومصيبته.

أفقت على ارتطام رأسي بالأرض، أحدهم يسحلني عبر الباب ثم ممر ليدخلني غرفة جدرانها بيضاء، أمسك رجلي وربطها بحبل لأعلق بالسقف، بدأ جسمي يتأرجح حتى

أمسكني أحدهم ولفني تلقاءه، رأيت شخصا قاعدًا على كرسي وآخرين واقفين، أشكالهم تُفصح عن هويتهم الحيوانية، أتتني لكمة في خاصرتي لأتأوه بصوت عالٍ، الدم ملأ رأسي، عروق رقبتي تكاد تنفجر من الضغط.

لم أر شيئا بعد، ما هذه إلا رشفة من العذاب القادم، الأوامر اقتضت أن يعالجوني من إصابتي في المستشفى، ويصبروا علي عشرة أيام في الزنزانة، وإلا لكان خَدّش جسدي بالسكاكين ثم ألقاني وأنا حي على بيت نمل ليكمل الباقي عنه، حتى يؤكل جسدي ببطء، يجب أن أعترف ليجعلني أقتل نفسي بيديْ وأرتاح من العذاب المرتقب. مَطّ شفتيه حين أنهى وعيده لي ووضع قدميه على الطاولة إشارة منه على بدء العذاب.

سمعتُ صيحات مرعبة من أناس يعذبون، قلبي لم يضطرب لوعيده ولم أنبس بكلمة، عندها انهالوا علي ضربا بقبضاتهم وبالعُصي، الألم ينطق مني على هيئة صرخات عالية، لم ينقطع ضربهم حتى تلقيت لكمة على رأسي لأجده على فخذ بديع.

لامني بديع على عدم امتثال أمره، سيكررون هذا معي، لا يستطيع مساعدتي، يتمنى قتلي لينقذني من العذاب. اعتقل حين أعطاه أحدهم بندقية ليحمي الحي من العصابات التي

تقتل وتغتصب، ركض معهم ليحمي عائلته، فقبض عليه النظام الحاكم ووجه له تهمة التخابر مع دول خارجية، لم يدعوه يدافع عن نفسه، زُج في هذا السجن الذي لا يعلم أين مكانه؟

أحاط به الظلام إلا من هذا المصباح الصغير، حاول قتل نفسه مرارا إلا أن الأمل بلقاء عائلته حال دون تنفيذ محاولته، صراخ المساجين يرعبه كل يوم، تلقى الضرب حين سجن ثم تُرك للعذاب النفسي بين جدران زنزانته، كأس ماء وخبزة يابسة إحداها حطمت أحد أضراسه ما يقدم له في اليوم، أنِس بوجودي حين ألقيت عنده حتى وأنا فاقد للوعي، سلاه أنيني وكلمات كنت أهذي بها... جدي... أين أنت؟ اشتقت إليك. باح لي بديع ما بنفسه، خشي أنه لن يراني مرة أخرى.

المعتقلون الجدد حالوا دون تلقي جسدي للعذاب، انشغلوا بهم عني، ثلاثة أو خمسة أيام مرت، حسبها بديع من كسرات الخبز والماء التي يدخلها لنا الحارس، جسمي خف أنينه وبدأت مفاصلي تتحرك على ما بها من وجع، استعدت رشدي واستعددت للعذاب القادم علي يد سجاني، رأيت بديع بوضوح ساعتها، نحيل جدا، أكاد أرى عظام صدره، قميصه ممزق كقميصي، حُفاة كنا، وسروالان أبيضان خلقان ما يستر

عورتينا. رحمة الله بنا واسعة حين اهتزت جدران السجن، سمعنا الحرس يصرخون وينصحون بعضهم بالفرار. هدأت الاهتزازات، الصمت لف المكان لثوان مع إضاءة متقطعة، بدأ صوت المساجين يعلو، يستنجدون من يخرجهم. قطع ضجيجهم هزة عنيفة، أعقبتها ظلمة دامسة، بديع يقول بصوت خافت يخترق صمت السجن المظلم:

- ضياء فينك.

بضع ساعات انقضت ولا أحد يجيب استغاثتنا، انقطع بعدها الأمل، دُفنا في مكان ما تحت الأرض، الجوع والعطش قاتلنا البطيء، بديع بكى كثيرا على أسرته واختفى وسط الظلام، لا أسمع إلا نشيجه.

معرفتنا في الوقت مرتبطة بتعاقب الليل والنهار، انعدمت معرفتنا فيه بزنزانتنا، حتى الطعام الذي يقدم لبديع ويحسب الأيام من خلاله توقف، عطشي للماء وحده ما قدر لي الوقت، لأقرر أنه مضى علينا أكثر من أربعة وعشرين ساعة منذ أن انعدم الضوء وفر السجان، الظلمة أحاطت حولنا وأطبقت علينا، لا جدوى من العينين بلا نور كما لا جدوى من عقل بلا علم. غلبني العطش وجعلني أنام.

صحوت بعد أن أحسست بألم في خاصرتي، جلست وأسندت ظهري للحائط، بدأت أتفكر في أمري، العزلة فسحة مع النفس جرد لتصرفها مُحاسبها العقل، كم كنتُ في حاجة لتلك الظلمة التي طوتني على نفسي وجعلتني أتيقن أن الإنسان هو سجان نفسه.

أسمع تساقط قطرات ماء متتابعة تصطدم في نقعة خلفتها، كم تاق لها ريقي الناشف، أنين من كل صوب يتناهى إلي، وسط ذلك كله رأيته يمشي نحوي ببطء، نور تبدى في الظلام، ذكريات جدي قشعت الظلام عن نفسي التي انتعشت برؤيته، كنت أسردها على نفسي ويستمع لها بديع، لم أكن قاصدًا أن أحدثه عن قصتي مع جدي بل كان عقلي يُسلي النفس بالذكريات. ما ندخله إلى عقولنا من أفكار ليس مختلفا عما ندخله إلى جوفنا من طعام، الأفكار تحتاج وقتا ليهضمها العقل وتُكوّن سلوكنا وعينا ذلك أم لا، قصص جدي عن حياته وحياة والدي كانت من قبيل النصيحة والإرشاد لي، ألا أكرر ماضيهما وأدور في دورة أخطاء تاريخ عائلتي إن لم أتعلم مما سلف وأجتاز العراقيل والأخطاء التي وقعوا فيها، والد جدي طلب الموت حين مات شقيقه كما طلبت الموت حين مات

جدي، وهبت لهُ الحياة بعد أن واجه الموت ووهب لي الموت البطيء داخل زنزانة مظلمة، جدي لم يدرك خطأه إلا في وقت متأخر، رأى ذلك في ابنه، صورة حية عن خسارته وإن لم تتطابق القصة، لم يكافح جدي للنهوض مجددا كما لم يجدد أبي سعادته في حياته مرة أخرى، سعادة المرء الحِسية مناصفة بينه وبين مجتمعه وسعادته النفسية ملك له، تعيسًا إن كانت ملكاً لغيره، أبي رهن سعادته بسعادة والدتي التي رحلت فيها لتتركه يسخط على قدر الله، تاركا لنفسه البحث عن السعادة لدى الآخرين، كان كمن يطرد ظله والضوء خلفه، لن أكون مثلهما أيأس من الحياة بل سأحيا حتى وإن كان قلبي قد دفن مع جدي وأفقدني الشعور بالسعادة، لن أعترض على قدر الله، إن كُتبت لي الشهادة فخير وإن وهبت لي الحياة سأحيا لمد يد الخير. أدركت ذلك وأنا في ظلمة السجن... بوحاً كالهَذْي.

– شو بينفع إزا فهمت هلا. قالها بديع بصوت مخنوق.

* * *

فترة ثقيلة الخطى مرت علينا، نمت فيها مراراً حين انعدم الوقت والصوت في ظلمتنا، قلقت على بديع الذي اختفى صوته، بدأت أتلمس الأرض كالأعمى الذي فقد عصاه، أناديه، لا يجيب، رفعت صوتي المبحوح فسعلت... لا صوت له، تلمست الأرض حتى عثرت على قدمه، مستلقيا على جنبه الأيمن تجاه الجدار، رائحتهُ نَتنة، لا أشكُ أن رائحتي أفضل حالًا منه، تنفسه أدخل الارتياح إلى صدري، هو الإحساس المريح الذي أحسست فيه منذ سجنت. قلبته ناحيتي وأسندت رأسه على فخذي، سمعته يهمس، أصغيت أذني قرب فمه، التقطت ما قاله بعد عدة محاولات.

– عيلتي دخيل ربنا... راح أموت. قالها وهو يزدرد ريقه بعد كل كلمة.

حزنت من أجله وقتها، كان أول حزن أشعر فيه بعد وفاة جدي، طمأنته أنه سيعيش ويراهم حوله عما قريب، تلمس صدري وشد قميصي بما استطاع من قوة، تجاوبت مع جذبه لي وأصغيت له.

– أوو... عدني. صوته متقطع، أنفاسه أعلا من صوته.

- والله العظيم راح أبحث عنهم وأنقذهم ما دمت حيًا. قلت له.

خُيل لي أني رأيت ابتسامته، ظللت فترة على ما أنا عليه، غلبني النوم وأسندت ظهري للجدار ونمت.

استيقظت وظننت أني نائم حتى انتبهت أنني مسجون في سجن لا أرى جدرانه، رجلي نملت، أبعدت رأس بديع الذي ضغط على عصب فخذي مسببا تنملها، سمعت أنينه، مازال حيا، دعوت الله أن يجمعه بعائلته عاجلًا ويخرجنا من السجن.

زحفت إلى الباب، ليس لدي طاقة لأن أقف، رجوت أن يكون مفتوحا، تحسست الجدار حتى عثرت على الباب الحديدي، حاولت فتحه مرارا، لا جدوى من محاولاتي، أسندت ظهري عليه وحركة يدي لأستند إليها فكادت تكفأ شيئا ما! تداركته بسرعةٍ انحنى فيها جسدي بشدة، تحسسته فإذا هو كأس، تذوقت ما فيه... ماء!

لا أعلم من أين جاء؟ ربما وضعه السجان قبل مغادرته ولم ننتبه، قبضت على الكأس بإحكام، بحثت عن قطعة الخبز

ووجدتها يابسة تماما، ارتشفت ثلاث رشفات ثم حبوت نحو بديع، أسندته إلى الجدار، تلمست شفتيه ووضعت الكأس عليهما وسقيته بعد أن بللت فمه بالماء، شربه كله ثم اقتسمت معه قطعة الخبز التي تعب فكَيْ من مضغها، أحسست بشيء من القوة بعد مدة قليلة، بديع استعاد صوته، أسمع همسه... يشكرني.

– من أين لي؟ قال. لا علم لي! قُلت.

بديع جعلني أستشعر عالمه واستطاع أن ينتشلني من كآبة السجن وحلكة ظلامه حين حدثني... أنه أستاذ تاريخ في جامعة البعث، كان يعيش في سلام وسط أهل مدينته، لم يتوقع أن الأمور ستسوء لهذه الدرجة، فقط طمع في الإصلاح ورفع الظلم الجائر عن مدينته، لو علم أن السلاح سيستخدم وتراق الدماء لما خرج، بل سيقف قرب دوار الساعة ويصيح بالمتظاهرين أن يعودوا إلى بيوتهم ويغلقوا الأبواب عليهم، الجور أرحم من سفك الدماء. سألني لِمَ أتيت لبلاده؟ وتركت وطني الزاخر بالخيرات والأمن!

– من أجل الاستبسال في بناء دولة إسلامية على شريعة الله ورسوله ما جعلني أحضر. أخفيت عنه حقيقة أمري، وتلهفي

للشهادة، للحاق بجدي بعد أن كرهت الدنيا.

مجنون أنا في نظره! الدول لا تقام بهذه الطريقة، لا يعلم ما حجم دمار سورية منذ سجن، المعتقلون كانوا يخبرونه بالفظائع والانتهاكات، لم يصدقهم، المعتقل دائمًا يبالغ ويهول الأمور، سورية تحوي طوائف كثيرة، ما مصيرهم في رأيي؟

أجبته... أن الوثنيين يسلمون أو يقتلون، وأما النصارى الكفرة فيدفعون الجزية في حال عدم إسلامهم.

صمتٌ لف المكان إلا من أنين أحد المعتقلين حتى استرسل بديع في حديثه لي.....

لسنا بأفضل تديناً من أسلافنا عندما دخلوا البلاد فاتحين كما كتب مؤرخوهم، لم يجبروا أحداً على الإسلام، وحدها أخلاقهم وسماحتهم وعدلهم ما جذب الناس لدينهم، الحب رأس كل خير والكره رأس كل شر، إن جهاد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان دافعه الحب للبشرية لتخليصهم من شراك الشيطان وتعريفهم على الدين القويم، الجاهل طفلٌ يكره الدواء المُر الذي فيه خلاصه. كان العرب أمة مفككة

لا هدف لها قبل الدعوة للإسلام، كره معظمهم ترك عادتهم حتى أرهبتهم قوة الإسلام، ثم تمسكوا به عندما وجدوا حلاوته وصلاح حالهم وإلا لكان الإسلام انفرط مع مضي العقود والقرون. قطع حديثه عندما سمعنا أصوات المعتقلين تعلو بإنهاك ويضربون الأبواب الحديدية، وصل إلى مسامعي أصوات تنادي.

- فيه حد هون... عدة أصوات.

* * *

أخرجنا أهل المدينة عندما وصلتهم المساعدة وطردوا العصابات المسلحة، انتشلونا صباحاً من ثلاثة طوابق تحت الأرض، كانت دافئة جداً ليعرينا البرد الشديد من الدفء عندما خرجنا في العراء، نقلونا بعرباتهم للمستشفى، حيث تلقينا العلاج وتضميد الجراح، بعض المعتقلين فقد رجلا أو يدا ومحظوظ من فقد إصبعا بعد أن قرر الأطباء بترها، تمددت على السرير وإلى جواري بديع الذي سأل...

أين؟ ومتى؟ وما حَلّ بحمص؟

مدينة سراقب، الساعة الآن الحادية عشرة صباحا، يوم الاثنين الموافق للثامن والعشرين من شهر كانون الثاني لسنة ألفين وثلاثة عشر للميلاد. كنت أرى الطبيب الذي يجيبه وبيده حقنة امتصت بإبرتها سائلًا أصفر من قنينة، اقترب منه حين كرر سؤاله عن حمص؟ وغرس الإبرة في وركه ثم أخرجها بعد أن أفرغ ما فيها وأخبره أن حمص دمرت على يد قواتهم الجوية ومدافع جيشهم.

حاول بديع القيام وهو يبكي وضرب السرير بيده بقوة، ثبت الطبيب كتفيه حتى فقد الوعي، علم من كثرة أسئلته أنه معتقل منذ بداية الأحداث، يحمد الله على توفر المادة المنومة لتهدئته

ودعا الله بأن تكون عائلته نزحت خارج حمص.

شكرني عندما علم أنني كويتي أتيت لنصرتهم، يراني أفضل من الشباب الذين هربوا وتركوا وطنهم وهو في أمس الحاجة إليهم. هل سأعود أم أقاتل إلى جانبهم؟ سألني وهو يهم بالذهاب لأحد الجرحى.

نظرت للأستاذ بديع بعين الشفقة والامتنان لما فعله لي في السجن.

– سأساعده بالعثور على عائلته، هو في أمس الحاجة إلي الآن. قلتها. ابتسم الطبيب وتمنى لنا التوفيق.

نظرت له وهو يذهب ويفحص الجريح، تطلعت في المكان الذي تربعت الفوضى فيه واستقرت، مكان مزدحم بالمرضى والمصابين ثم أغمضت عينَي وأنا أحمد الله على خروجنا من السجن.

استيقظت على صوت بكاء بديع ليلاً، جلست وواسيته على أمل أن عائلته قد خرجت من حمص. نظر إلي وكأنه يرجو أن يكون ظني صادقا، كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءً عندما سألت أحد الممرضين عن الوقت، بديع استلقى على فراشه

محاولًا النوم، وعندما أردت أن أستلقي على فراشي اقترب مني شاب ملتح، سلم علي وعرفني على اسمه، سالم الحموي من كتيبة المجاهدين، سمع عني فأحب دعوتي إلى سريته فور مثولي للشفاء، منحني رقم هاتفه وأهداني هاتفًا لأتصل به حتى يأتي ويقلني. نظرت إلى بديع فيما كان الشاب يغادر، مؤكدًا أن هؤلاء المجاهدين سيساعدوننا في العثور على عائلته، طأطأ رأسه وهو يقول:

- الله كريم.

* * *

لم تمض خمسة أيام من معرفتي بسالم حتى كنا معه في سيارته وقد ارتدينا لباسا عسكريا أحضره لنا، توجهنا نحو سريته المرابطة خارج مدينة سراقب، الناس كانوا يبيعون ويشترون وكأن المدينة لم تشهد معركة منذ أيام، طلقات الرصاص تركت آثارًا واضحةً في كل مكان. وصلنا إلى سرية سالم التي اتخذت بيتًا على هضبة مطلة على المدينة مقرا لها، رحبوا بنا بحرارة وأعدوا لنا وليمة عشاء، تحدثت مع رئيسهم مصعب، شخص لحيته شقراء طويلة جدا، أبيض البشرة، مشدود الجسد، متوسط الطول. سردت عليه قصتي مع جماعة عِميش.

- طيب أنت وشجاع، أكرمك الله عندما خلصك من جماعة عِميش، هم شبكة تكيد للمسلمين، تجذب من لهم ميول جهادية ونصرة للإسلام لضرب الإسلام وتشويه صورته. قالها مُصعب لنا.

- رأيت حرصهم على الصلاة والتهجد وغيرتهم على الإسلام رغم أخطائهم. قلت.

- يصورون لأتباعهم أنهم يدافعون عن الإسلام وأهله وهم عملاء لمن يديرهم خلف الكواليس، من يعارضهم يُغتال أو توجه له تهمة الخيانة، في الأمس ردموا فتاة حية بسبب

استعمالها لموقع التويتر وقتلوا شابين بأبشع الطرق لأنهما اعترضوا على طريقتهم وأعمالهم، من خلفهم أراد أن تري الشعوب غير المسلمة صورة مشوهة للإسلام وأنه دين بشع. رآني مترددا في تقبلي لما قاله.

ربما لا أصدق... نحن أعلم بما في سورية، جماعتك ومن يتبعونهم يحتلون البلدات الصغيرة فقط لا المدن، سمحنا لهم بدخول الأراضي التي حررناها ثم انقلبوا ضدنا مدعين أنهم من حررها، مع جماعتك شباب مغرر بهم يستميتون للقتال والموت وليس لأحد القدرة على مواجهتهم، ضربوهم بنا وأشغلونا عن تحرير وطننا من العصابات المسلحة فمن المستفيد من وراء ذلك يا ضياء. قالها مُصعب ثم قام ليتحدث في اللاسلكي.

لم يُقنعني قوله، الكل يدعي أن الحق معه، يُشادون حبل الحق المربوط في وسطه أناس بسطاء كبديع، كُلٌ يشده حسب قُوته، مُمزقا مُجتمعه بحقه الذي ينادي فيه بالقوة.

تناولنا عشاءنا وقد لمسوا مني قبول قولهم، بعد العشاء بينما كنا نشرب الشاي حول شعلة نار، طلبتُ منهم مساعدة بديع الذي ظل صامتا منذ أن نَقلنا سالم. بديع الحمصي من أهل غوطة حمص. عبارة أرسلها مصعب إلى المجاهدين عبر اللاسلكي.

– غني من يسكن الغوطة سابقا، لا بد أنك فقدت كل ما تملك، حالك حال الجميع، هناك أسر محصورة في حي الوعر، دَوّن المجاهدون أسماءهم، إذا لم نجد عائلتك معهم فحتما أنهم نزحوا خارج حمص، غوطة حمص أصابها دمار أقل من دمار بقية الأحياء. كلمات تفوه بها مصعب فيما هز بديع رأسه إيجابًا وكأنه قد ابتلع لسانه! رأيتُ منه الخوف من مصعب ورفاقه.

ظللنا يومين عندهم حتى نشبت المعركة في سراقب، رأيت كرات اللهب في وسطها جراء القنابل التي ألقتها طائرات مروحية، رحلنا مع مصعب جهة الشرق نحو بلدة أبو الظهور، أتتهم الأوامر بمحاصرة وضرب مطار أبو الظهور الذي استهدفت طائراته مدينة سراقب.

اتصال لاسلكي تلقاه مصعب فيما كنا في بلدة كفر عميم ليلا، يخبره بوجود اسم بديع الحمصي في قائمة أسماء العائلات المحاصرة في حي الوعر. لم يخبرنا مصعب وقتها! أخبرنا أحدهم بعد يوم عندما اقتربنا من أبو الظهور. فرح بديع بالخبر فيما عتبت على مصعب لأنه لم يطلعنا. كان يريد أن يخبرنا بعد أن ينتهي من أمر مطار أبو الظهور بعد أن تحاصره

العناصر التي تنتمي لسراياه. كما نقل لي سالم عنه.

استأذنا من مصعب في الذهاب إلى حمص، سمح لنا وأعطانا سلاحين ناريين وأرشدنا أن نسلك طريق بلدات الجنينة وسروج ثم معر شحور القريب من مدينة حماة حيث سنجد من يوصلنا إلى حمص.

شكرناه على مساعدته رغم أنه لم يمنحنا سيارة لإيصالنا. تبعد عنا بلدة الجنينة مسافة ثلاثين كيلو مترا، كما أخبرنا أحد المزارعين حين مررنا ببستانه وطلب منا قضاء الليلة عنده. اعتذرنا منه بتخفينا عن الأعين ليلا.

– أراد مصعب إبعادنا عن أماكن القتال الحامية التي تقع في الجنوب على طريق حمص، نتجه نحو شرق ثم إلى جنوب غرب نحو حماة، ملتفين حول دائرة القتال. قالها بديع.

سرنا وسط البرية المظلمة لا نرى ما أمامنا، تتعثر أقدمنا بالحجارة تارة وانخفاضا في الأرض تارة أخرى، دليلنا خريطة النجوم التي يعرف بديع جهة الشمال منها، شعرت بالتعب الشديد حين لاح الفجر، بديع لم يفكر بالتوقف، أمله في إنقاذ عائلته يدفعه حتى وإن تلفت قدماه. استوقفته بعد أن قطعنا

طريقا معبدا، يجب أن نرتاح ولن نمشي إلا ليلا حتى لا نكتشف ويلقى القبض علينا.

أيد رأيي معتذراً على إقحامي في أمره. لم أعر اعتذاره أي اهتمام، تقدمنا حتى رأينا أنوار البلدة ورأيت غرفة في إحدى البساتين حين ازرقت السماء، بابها كان مفتوحا وبقربها صنبور.

نزل الماء باردا حين فتحت الصنبور، شربنا وتوضأنا، طلبت من بديع أن يؤمني للصلاة فرد متعللا أنني أنا القائد! بعد أن أدينا فرضنا نمنا على حصيرة كانت ملقاة أمام الغرفة، معطفانا وقيانا من البرد ولم يجعلانا ننعم في النوم، تقلبت كثيرا وصحوت مرات عدة خلال النهار، أغمضت عينيْ حتى استطعت النوم.

استيقظت على يد بديع عصر يومنا، أطلعني أن هناك سيارة متوقفة غير بعيدة عنا عليها ثلاثة مدنيين، يريد أن يذهب إليهم لطلب العون، يرى أن ذهابي لا ينفع، لهجتي ليست سورية.

رأيته يقترب ويتحدث معهم، كنت قابضا على سلاحي مستعدا لأي طارئ حتى لوح لي بيده، ثلاثة شباب ملتحين ربطوا على رؤوسهم خرقًا سوداء كتب عليها (لا إله إلا الله)،

رحبوا وقدموا لنا بسكويتًا وعصيرًا وماء ثم أدينا صلاتي الظهر والعصر معهم، طلبوا من بديع أن يؤمنا لكبر سنه فرفض!

صحبناهم على اتفاق أن يوصلونا بعد أن ينتهوا من غرض لهم.

قطعنا الصحراء حتى وصلنا إلى ناقلة صهريج كبيرة مركونة تحت شجرة، نزل أحدهم وأخذ من حوض السيارة تنكة كبيرة، سكب ما فيها في خزان وقود الناقلة ثم صعد وأدار المفتاح، اشتغل محركها ثم أطفأه بعد دقائق. مكثنا ليلتنا في مكاننا وحكوا لنا عن بطولاتهم وتضحياتهم، سررت أنا وبديع بما سمعناه فيما كنا قاعدين حول نار أضرموها، قدموا لنا شراب المتة، اضطربت معدتي بعد أن شربته، كيس من الخبز وعلبة جبن تشاطرنا، انتقدتهم في السر حين أخرجوا النرجيلة وبدأوا يدخنون ويضحكون، بديع يدخن لكن مزاجه لا يسمح له، مشهور هو أبو النار. قالوها لي حين أخبرتهم أنني أعمل مع شقيقه عميش، هم كذلك يتعاملون معه أحياناً.

انطلقنا فيما الشمس أخذت بالارتفاع في الأفق واقتربنا حين توسطت في كبد السماء، برية مليئة بمختلف أنواع العشب الأخضر بعضه مزهر، آثار المطر متفرقة على وجه الأرض على

شكل نقع ماء، الجو البارد جعلني أغلق نافذة السيارة. توقفت الشاحنة التي نتبعها عند أنبوب، بعضه ظاهر وآخر مدفون، رأيت الشابين يترجلان من الشاحنة ومعهما سلك طويل وآلة كأنها قرص مسنن، نزلنا من السيارة وقد لاحظت تبرم بديع، طلب مني السائق الذي كنا معه أن أساعده على إنزال مولد كهربائي من حوض المركبة، حملته معه حتى وضعته قرب الأنبوب المكتوب عليه عبارة بالانجليزي DANGER، كبس على زر المولد فاشتغل، وبدأت الآلة الكهربائية في الدوران، رأيت بديع يلوح لي بيده ويتكلم ولا أسمعه بسبب الضجيج، ذهبت إليه واقتادني بعيدا عن الضوضاء حيث وضح لي صوته.

– هؤلاء مهربون خلاف ما ظنناهم، حملونا معهم لنكون لهم درعا إن حدث لهم شيء في الطريق، سيتركوننا في البرية بعد أن تنقضي حاجتهم منا. قالها.

لم أكن بعيد الرأي عن حالهم قبل أن يخبرني، فطنت عندما توقفنا عند الأنبوب، احترنا في أمرنا معهم ما العمل؟

الانفجار حل مشكلتنا... انفجر الأنبوب بينما كانوا يقصونه، رأينا أحدهم يركض والنار تشتعل فيه ثم يسقط ، الشاحنة احترقت وكذلك السيارة وصلتها بقع من النار المتطايرة،

الشاحنة وبعدنا عن الانفجار حال دون إصابتنا بالشظايا والبقع المشتعلة، النار والدخان ملأ المكان وأصبحنا مكشوفين، حثونا التراب على بقع النار المشتعلة على السيارة حتى انطفأت، صعدنا فيها وأراد بديع إدارة المحرك إلا أن المفتاح ليس موجودا، كان مع أحد الثلاثة... اثنان متفحمان تمامًا عند الأنبوب المشتعل والآخر مسجى على الأرض جثة محترقة، بدأنا به... رائحة اللحم المحترق مقززة، المفتاح كان ملتصقا بلحمه، بديع انتزعه منه وعليه دم لزج وقطعة صغيرة من اللحم، لم يشمئز بديع مثلما فعلت حين انتزعه، وضع عائلته نصب عينه حتى ولو اخترق الجحيم لتحقيق غايته. الغاية الحقيقية ليست شهوة تتمناها النفس وتقف أمام أول حائل يعترضها إنما هي رغبة شديدة الإلحاح تكون فيها النفس والعقل متساندين لتحقيقها. انطلقنا من فورنا بالسيارة وكأن شيئاً لم يحدث.

اخترقنا البرية متجهين نحو مدينة حماة، رنين هاتف في الدرج انتزعنا من صمتنا، فتحته وأخرجت جهاز آي فون، أجبت على السائل عن أحدهم؟ أخبرته بما حدث لهم. لم يصدق اتهمني بقتلهم وسرقة الأموال، وأخذ يتوعدني، متلفظا بكلام بذيء. أقفلته في وجهه، قطعت الشبكة وبدأت أتصفح

الرسائل وأقرؤها، أطلعت بديع أن أحد رفاقهم لقي مصرعه إثر انفجار أنبوب غاز، كان يحاول قص الأنبوب وملأ الصهريج بالغاز، معتقدا أنه كالنفط. ثم تصفحت الصور ورأيت صورهم وهم حاملون الأسلحة والأموال حولهم، وأخرى في أحد الأماكن يبيعون الصهريج. أخبرني بديع أن المكان في تركيا.

أكملنا طريقنا حتى نفد الوقود من السيارة، لتتوقف بنا قرب بلدةٍ ما عصر يومنا. نزلنا ومشينا نحوها، رأينا بيوتها على شكل قبب طينية. قرية الشيخ هلال المشهورة ببيوتها الطينية التي على شكل قبب وما زالت مأهولة بالسكان، تبعد عن حماة تسعين كيلو مترا، سنجد من يقدم لنا الوقود لنكمل مسيرنا. قالها بديع وهو مسرور بقرب رؤيته لأسرته.

لم نجد في القرية سوى المسنين وأطفالًا صغارًا، شيخ طاعن في السن طلب منا الرحيل، لا يريد أن نجلب لهم الدمار كما فعلناه في المناطق الأخرى، لم يتمردوا على الحكومة وعاشوا بسلام طول حياتهم، حتى إن قببهم لم تدمر. طلبنا منه وقوداً للسيارة. اعتذر بعدم توفره، سنجد من يساعدنا في بلدة السعن التي تبعد عشرين كيلو مترا عنهم.

تركناه واتجهنا نحو الشرق في اتجاه حماة، عندما ابتعدنا

عن المنازل وأفضينا على الحقول، لوح لنا شخص من فوق بيت يتوسطها، توجهنا إليه ورأيناه يخرج من بيته ويتقدم نحونا. رجل مسن، ممتلئ الجسم، لون أسنانه أشبه بلون صدأ الحديد. طلب منا قضاء الليلة عنده، يقدم المساعدة لكل من يقاتل هذه الحكومة الظالمة التي قتلت ابنه بلا سبب حين اندلعت الحرب، لا تفرق بين مسالم أو متمرد، الجميع في خندق واحد في نظرها.

قدمت لنا ابنته السمن والعسل وخبزا وإبريق شاي، كنا قاعدين في فناء البيت، بعد أن تناولنا الطعام بدأ يحدثنا... يرى أن حربهم حرب ظَلمة، ضحيتها الأبرياء، الكل يظلم الآخر ولا يقيم للوطن أي حق، هو كان ظالما حين كان شابا، دأب على تربية الذئاب في مزرعته، من غير علم أحد، يُجوّع أحدها ويطلقه على البلدات القريبة أو على البدو الرحل، ليأكل إحدى أنعامهم، لكي يبيع ما لديه من ذخيرة وسلاح لهم أو يدفعون له الثمن لقتل الذئب، استمر سبع سنوات على طريقته وجنى ثروة منها ولقب (أبو ديب)، لم يرتدع عن فعلته حتى أكل أحد الذئاب الجائعة ابنا صغيرا له.

الدول التي تدير اللعبة السياسية ليست بعيدة عما كان يفعله

سابقا لجني المال، الظلم بندقية ذات فوهتين متعاكستين، ما زرعه حصده وأكله مرغما، شعبه ظالم، قبل أن يُظلم، لو أقاموا الحق بينهم لما رأوا الظلم، الكل يسرق وينهب، والبلد يغرق، قلة هم الصادقون في بلاده.

بديع اعترض على قوله وأنه أخطأ وأصاب فيما قاله، والمسؤول عما يحدث في سورية، هو من يدير دفتها وليس من يجدفون.

عندما أصبحنا وأردنا الرحيل، منحنا دراجة نارية كانت لابنه المقتول، بديع فقد مهارته في قيادتها وأنا قدت الصغيرة منها في صغري، ركبت خلفه وانطلقنا بعد أن شكرنا المسن على حسن ضيافته. ترنحت الدراجة في البداية حتى استوت، سلكنا طريقا برية تتخللها بعض البساتين، بلدة السعن عن يميننا كما يقول بديع، سنمر على بلدات زنوبة وصبورة ثم تل سنان التي توقفنا فيها وبادلنا جهاز الآي فون بالوقود لدراجتنا.

أكملنا مسيرنا إلى بلدة زغرين وتوقفنا قبل بلدة الجرينة، وجدنا شبابا مسلحين يحاولون اقتحامها بعد أن تبادلوا إطلاق النار مع عصابات إجرامية فيها. أفصحنا لقائدهم عن وجهتنا، ارتفع حاجباه مندهشا! ذاهبان نحو الموت، مازالت العائلات

محاصرة في حي الوعر، طُعم يستخدم لقتل وسحق من يتقدم لمساعدتهم، الثوار يحفرون أنفاقا لإخراج المنكوبين، إن أصررنا على الذهاب فليس لنا إلا طريق مدينة الرستن معاكسين مجرى النهر العاصي في الوادي حتى نصل لبلدة الدار الكبيرة، حيث سنجد الثوار وهم سينسقون معنا ويطلعوننا على آخر التطورات.

شكرناه على نصحه لنا وانطلقنا نحو مدينة الرستن حتى اقتربنا منها، عاكسنا مجرى النهر العاصي الذي يجري في اتجاه الشمال، نابعا من البقاع اللبناني ليدخل بلدة ربلة السورية، قاطعا خمسمئة كيلو متر وخارجا من بلدة دركوش باتجاه مدينة أنطاكية، منتهيا في خليج السويدية المحاذي لرأس الخنزير في تركيا، أُطلق على النهر اسم الميماس والمقلوب لمخالفته تجاه أغلب الأنهار.

كنت أتطلع إلى الجبال التي تحيط بنا وقد بدأت السماء تظلم وأنا أستمع إلى بديع الذي أثرى حصيلتي التضاريسية. لم ننتبه للطلقة الأولى التي دوت حتى انهال علينا وابل من الرصاص، مما أعاق انطلاقنا فسقطنا، قمنا وركضنا لنحتمي خلف الصخور، أطلقت النار على جهة ما دون أن أحدد مصدر

النار، دوى انفجار قذيفة غير بعيد عنا، بديع اضطرب كثيرا لا هم له إلا ترديد:

- عيلتي يا رب.

رأيت شقا في الجبل، طلبت من بديع أن ينطلق نحوه بسرعة فيما أطلق النار، انطلق من فوره وهببت لأمطرهم بالرصاص وأنا أتراجع للخلف، أزيز الرصاص يدوي متساقطا حولي، إحداها مزقت طرف معطفي، ركضت خلف بديع الذي اختفى في الشق، دخلته وإطلاق الرصاص مستمر، لحظة دخولي لم أر بديع، سمعت صوته فقط. أنا هنا.

المكان شبه مظلم. أمام قصف القنابل تراجعنا للخلف كثيرا، نحو الظلمة التي ابتلعتنا لتطبق بفكيها علينا حين سقطت قذيفة لتردم المدخل وتقطع صلتنا بالخارج ونختنق بالغبار المتطاير.

* * *

كنا في قبو بناية كبيرة، جمعنا خالد ورفاقه فيه، أُسر كثيرة احتمت بالقبو لكي تصل الإغاثة عبر الأنفاق التي حدد الثوار أماكنها ولم تصلنا إلا بعد أسابيع عندما خرج لنا الثوار من تحت الأرض وقدموا الماء والطعام للجميع، لكل فرد قنينة

ماء وشطيرة بالجبن مغلفة وعصير معلب، لاحظت اهتمام خالد الزائد بشيماء، أصابتني الغيرة رغم ما نحن فيه، بَدا أنه ناقم علي مما تسببت له من فضيحة سابقة. البكاء لم ينقطع منذ أن حوصرنا في الوعر، المسنون والأطفال كانوا وجبة سهلةً للموت في ذلك القبو، شدة المآسي مشابهة لحرارة الفرن التي تُنضج الخبز بسرعة، نضجتُ تماما في فرن الوعر، عذاب نفسي وجسدي وبيئي، فكرت في الانتحار وعزمت عليه، عندما وضعت على وريدي غطاء علبةٍ حديديا حادا، شيماء منعتني من فعلتي وقالت:

– حياتنا لم نقرر بدايتها حتى نقرر نهايتها اتركيها لله.

لم أُغتصب وأُعذب لأنتحر كما حصل لفتاة معنا، اغتصبت وضربت ونتف شعر رأسها، أنقذتها امرأة من الطائفة العلوية كما أنقذت أخريات حتى قبض عليها وقتلت، المجرم ليس له انتماء لدين أو عرق، يدندن على أي شيء يستمد منه قوته.

أتساءل أحيانا... هل يرضى الرب عما يحدث لنا؟ أين رحمته؟ أين خلاصه لنا من هذا الجحيم؟ هل هو موجود حقا؟ أم أن وجوده من صنع حكماء البشر لكي يضبطوا سلوكيات الناس؟

عشرون شخصًا دخلوا النفق مع اثنين من الثوار وخرجوا منه، تبعهم ثلاثون آخرون بعد ساعة، ثم زادوا العدد إلى أربعين ليعود خمسة منهم والغبار يغطيهم بعد أن فُجر النفق ليسد طريق الخلاص علينا.

خالد كان من ضمن الخمسة العائدين، بكى، لأول مرة أرى وأسمع بكاءه، ماتوا أمامه، دفنوا أحياء، أطفالا وعجزة ونساء، يرى أنه سبب مقتلهم، لم يضع الخطة بنجاح.

اجتمع عليه الأهالي يواسونه، لا ذنب له بمقتلهم. شيماء تطبطب على كتفه وتواسيه، غِرت منها بشدة حين لمست كتفه، نظر إليها لحظة ثم أطرق باكيا، فهمت جيدا تلك النظرة التي تحمل حبًا لها في قلبه.

ظللنا ساعات لا نعرف ما نصنع حتى قام خالد من سبات حزنه، ليقرر أن علينا إعادة حفر النفق، وإلا متنا جوعا أو على وقع قذائف المجرمين. قام الجميع بمساعدته وبدأوا يحفرون. وجدوا طفلا ميتا نقلوه لنا، ثم شابا وعجوزا وامرأة، وكلما حفروا أخرجوا جثة وحملوها إلينا لنضعها مع الموتى، حفرنا لهم حفرا في الأرض ودفناهم. صوت عبر اللاسلكي مُشوش، سمعته فيما كان خالد خارجا من النفق ليرتاح، طلب منه أن

يحصر العائلات الحية وأسماء الشهداء إن استطاع. بدأ يرسل لهم أسماء العائلات الموجودة في الوعر، وسمعت أنهم بدؤوا يحفرون من الجهة المقابلة أيضا. أم شيماء مرضت وأصابتها الحمى، شيماء تبكي عليها خشية فقدها، بكيت معها أيضاً.

* * *

سعلنا من أثر الغبار المتطاير حولنا حين ردمت فتحة الشق، دفعني الغبار لأن أتعلق بمعطف بديع وأتبعه متخبطًا على غير هدى، أردنا الهروب من مكاننا الممتلئ بالغبار، توقفنا حين ضاق المكان، تلمسناه، بدا أنه تجويف ضيق جدا، نزعت معطفي وحشرت جسمي لأدخله ثم تبعني بديع، مشينا حتى توقفنا عن السُعال وقعدنا لنرتاح. بديع بدأ يتحسس جسمي، يعتقد أنني مصاب. لم أصب بأي طلقة بفضل الله. قلت له. مكان مثل هذا لا بد أنه يأوي الكثير من الأفاعي والعقارب وربما السباع، نحن لا نرى شيئا حولنا، يجب علينا مواصلة السير ربما وجدنا مخرجا. قمت وتبعته بعد أن أنهى كلامه.

تبعت صوت وقع أقدامه، أصطدم فيه وأتعثر حين يتوقف ليتأكد أين يضع قدمه، أماكن ضيقة جدا عبرناها، مزقت قميصينا وتركت خدوشا على جسمينا حتى وصلنا إلى نهاية مسدودة، تلمسنا الجدران... لا أثر حتى لجحر فيها، كنا قد قطعنا طريقًا صعبًا وشاقًا جدا. أصابنا اليأس عندها وسقطنا على الأرض، قبر جديد قُدر لنا سلفا، كُتبت لنا النجاة من الزنزانة لنقع في أخرى من صنع الطبيعة، ننتظر لدغة أفعى أو لسعة عقرب ليسري سمها ويقتلنا بسرعة.

بعد برهه شكرني على مساعدتي... كنت كابن بار وصديق وفي له، مخلص، طيب القلب وشجاع، هذه نهايته، لم يكتب له مقابلة عائلته. كدتُ أقول له: ستقابلهم لا تيأس. فترددت وبلعت كلماتي أمام ما نحن فيه من ظلمة دامسة ووضع يائس، صوت الهمس فيها كمكبر صوت كهربائي، لا نرى بعضنا فقط نسمع صوتنا الذي له صدى وسيجلب لنا حيوانًا مفترسًا بعد أن يقتله الجوع.

أسِفَ علي حين أقحمت نفسي في هذه المعركة، آمِنٌ، مُطمئن، رزقي في متناول يدي بلا عناء في بلدي، كثيرون يحسدوننا على ما نحن فيه من رخاء، يتمنون موضع قدم في بلادنا مثل من سبقهم وعاد بخيرات وافرة عليهم وعلى عائلاتهم.

رأيت بديع ممن يحبون الدنيا والإقبال عليها عند حديثه لي، مسكين هو، قلبه متعلق بدينا خداعة، حلاوتها مرارة في حقيقتها، لكل شيء نأخذه منها ثمن ما، تكيد لنا بما تمنحه وتمنعه على حد سواء.

لأول مرة أسمع ضحكته منذ أن عرفته! ظننت أنه جُنّ حين فقد الأمل، لم يكن سبب ضحكة ما ظننته، إنما حين تذكر أنني

حضرت إلى سورية من أجل المساعدة في إقامة دولة إسلامية كما ذكرت له في السجن!

حياة الأنبياء لا تتكرر، نأخذها نموذجًا صالحًا للحياة ومعرفة طريق الرب، من يحمل الناس على العيش كما عاشه من عاصر الرسول صلى الله عليه وسلم كمن يحملهم نحو طريق مسدود، محمد أتى بمعجزات رآها مؤيدوه ومخالفوه، هل لنا برجل يحمل معجزات؟ الدولة التي قامت بعده هي خلافة، تداولت السلطة فيها للأصلح ممن حمل الدين، كانوا معروفين لدى المسلمين، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي الذي حدث في عصره خلاف واختلاف بسبب مقتل عثمان، ثم تولاها معاوية، مُلك في حقيقتها وليست خلافة كما أُطلق على دولته وعلى من بعده، مرتبة الخليفة لدى عامة المسلمين مرتبة عالية لا يجوز فيها نزع اليد من بيعته، أي حاكم إذا أراد امتداد ملكه وميول الشعب نحوه سيستعمل لقب خليفة، كل الدول بعد الخلفاء الثلاثة حدث فيها مثل الأمر الذي أحضرني هنا، أناس يخرجون مناهضين ومطالبين بالعودة لتحكيم كتاب الله وسنة رسوله في أدق الأمور، يبدو أنني لا أقرأ التاريخ جيداً. قالها.

صوته المنساب في الظلام جعلني أتفكر في كل ما قاله،

ما زُرع في عقلي الخام يأبى أن يتزحزح ساعتها، الأفكار التي تدخل لعقولنا أولا هي كأعمدة الأساس القائم عليها فهمنا للحياة وتعاملنا مع الآخرين.

– كتب التاريخ مزورة، صنعها المنتصرون على مر السنين، فما نفعنا من كتب طالها التزوير؟ قلت.

بدرت منه ضحكه ساخرة قصيرة. أُناقض نفسي تماما، كيف أؤمن بشيء ولا أسلم بالآخر، أئمتنا وكتابنا هم من دَوّن هذه الأخبار التي وصلت إلينا، فلو سلمنا بأن التاريخ مزور لكانت البشرية مبنية على كذبة في جملتها، من يقول هذا القول هم أسرع الناس استشهادا في التاريخ إن دعت إليه الحاجة مناقضين رأيهم فيه، للتاريخ رجال ضمائرهم حيه نقية، يحملون الأمانة للأجيال المتتالية، أسماؤهم تتردد كلما طال الزمن، أحياء بما دونوه وإن تلاشت أجسادهم، الكذب عمره قصير والحقيقة باقية وإن سترها التحريف مدة لتنقضي وتظهر جلية، لو كان يزور كما يظن الواهمون لما قال المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب:

«إن القوة لم تكن عاملًا في نشر القرآن، وإن العرب تركوا المغلوبين أحرارا في أديانهم، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين

رحماء متسامحين مثل العرب، ولا دينا سمحا مثل دينهم».

دعاني بديع ... بُني حينها... وهو مستمر في حديثه. منذ العصر الإسلامي إلى يومنا هذا، تظهر جماعة تطالب بإحكام كتاب الله، الله طاهر وبريء مما يصنعه البشر باسمه، رفعوا راية تحمل اسمه وفعلوا الشنائع تحت ظلها، شرع الله يبدأ من الإنسان حين يقتص من نفسه لأخيه، العدالة هي ميزان الكون من حققها حكم لا من رفع شعارها، عدل عمر بن الخطاب وصل للأرض حين طلب من المزارعين رحمتها بعد أن أرهقوها بالزراعة تكرارا. حين دكت طائرات ألمانية النازية لندن، ووقف ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا على الركام وحوله وزراؤه، سأل وزير العدل قبل وزير الدفاع:

– هل العدل مستتب والكل آخذٌ حقه؟ أجابه. بنعم.

فقال: إذا لا خوف على بريطانيا.

كرر على مسمعي كلمة بُني... الحكومات التي تحكم تضع الكرسي نصب أعينها دائما، يسعون جاهدين لحفظه مهما كانت الطرق، على لون شعوبهم يسيرون ويتلونون، لم تصلح أوربا إلا بعد حروب طاحنة حتى ملوها وجنحوا للعلم الذي أنقذهم من

شر الفتن، نحن العرب نعيش في جهل، نحمل شهادات ونظن أننا متعلمون، العلم يبدأ من الصغير بتلقينه معنى الإنسانية والرحمة وتعلم القراءة وتجميل صورة القُراء في أعين الآخرين، محمد ابتدأ أمره باقرأ وأمته لا تقرأ حتى كتابها وبعضهم يؤول القرآن على فهمهم وليس فهم الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وهو وقفٌ عليهم، من حملني إلى الجهاد في بلاد الشام ليس إلا جاهل أو له غايات سياسية، عندما احتلت الولايات المتحدة الأمريكية العراق، سمح النظام السوري للمجاهدين بمساعدة العراقيين، كان الهدف من السماح لهم هو التخلص منهم ومن رجع اعتقل وعذب، سياسات الدول خبيثة ملتوية، لا صديق دائم... مصلحة دائمة فقط، إقامة دولة إسلامية لا تكون بهذه الطريقة، على الإنسان البدء بنفسه ثم من حوله فالعجلة لا تدور قبل أن تأخذ شكلها، من زرع في عقلي أفكاره الخاطئة المضللة أوصلني لهذا القبر الذي جمعني معه، هو فقد أسرته ووطنه وأنا هربت من أسرتي ووطني...

أخذ نفساً عميقا قبل أن يكمل سرده... أنت يا ضياء...

- شو تعملوا هون!

* * *

وجلنا من الصوت الذي قطع حديث بديع، صوت خشن عبر بيننا وجعل أجسامنا تقشعر، ذكرت اسم الله فيما خرجت الكلمات من بديع متقعطة: يا.. ي..سسس...عع.

لم أستوعب ما قاله لحظتها، ضوء نزل علينا من الأعلى ورأيت وجه بديع المُغبر وبجانبه سلاحه ومعطفه، وضعت يدي على عيني، وأنا أنظر للأعلى أتقي وهج الضوء.

– من أنت؟ قال بديع بعد أن زال خوفه.

ضحكة خشنة ترددت.

– في بيتي ويسألون من أنا؟ حسنا أنا مجنون الرستن. قالها.

أخبرناه بهويتنا، استحقرني حين علم أنني كويتي، طفل مدلل يبحث عن لعبة، نولد وبأفواهنا ملاعق ذهبية ولا نعرف للدنيا شقاء، حمار حين جئت للمساعدة. قالها مجنون الرستن.

طلب منا الصعود، على شرط أن نسلم له أسلحتنا. وافقنا بعد أن سحبنا منها مخزن الطلقات، كانت فتحة مرتفعة، لم ننتبه لها بسبب الظلام، مد لنا حبلا، تسلقته ثم تسلقه بديع، وصلنا إلى تجويف مستو آخر وقعدنا، سلط علينا الضوء حتى

طلبنا منه إبعاده عنا، فوضعه على وجهه، مُعربا أنه لا يؤذيه كما يؤذينا. جسمه نحيل، وجهه دقيق، عيناه صغيرتان، فقد بعض أسنانه السوداء، نمت شعيرات متقطعة على ذقنه، أصلع، شعره المتبقي طويل يصل لمنتصف ظهره.

بعد أن ارتحنا، تبعناه وهو حامل سلاحينا على كتفه، وصلنا إلى كهف متسع، فيه موقد نار مشتعلة، وبقربها إبريق وقنينة ماء، ذهبت لها مباشرة لأشرب، فقفز حائلا بيني وبينها وأخذها مرددا أنه سيد المكان وعلينا أن نمتثل لأمره، وافقنا على مضض. قعدنا بقرب النار، الجو بارد في الكهف، ارتدينا معطفينا، لا أرى مخرجا، ناولني القنينة، شربت ثم شرب بديع.

الجنود والعصابات تحاصر الرستن من كل جانب، سمع صوتنا فتتبعه حتى وجدنا، هلك كثيرون في تجاويف جبال الرستن، يعيش هنا منذ عشرين عاما، بعد أن اكتشف أن البشر ليسوا إلا حيوانات مسعورة حوت أجسادهم أرواحا سماوية، لتنقيتهم من مشاعر الحيوان وشر الشيطان، قلة منهم من نفعت معه التنقية الروحية، عاش في مختلف المدن السورية وشاهد الظلم والجور بين الشعب كانوا أقرباء أم غرباء، سُلط عليهم

ظلمة وطغاة بظلمهم لبعضهم، للكون معادلة عادلة حتى في الظلم لِكي تتزن الكفة ونحن البشر من نختار.

كنا نستمع له ونشرب المتة، معدتي تصدر أصواتاً ليس بسبب الجوع بل من هذا الشراب العشبي الذي اضطررت لشربه. هَجر العالم وسكن في الجبال، أطلق عليه أهل الرستن مجنون الرستن وهم لا يعلمون أنه هجر عالما مجنوناً تماما، أبعد الناس عن فهم حقيقة الدنيا هم من ذاق رخاءها، هي كالبحر أعلاه عُرضة للشمس والصيد وأسفله فيه الرخاء وسط الظلمة المتراكمة، لا يشعر من فيها بمن في السطح، يوما ما... كان في الجبل يسامر النجوم فأتاه نور يُخبره أنه رسول للبشر وعليه أن يمكث هنا إلى حين أن تأتيه الإشارة لنشر تعاليم الرب.

توقف بديع عن شرب المتة وبادلني النظر! ثم نظرنا لمجنون الرستن الذي فغر فاهًا مبتسما مِلأه اللعاب السائل، عندها ضحكنا وضحكِ معنا كالأبله.

- مسطول. قلت.

- يخرب ديبك. قالها بديع.

- إيش عَرّف الحمير.. بأكل الزنجبيل. قالها المجنون.

* * *

منذ دخولي إلى سورية لم أضحك كما ضحكت تلك الليلة، لم أعلم أنها ستكون آخر ضحكة ضحكتُ مثلها حتى كتابة هذه السطور، بديع ضحك أيضا، هل سبب ذلك مجنون الرستن؟ أم خروجنا من مأزقنا ما أفرحنا حتى نواصل سيرنا؟ خلدنا للنوم على أمل أن نكمل طريقنا في الغد.

استيقظت على رائحة شواء، رأيت المجنون يشوي سمكًا، لم تكن لنا شهية لأكله، طلبنا منه أن يقودنا إلى المخرج. قادنا بكل بساطة حتى أشرفنا على النهر العاصي من علو مرتفع، رأينا جسر الرستن الكبير وعليه آليات عسكرية، أخبرنا أن الطريق غير سالك الآن، فلنقم عنده إلى حين ابتعاد الخطر. عُدنا وأكلنا السمك الذي يُطلقون عليه اسم السّلور شبيه بسمك القط (الچم) الذي يتأفف من أكله الكويتيون. كل طعام يقدم للجائع لذيذ الطعم، ست سمكات مصليات التهمناهن.

يرى مجنون الرستن أن هذه الحرب ستنعكس على مُشعليها، ليس له مصلحة مع أحد، شرط ألا يقتربوا من مقره، الإشارة قريبة لينطلق ويُصلح حال البشر، ربما الإشارة تكون عند دمار العالم فالبشر لا يستمعون لصوت الحكمة في رخائهم، بل في كربتهم وحاجتهم، سينطلق وينشر ما يأمره فيه مُرسله بعد أن

يمده بالمعجزات ليصدقه الناس، يعلم أننا لسنا مصدقين ما يقوله... سيرينا النور الذي يأتيه هذه الليلة. جارينا قوله وتركناه يسرح ويمرح بأحاديثه، فاعتراض كلام المجنون جنون.

وقفت على مدخل الكهف أراقب قطرات المطر والبرق الذي يقشع الظلام ويبدده ليعود في أقل من ثانية، صوت الرعد يدوي بين الجبال، ظلام المكان استحوذ على مشاعري، الرياح حملت قطرات المطر إلى مدخل الكهف لتصيبني من تارة إلى أخرى، وددت لو كان عبدالله هنا لأسأله:

هل صحيح أن أُناسا اعترضوا على علي رضي الله عنه؟ طالبوه بأن يطبق الشرع! علي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره ووالد سيدي شباب أهل الجنة لا يطبق شرع الله! أم أن هناك اختلالًا في الفهم واتباعا للهوى؟ لا أشك أن مخالفي علي على باطل... لكن؟ ماذا عن كل عصر يخرج فيه هذا النوع من البشر كجماعتي تمامًا، هل نحن على باطل أم على حق؟

كم وددت توجيه سؤالي لعبدالله ولأخبره كم أنا مشتاق إليه

وإلى أبو شعرة، رأيت وجه جدي حين برق البرق فيما كنت أسبح في بحر ذكرياتي، وجهه شق الظلام، ابتسمت لرؤيته، الرعد جلب لي صوته وذكرياته، مرت علي صُوره وكلامه كشريط فيلم متقطع... مسلمون نحن.. نخطئ ونستغفر.. نتجنب الكبائر وما يغضب الله.. نحافظ على الصلاة.. الصيام.. الزكاة.. الحج.. هذا هو الإسلام بعد التلفظ بالشهادتين من غير تشكيك، من يستغل الدين هم أفيون الشعوب، ليس هناك أقوى وأشد من السيطرة على الناس من الدين، هو السلاح الفعال لتعطيل العقل إن استخدم لمصالح دنيوية، الدين الحقيقي تكريم للإنسان وإطلاق الحرية لفكره فيما ينفع وليس الانقياد خلف أمر مجهول أو شعارات رنانة، بناء المجتمع يبدأ من بناء الفرد.

برق البرق مرة أخرى حين تذكرت فيل السيرك، ربوه على القيد منذ صغره، فلما كبر فكوا عن رجله القيد، ربطوا عقله فلا يقدر أن يخطو خطوة خارج مكانه الذي يتركونه فيه، إنسانٌ أنا مُنحت عقلًا لأفكر، لم أكن أعلم من هو قائدي الفعلي، ننفذ فقط الأوامر ونقاتل أشخاصا لا علم لنا بهويتهم، حضرت للموت لا للشهادة. هذه حقيقتي حين فقدت الحب لرجل

اعتدت على وجوده معي أينما كنت، هل كان سيرضى بما صنعته لو كان حيا؟

أراد تحرري من عبودية البشر، علمني لأكون واعيا راشدا، عائلتي اتبعت الطريق السياسي وجماعتي اتبعت الطريق القتالي، كلتاهما تقرعان طبول الرفعة للإسلام والنهضة بالأمة...أين الطريق إذا؟

كِلا الأمرين فيهما فتنٌ شائكة، جدي أصاب حين عوّل على البدء بأنفسنا، وبديع لم يبتعد كثيرا عن جدي، ضاربًا مثلًا بأن العجلة لا تدور قبل أن تأخذ شكلها، رَسّخَ غازي وجماعته في عقلي الزهد في الدنيا مُقبحينها في عينيْ، جعلوني أرى كل من يتعلق فيها بعيدا عن الله، لم أعِ أن للزهد مراتب وعلينا عدم الخلط وإضاعة نصيبنا وحقنا من الدنيا، فديننا وسطي وهو ليس دين رهبانية ولا انكبابا على الدنيا، نبينا صلى الله عليه وسلم، ضحك وشرب ولبس وتعطر واستلذ بالنساء، مجتمعه المدني كان مزيجا بين من آمن به ومن ظل على دينه فلم يجبر أحدا على دخول الإسلام، حُسن خُلقه ما جعل الناس تتبعه لتجد صلاح حالها في الإسلام، كما أن الصحابة لم يشادوا الدين فيشد الله عليهم وعلينا، بل كانوا مرنين فيه لا يكثرون

السؤال، فأصبح شرعنا من أوسع الأديان رحمة ومرونة إن فقهنا تاريخه.

فجأةً! ازداد تساقط المطر وتسارع برق البرق ثم دوَى دوِي الرعد، أمعنت النظر في السماء وقلت:

جدي أنت حي معي أينما كنت.

اختلطت دموعي بقطرات المطر التي بللت وجهي، محدثةً مزيجًا بين مرارة الدمع وعذوبة قطرات المطر كحالنا في دُنيانا. عدت إليهما، وجدت بديع واقفا مع المجنون.

- هل كنت تبكي؟ قال.

- قطرات المطر. أجبته.

المجنون يريد أن يرينا النور الذي يبشره بأنه رسول منتظر، أخذنا سلاحينا وسرنا خلفه في دهاليز ملتوية.

- لن أفتح ضوء المصباح، لا ضرورة له حين يغمرنا النور ويرشدنا. قالها.

مضت خمس دقائق ونحن نتبعه في الدهاليز المظلمة حتى بدأت تنقشع رويدا.. رويدا أمام الوهج الأبيض الذي يزداد كلما اقتربنا منه! حتى غمرنا تماما ولم نستطع الرؤية، سمعت

ضجة عالية، بدأ خيال المجنون يتراقص أمامنا على الضوء.

- ألا تسمعن البشارة في رسالتي. قالها.

استمر يتمايل ويتلفظ بكلام لا نفهمه، بديع أخبرني أن ما نسمعه هي وطوطة الخفافيش، علينا معرفة مصدر الضوء. تقدم بسرعة وهو واضع كفه أمام عينيه متقيا الوهج، تبعته وسحبت ذراع المجنون ليتبعنا، استلها مني بسرعة! قائلا.. لسنا مصدقين أنه يتلقى البشارة في رسالته. تركته وسرت خلف بديع، سمعت المجنون يقول:

- أبلغ جدك مبارك سلامي، صاحبك ليس على ملتك!

زادت خطواتي بسرعة حين سمعت كلامه، كيف علم باسم جدي! هل يتعامل مع الجن؟

تبعت بديع حتى اكتشفنا أن الضوء الأبيض كان آتيا من مصابيح شديدة القوة على سد الرستن القريب من شق الجبل الذي عكست حجارته الفريدة الضوء.

المطر شديد جداً والتيار قوي، رأينا قوارب قرب النهر في الأسفل، بديع يرى أنها فرصة للفرار من هذا المكان المحاصر، نزلنا للأسفل بسرعة وسط الصخور المبتلة، انزلق

بديع على إحداها وجرحت عضلة ساقه جرحًا عميقا، الدم النازف جعل ساقه تصطبغ باللون الأحمر، كنا مكشوفين على بحبوحة الضوء، كثافة المطر أبعدت الأعين عنا، تلطخت يداي بدمه حين ربطت ساقه ولففت عليها قميصي بعد أن نزعته، سندته ونزلنا حتى اقتربنا من القوارب لننزلق معا ونسقط في وحل، قمنا وركبنا أحد القوارب وأطلقنا له العنان ليجري مع التيار، كلما اقترب من الصخر أبعدته بالمجداف، مخر المياه بسرعة والمطر بدأ يفتر بعد أن قطعنا مسافة كبيرة، بديع يتألم، جرحه عميق، انكسر المجداف حين حاولت أن أبعد القارب عن صخرة كبيرة ليصطدم بها ويغرق، قاومنا التيار وسبحنا حتى وصلنا بجهد جهيد إلى الشاطئ، بديع حالته متدهورة لا أستطيع حمله، سحبته حتى وضعته تحت شجرة وأسندته عليها، أمسكت وجهه بقوة وقلت له:

- لا تمت رجاء... سترى عائلتك قريباً.

نزعت معطفي ووضعته عليه، أغلقت زر الأمان في سلاحه ووضعته في قبضته، ركضت بين الأشجار، وما يستر جسدي العلوي سوى قميص داخلي، جسمي بدأ يرتعش من البرد والأغصان مزقته، رأيت بيتا محاطا بسور صغير، قفزت من

فوقه، دعوت الله أن أجد أحدا فيه ليسعفنا، طرقت الباب بقوة، المكان مظلم، يبدو أنه خال، كررت طرق الباب بقوة، ثم حاولت أن أحطم قفله بكعب البندقية، فاستوقفني صوت من الأعلى! بأن أبتعد وإلا أطلق النار. ابتعدت وأنا لا أرى أحدا.

- أحتاج المساعدة صديقي سيموت قرب النهر. قلت له.

- لست سوريا! من أي البلدان أنت؟ قال.

- من الكويت... أرجوك ساعدنا، لا أنوي شرا. قلت له، وألقيت سلاحي جانباً.

كنت أتطلع لنافذة في الأعلى، فجأة! فُتح الباب وصوت يطلب مني الالتفاف للوراء ورفع يدي عاليا. فعلت ما طلبه مني وبدأ يفتشني، سمعت صوت امرأة مسنة توبخه على فعله وتطلب منه قتلي فورا!

طلب مني بأن لا أستمع لكلام أمه هي خائفة عليه. سرت أمامه على ضوء المصباح وسلاحه مصوب علي، وصلت للنهر ولم أجد بديع! بدأنا نفتش عنه، أضعت مكان صاحبي، الشاب شك في أمرني، سيقتلني إن لم أجد المصاب الذي أدعي.

حياتي أصبحت رهن حياة بديع، سمعت أنينه وهرعت إليه،

مازال مستندا إلى الشجرة. سندته أنا والشاب حتى دخلنا بيته، أضاء نور الغرفة ووضعه على سرير ثم كشف عن ساقه، إذ بالجرح ملتهب جدا، حالته يرثى لها، لا خيار لنا سوى أخذه إلى مستشفى مدينة المشرفة التي تبعد خمسة عشر كيلو مترا. حملناه ووضعناه في السيارة التي كانت خلف البيت، أمه كانت تسير خلفنا مستندة إلى عكاز وتكرر نهيه عن مساعدتنا. لم يعرها اهتماما، ووقفتْ بجانب السيارة، تنهاه... حتى رأت حركةً من بديع لم أنتبه لها أيضا، جعلتها تطلب من ابنها أن يُسرع في مساعدته.

انطلقنا مع بلوج الصباح ورأيت صليبًا معلقًا على المرآة، قطعنا طريقا زراعيا، ضوء الشمس تخلل الغيوم المتفرقة المتراكمة، سلك هذا الطريق ليتفادى النقاط المسلحة للقوات المتفرقة التي عصفت رياحها في سورية.

– شو جابك لسورية؟ سألني وأجاب عن سؤاله بنفسه قبل أن أفتح فمي لأجاوبه.

هل تعتقد أنك أتيتها للمساعدة والنجدة، إن كنت تظن ذلك فأنت واهم! عُد إلى بلدك خيرا لك. لم ينظر لي طول الطريق عندما تكلم.

أخبرته بقصتي مع بديع وكيف وصلنا إلى داره. لم يعرني اهتماما وتوقف أمام مبنى ونظر إلي وقال:

- وصلنا المشفى.

* * *

عاين المختص عينة دمه على زجاجة صغيرة، أخذ يقلبها حتى قرر بالنظر أن فصيلة دمه +B، فصيلتي+Aلا تتطابق مع دمه، بحثت في ممرات المستشفى عن أحد يتبرع ولم أجد سوى عجوز محنية الظهر، شككت في معرفتها لفصيلتها، زعمت أنها تبرعت لكثيرين من المصابين.

فحص دمها على الزجاجة، متطابقة مع دمه، سحب منها ما يكفي لسده حاجته وما يجعلها تقف فيما تبقى من دمها على قدميها، عالجوا جرحه، لم يصب العظم بسوء، يخشون أن يصاب بالأكلة (Gangrene) بعد أن توقف تدفق الدم عن ساقه، نام طول يومه والمغذي والمحاليل موصولة بذراعه.

قدم لي الطبيب الشاب بعض الأكل، من حسن حظنا أن المستشفى وصلته طرود طبية منذ أيام، شكرني على مساعدتهم في معاركهم الدائرة ضد العصابات المسلحة ولم يعجبه انضمامي لجماعتي قائلا... إنها لم تتضح أهدافهم للثوار بعد، يزحفون على المدن والقرى الصغيرة ويتركون المواقع المهمة، علي أن أتركهم وانضم للجبهات الحقيقية أو العودة إلى وطني ويُفضل نصيحته الأخيرة.

ليلتها كنت أمشي في السوق بعد أن اطمأننت على صحة

بديع وأن ساقه تتماثل للشفاء بعد أن عاينها الطبيب مرة أخرى، غدا سيتأكد من امتثاله للشفاء وبرء ساقه.بينما كنت أمشي في الشارع والدكاكين حولي، سمعت صوتا ينادي باسمي وزيادة عليه.

- ضياء الدين. صوت من بعيد.

رأيت شابا في زي عسكري يهرول نحوي مبتسما ثم يحضنني بحرارة، بكى من فرحته بلقائي، اعتقد أنني مت، لم أعرفه لحظتها! تلمس رأسي معتقدا أنني فقدت الذاكرة. أبو الريان.. نعم تذكرته حين أخبرني بلقبه. الشاب السعودي الذي يريد إعادة أمجاد الأمة عن طريق جماعة عِميش. أخذني إلى مطعم قريب وطلب لنا الطعام، سردت له قصتي وسط ذهوله.

- والله إنك محظوظ. قالها.

عِميش دائما يضرب بك المثل ويترحم عليك أمام الشباب، سيفرح حين يعلم أنك حي. قالها وانطلق يزف البشرى لجماعته، رجعت للمستشفى وبت على سرير جوار بديع.

* * *

انتقام...

فتحت عينيْ صباحا ورأيت ابتسامته وهو مضطجع على جنبه الأيمن يشاهدني، العين ترجمان المشاعر الصادقة، لا حاجة لواسطة اللسان ليقول لي:

- شكرا على كل ما فعلته من أجلي.

ابتسمت له والطبيب اقترب من خلفه وابتسم، اليوم ابتسم لنا أيضا حين أخبرنا الطبيب بأن أحد أقربائه الموجودين في السرية التي تسعى لتحرير أسرى حي الوعر أخبره أن أسرة بديع موجودة فيه والشباب يحفرون النفق من جديد بعد أن فُجر وانهار على بعض العائلات.

حُزنه على الموتى لم يُخف انبساط وجهه بنجاة عائلته، سيشاهد زوجته وأبناءه والجميلة ابنته. قطع صوت إطلاق النار الذي قُرب المستشفى حديثه. هرع الجميع لأسلحتهم، حتى بديع قام بإعياء وقبض على ذراعي قائلاً:

- عيلتي في ارءبتك يا ابني.

طبطبت على يده برفق وأخبرته أنه سيرى عائلته قريبا. كلماتي له ودعائي حين كنا في السجن بلقاء أهله استجيب

معظمه. كان مصدر الطلقات جماعة عميش، جماعتي أتت لتهنئتي على النجاة، سمعت صوت عميش الفرِح يتردد عبر أروقة المستشفى، دخل علينا لحظة وضعنا لأسلحتنا، وضمني لصدره ورجلاي تلعبان في الهواء، يضحك بينما ابتسمت ورأيت الطبيب يغادر من خلفه مبديا انزعاجه.

أخبرته بقصتي كاملة، كان من حين لآخر ينظر إلى بديع الذي أرخى على نفسه ستائر الصمت من جديد، إلحاح عميش أجبرني على الذهاب معه إلى جماعتنا، أقسم لي بأن يمد يد العون لبديع، تشبثي بصحبة بديع الرافض للذهاب معنا جرته لأن يقبل ويرافقنا.

ليتَ كلمة المخطئين أظنها لا تنفع مع قَدَرٍ كُتِبْ كنت سبباً من أسبابه، أقدارنا نتاج اختياراتنا، رحمة السماء تتدخل أحيانا حتى نغير الاختيار، أنا من اخترت صحبة بديع مع رفضه الشديد لمرافقتنا، إلحاحي على ذهابه معنا لنقدم له المساعدة اضطره للموافقة.

ليته لم يذهب، ليتني لم أعرفه، وعرفتكِ من قبل أن تسفك الدماء في بلادكِ، أو في أحد الأماكن الجملية والأزمنة السعيدة.

* * *

إلى عين النسر ذهبنا، بلدة صغير احتلتها جماعتي، تبعد عن حمص عشرين كيلو مترا أو أقل، أعدوا وليمة لنا، الكل ما بين مصافح وحاضن لي، بطل في أعينهم، بديع أُدخل إلى عيادة صغيرة في البلدة، رافقه أحدهم فيما أمرني عميش بتناول وليمتي، دارت كؤوس الشاي الأحمر الداكن في أحد البيوت القريبة من مسجد عين النسر، أهداني عميش مسدساً مذهبا غَنِمه من إحدى ضحاياه، أمرني أن أطلق نارا منه، فأطلقت رصاصة انغرست في السقف الخشبي الذي يظلنا، بعدها قمت وتحدثت مع منضمين جدد إلى الجماعة، معجبين بشجاعتي، عودتي حيا أضفت رونقًا على قصتي التي قالها عميش لهم، ضياء الدين لا يتردد في التضحية بنفسه من أجل الجميع. هي كلماته المكررة لهم.

لمست منهم رُخص أنفسهم والتضحية فيها من أجل الجماعة وإن كانت مخالفة لتعاليم ديننا الحنيف، العقوق أبرزها لم يخرجوا برضا من والديهم، أعترف أنني خرجت من غير مشاورة أبي وعققته حين التمستُ العذر لنفسي بأنه لم يشق في تربيتي كما شقي جدي، لم يحضني.. لم يلعب معي.. لم يذهب معي للتنزه.. لم أشعر بأبوته يوما، كنت أستغرب من

وجود اسمه بعد اسمي في الهوية أو حين ينادون باسمي مقرونا باسمه، غريب هو عني. تبدى لي لاحقا بأن الآباء وإن غابوا لا يحق لنا عقوقهم وإن أنكرونا، فَلَذة أكبادهم فيها رحمة ما الله أعلم بها حين أمر ببرهم، عذرت أبي حين وقعتُ في حبكِ، لمست ما لمسه وشعرت بما شعر فيه، جماعتي ولدت من الظلام وتعيش في ظلام، أستذكر قول بديع بأن الدول لا تقوم بهذه الطريقة.

أيدت قوله حين رأيت المنضمين الجدد، كانوا صورة عني حينما التحقت بجماعتي على جهل مني، كيف لدولة أن تقوم على جهل وعدم دراية بحال الأمم؟ قيام دولة يرتفع فيها شأن الإسلام لا يكون إلا بيد قيادة حكيمة، تداري إراقة الدماء. تذكرت مقولة جدي حين نظرت في وجوههم المتعطشة للقتل:

- ديننا الإسلام.. وتحيتنا السلام.. ونبينا بُعث رحمة للعالمين.. مرشدا للطريق السليم لصلاح الإنسان وسعادته.

لم أهضم وأفهم أخباره وقصصه إلا متأخراً حين زججت بنفسي في أتون الصراع الدموي في سورية، كلٌ يريد تنفيذ طريقته، ما بين منتقم.. وثائر.. ومتعصب لرأيه.. ومتمسك

بسلطته.. وسارق لنفط.. وناهب للآثار والدور.. وساع لإقامة حدود الإسلام على مساكين هربوا من جحيم هؤلاء، ليقعوا مرغمين تحت رحمة رعناء الأحلام.

زرت بديع الذي دعوته بلقبه أستاذ كل يوم في العيادة الصغيرة، صحته تتماثل للشفاء، كان يحرسه شابان رغم أنه لا داعي لحراسته، أمرهما عِميش بحراسته حتى يأتيهما أمره، مشتاق إلى رؤية أسرته ويشعر بقلق وبأنه لن يراهم. طمأنته مجددا وأنني سأذهب مع مجموعة لإحضارهم.

* * *

الجميع يحفرون للهروب من الحصار، صغاراً كانوا أم كباراً، أصبحنا كالفئران التي تحفر للهروب من ثعبان جائع، أخبرنا خالد أن نفقاً آخر تقترب نهايته منا، ربما في البناية الأخرى أو شارع قريب من بنايتنا، أم شيماء تردت حالتها كثيرا، تنازع الموت كضوء مصباح قاربت طاقته على النفاد، ليس لي مُعيل، سأصبح يتيمة من جديد وشيماء أيضاً، خالد لن يقر له قرار حتى تستقر سورية وتطرد المجرمين وتلفظهم وتطأهم بقدم ملؤها الجروح مخضبة بالدماء.

حين أَخذت بيدي وهربت معكَ كُنتُ أرى فيك الحياة، تأخذني لأرض الاطمئنان والأمان، مفتديا جسمي بجسمك وروحي بروحك، لن أنسى صنيعك ما حييت، فِعلكَ جعلني أَمَةً لمعروفك تجاهي، كُلما أرى ضياءً كان في ليل أو نهار ترتسم صورتكَ أمامي، بعينيكَ الواسعتين وأنفك المعقوف كمنقار صقر وشعرك الطويل الأسود وعبوسك الجميل في وجهي طول طريقنا، لم أر ابتسامة طويلة منك فقط لمحات، أتخيلها كشمس سطعت على أرض بعد أن غطتها الغيوم وصاحبها وابل ممطر متأبطا ذراع برد قارس، أكتبُ قصتي حتى تعانق قصتكَ في ذلك النفق، توافق عجيب!

قصتان تلتقيان في نفق هو يحفر من جهة وهي تحفر ليأخذ بيدها ويخرجها إلى السطح، إلى الحياة من تحت التراب كميلاد أبينا آدم، كقصة رأت النور بخروجها من الظلام لتحيا حين تُقرأ، ليلة مقدمكَ بكيتُ أنا وشيماء عند رأس والدتها حين نازعت نِزاعها الأخير ورفعت سبابتها متلفظة بالتشهد، لم أجرؤ أن أرسم الصليب على صدري للترحم عليها، بل قمت وأديت الصلاة معهم، شيماء لم تصلي، مانع شرعي حبسها عن الصلاة، فقط دعت لها وهي تبكي.

* * *

بكيتُ تلك الليلة بحرقة والسماء شاركتني بُكائي مُعبرةً عن غضبي وما في صدري برعدها وبرقها كشف عن سوط انتقامي، لم أبك على أحد سواه ولم أحقد على أحد بِقدر ما حقدتُ على عِميش، لو وُزّع حقدي تلك الليلة على من في الأرض لكفاهم، سِرت في شارع عين النسر وعيني لا ترقب إلا عِميش أمامها، المطر يصب صبًا علي والرعد والبرق مستمران في التعبير عن مشاعري، قطرات المطر تتقافز على الأرض، دموعي خلفت عينين كالجمر الملتهب، دخلت البيت الذي فيه عِميش مع إحدى جواريه المغتصبات، دفعت باب الغرفة بقدمي ليسقط مع إطاره، قام عِميش فزعًا مُصدرا صوتًا وسط ظلمة الغرفة، فأطلقت النار بلا أسف... بلا تردد... تلمست الجدار وأضأت مصباح الغرفة فرأيته مصابا في رقبته وجاريته العارية تصرخ وتزحف لتنحشر في ركن الغرفة، مددت مسدسي الذهبي وأطلقت رصاصة لتستقر بين عينيه.

أمران قررتهما تلك الليلة الماطرة... إفناء حياة وإحياء حياة، غضبي وحرصي على إرداء عِميش، يعادل سعادتي وحرصي على إنقاذكِ.

نظرت له حين استندت إلى الحائط، توقف بكائي بمقتله

وهدأ غضبي، مسحت آثار الدموع المتبقية على عيني بكمي، لم ينتبه أحد لصوت النار بسبب هطول المطر الشديد، أخذت اللاسلكي وسلاحه الكلاشنكوف ومفتاح سيارته وانطلقت جهة الغرب نحوكِ، قادمًا من المشرق، من عين النسر التي فقأت عينه لتبقى أخرى تتوعدني بالعذاب والنار.

* * *

الـفـصل الـثـالث

بـيـســان

الحُب للروح.. والأجساد تفنى

أعرف أن طريق حمص في اتجاه الغرب، لكن لا أعرف كيف أصل للثوار؟ لم يكن أمامي غير العودة إلى بلدة المشرفة، لطلب العون من الطبيب. الطريق خال من المركبات بسبب المطر المنهمر، سرت متبعًا اللوحات الإرشادية حتى دخلت شارعها الرئيسي الذي فيه المستشفى، لم أضل الطريق عنه، بابه مقابل محطة الوقود، ركنت السيارة أمامه، ودخلته مسرعًا بحثًا عن عنوان الطبيب.

حظ الإنسان ليس كاملًا في كل شيء، حظوظ البشرية أرزاق موزعة كل له نصيب ما، عدالة كونية تخفى على معظم بني آدم الساخطين والمتمنين حظوظ الآخرين، الحظ كان إلى جانبي منذ أن دخلت بلادكِ حتى عثرت عليكِ، عثوري عليكِ هو نجاتي بقدر ما كانت نجاتك، وقوف حظي طول الطريق إليكِ وانبطاحه لم يكن عند رؤيتي لكِ بل ما بعد ذلك، مُتسائلًا هل سيقف مجددًا إلى جانبني؟

دب الأمل في أوصالي حين عثرت على الطبيب، فاجأته بتوسلي إليه بأن يوصلني إلى الثوار الذين يحاولون مساعدة المحاصرين، وقف مشدوها لحظةً! من توسلي وطلبي بأن يزج نفسه لمساعدتي.

كان يقود السيارة ويكلم أحدهم عبر الهاتف، طالبا منه أن يلتقيا في أقرب نقطة للوعر من بلدة الدار الكبيرة. وضع يده على كتفي وهزني فيما كان ينطلق عبر حقول أرى لونها الأخضر حين يبرق البرق. يحب وفائي، ومعجب بشجاعتي حين قتلت عميش، هذا ما كان يحذرني منه، سفهاء أحلام هم، لا ذنب لي فيما صنعوا، خُدعت وقتها. كما يقول.

اعتصرُ قبضتي بشدة كلما تذكرت ما صنعته. دخلنا بين ركام وبيوت آيلة للسقوط، كشف البرق عنها، شككت أنها سُكنت يوما، سيارة ترسل ضوءا متقطعا لنا، رد عليه الطبيب سامر بثلاث إشارات ضوئية. تعانقا حين ترجلا واكتفيت بالمصافحة وأنا في السيارة، بعدها تبعناه حيث توقفنا داخل بناية محترقة فيها مسلحون رحبوا بنا.

مشيناً مسافة خمس دقائق والمطر مازال مستمرا في هطوله، دخلنا مخزنا كبيرا فيه كومات تبن خلفها رجال يحملون الرمل ويلقونه خارجا، سلسلة من المصابيح ممدودة في النفق، بدأت في مساعدتهم ولم ألتفت لمن سألني أو من أراد مصافحتي! سامر قام بإطلاعهم على أمري، حفرت معهم بكل ما أوتيت من قوة، وسط استغراب بعضهم من اهتمامي الزائد وكأن

أبنائي مردومين تحت التراب.

ساعات مضت وأنا أسابقها حتى سمعت من الجهة الأخرى صوت حفر وبعد برهة ضحكات وبكاء ثم انهال التراب بيننا.

حشرت جسمي ودخلت في حين أكمل من خلفي توسعة الفتحة، كان الممر طويلاً وظهري منحنيا بسبب ارتفاع النفق الذي لا يتجاوز مترا ونصف المتر، سبقني أحدهم يمد المصابيح وصوتي يتردد...

- أين عائلة بديع الحمصي؟ قلت بصوتٍ عال.

صوت نساء ورجال وأطفال فرحين بالفرج وانقضاء محنتهم، ينقلون بصوت عالٍ:

- عائلة بديع الحمصي... هناك من يسأل عنكم... أين أنتم؟

* * *

تبادلنا النظر أنا وشيماء والغرابة تملأ وجهينا!

- نعم من يسأل؟ قالت شيماء.

مع جوابها وسؤالها دخل شاب يحمل مصابيح لِيُضيء المكان ويجلو الظلام، رأيت طفلا وعجوزا يشيران إلى شيماء:

- هنا عائلة بديع الحمصي. قالها الطفل.

رأيت شابا طويلا يخرج من النفق وخلفه شباب خرجوا وبدأوا يساعدون الناس، رأى الطفل والعجوز يشيران إلينا فتقدم نحونا وسلاحه على ظهره، مرتديا معطفاً مموهاً وجهازًا لاسلكيًا باديا من جيبه، اقترب من شيماء وقال بلهجة أهل الخليج:

- إنتِ بنت بديع؟ وين أُمك وإخوانك؟

نظرت شيماء لي باستغراب شديد! وقالت:

- مِش أنا بِنتُهْ هاي بِنتُهْ.

أمسك ذراعي وسألني؟ أجبته... نعم أنا!

طلب مني أن أصحبه وأنا مدهوشة من تصرفه! فاعترضه

خالد... من أنت؟ وما شأنك بها؟ لن ترحل معك لأي مكان ستظل معنا.

رأيت حرصكَ على اصطحابي بعد أن أخبركَ خالد أنه ليس قريبا لنا، كان مجرد عامل عند أبي. بدأا يتشاجران وسط الناس الذين فرقوا بينهما، ليعودا للشجار وكأنهما طفلان تخاصما على لعبة. طرحكَ خالد أرضا واضعا فوهة السلاح على جبينكَ، نازعًا منكَ سلاحكَ وجهازك اللاسلكي. وأنت تقول بأنكَ لن تتزحزح إلا وأنا معكَ ولو قتلكَ. سمعتكَ تقولها له بكل قوة وصدق.

أحسست بحرصكَ على سلامتي ثم كذبتكَ حين قلتَ إن أبي من طلب منكَ مساعدتي وحَمّلَك مسؤوليتي. نظر خالد إلي! ورآني أهزُ رأسي نافية قولكَ، فألصق فوهة بندقيته في جبينكَ وكذبكَ وأراد قتلكَ، لولا تدخل الشاب الذي أخبرنا حقيقة قصتكَ وأنه قام بمعالجة والدي بنفسه.

انطلقت للشاب، أمسكت ياقة قميصه بشدة مُكذبة زعمه... وصف لي شكل أبي، عينيه الرماديتين، حاجبيه الدقيقين، العلامة التي على أنفه وكأنها بفعل عملية ما... وصفهُ لي وكأني أراه إلا أنه نحيل!

– أبي ممتلئ الجسم. قلت بشرود بعد أن تركت قميصه.

السجن امتص بدانته. قالها الطبيب سامر بعد أن عَرّفنا على اسمه فيما كان يعيد لكَ سلاحك ويبعد خالد عنكَ.

❊ ❊ ❊

ليتهُ قتلني... ألم الرصاصة ثوان وألم الحب أعوام، ألم الحب يُزلزل الجبال يجعل الإنسان يتقلب في الفراش متألما بلا مرض أو إصابة ما... قلبه مُنقبض مخنوق يكاد يتوقف عن النبض عند فراق من يُحب، يُعرف العاشق المُحب من كثرة تأوهاته وهو سليم وكثرة شروده وترديده لاسم محبوبتهِ، أتذكر مقولة جدي عن حُب أبي لأمي:

– قلة الذين أَحبوا بصدق ذلك الحب الذي ينبع من الروح، قَلقتُ من ذلك الحب، خشيت أن أفقد والدكَ، فالتعلق الشديد بأي شيء نهايته مدمرة.

أو كما قال عبدالله حين قصصتُ عليه قصة والديّ:

– الحُب كالموت ينزل فجأة! الحُب لا يطرق الأبواب إنما يقتحمها ويحطمها مهما كان نوعها.

ساعتها لم أنتبه لكِ، كنت أريد أن أَبُر بقسمي لبديع رفيق دربي ومعلمي الثاني بعد جدي، كدت أُجيبكِ حين سألت أين هو؟ هل نجا مع أمك وشقيقيك؟

إلا أن الطبيب سامر تدخل عندما أخبرك أن والدك ينتظركِ في تركيا وهو مصاب يتلقى العلاج. ثم سألكِ أين كنت ساعة

انهيار البيت عليهم؟ وأجبته بأنكِ غبتِ بِضع ساعات لإحضار الطعام.

تعليل سامر أقرب للصحة... ربما خرج من البيت بحثًا عنكِ ساعة اعتقاله حين كنت تحضرين الطعام، والدتكِ وشقيقاك لا بد أنهما تحت ركام البيت، ضياء خير شخص يوصلكِ لبر الأمان، يثق فيّ ويعرف مدى صدقي ووفائي. قالها لكِ.

أشفقتُ عليكِ حين جثيتِ وأطرقتِ برأسكِ، رأيت دموعكِ تنزل على خديكِ كاشفةً عن خطٍ أبيض كلون اللبن كان تحت الغبار والتراب، وعن عينين سوداوين تتلألآن حين رفعت رأسك نحوي، تلك اللحظة أحسست دون من حولي بزلزال، شعرتُ أن قلبي الذي دُفن مع جدي انتفض ليخرج وينطلق بالسرعة التي مثل فيها عرش بلقيس أمام سليمان لينبض بحبٍ لم أشعر فيه لحظتها كمصاب لم يشعر برصاصةٍ اخترقت جسده فيما كان يهرب حتى أحس بتهاوي جسمه بعد حين. جدي قال:

– الحُب الفريد أمده قصير ونهايته حزينة دائماً، طريق سعادة الروح بالعبادة وحدها وغير ذلك الطريق عذابها وهلاك الجسد الذي يحويها.

لم أعِ مقولته تلك، من لم يجرب كيف له أن يحس، لا شك عندي بأَن خلايا جسمي كلها تحمل اسمكِ بيسان، أن روحي عشقتكِ وتعلقت بكِ، هذا هو الحب الروحي المحظور والذي أمره لا يتم، قصص جدي جعلتني أتراجع للوراء قليلًا، لأداري هذا الحب، لأجاهده وأخفض درجته لحب عادي حتى يستمر، هيهات.. هيهات.. كيف له أن يستمر عندما تكملين القصة، إلا إذا غفرتِ لي وطويتِ ماضيا أسود في حياتي وحياتكِ، مقولات جدي لا تنفك عن مخيلتي وكأنهُ يروي لي قصة مستقبلي لا ماضي عبره حين قال:

- الحُب الشديد عقباته شديدة.

فهمتُ من تكرار جملته (اللي ما يعرف ماضيه يضيع تاليه) أن الذي لا يتعلم من الماضي حتما سيُضيع مستقبلهُ بعد أن يتوه في حاضره.

* * *

الطبيب سامر أقنع خالدا بأن يوافق على مرافقتها لي، بعد أن أخذهُ جانبًا وأخبره بما لا علم لي فيه. أخبرنا أحد الأشخاص بأنهم فتحوا النفق الآخر قرب بناية مقابلة، أمرنا عندها خالد بأن ننقسم إلى قسمين، حتى يسلم قسم في حالة تفجير أحد الأنفاق. ذهبت ومعي بيسان وسامر إلى النفق الجديد، خالد أخذ شيماء معه بعد أن عانقت بيسان وانتحبتا.

خرجنا إلى البناية الأخرى حيث النفق في ساحتها الخارجية، لم يكن همي إلا سلامة بيسان، لم أكترث للبقية، نزلت أول الناس في النفق، وأمسكت بخصرها حين دلوها علي من الأعلى، كادت رؤوس أصابع يدي المطوقتين لخصرها أن تتلامسا! أسرعت الخطى ممسكًا بيدها عبر نفق أعلى ارتفاعًا من الآخر، عشرون دقيقة استغرقناها حتى اقتربنا إلى نهايته، عندها اهتزت الأرض اهتزاز شديدا، سقطنا أرضا، تناثر علينا التراب محدثا غبارًا كثيفًا في النفق، رأيت الضوء نهايته، يدي لاتزال قابضة على يدها رغم سقوطنا، ركضت بقوة وهي خلفي حتى وصلنا، صعدنا سلمًا لنخرج، رأيت سامرا يخرج خلفي وينفض الغبار عن وجهه ثم توافد الناس خلفنا بعد دقائق، منهم من يسعل وآخرون ينفضون الغبار عنهم، كنا في

قبو بناية، أخبرنا من فيها أنهم سمعوا صوت انفجار، ربما النفق الآخر فُجر، لا تصلهم إشارة ممن فيه.

غادرنا المكان رغم تردد بيسان وحبها للاطمئنان على الجميع خاصة شيماء وخالد، لم أكن قاسيًا حين شددتها بقوة وسارت معي، سامر يؤكد أنهم سينجون. ذهبنا إلى السيارة المركونة في البناية المحترقة. اعتذر سامر عن مرافقتنا مخبرا إيانا أنه سيعود لعائلته.

– عليك أن تنطلق في السيارة نحو هذه السهول. أشار سامر نحو الجهة التي يقصد. وأكمل قوله.

حتى يعترضك شارع زراعي، المطر سيسترك عن أعين الرصد، عليك السير شمالا حتى تحاذي بلدة صغيرة عن يمينك، بعد أن تقطع كيلو مترا منها، اتجه جهة الغرب، محاذيًا نهر العاصي الذي سيكون يمينك، ثم انحدر لبلدة حر بنفسه، واسلك الطريق الشمالي منها، الذي سيقودك إلى مدينة حماة حيث ستجد المساعدة والعون من الثوار.

انطلقت وأنا أدعو له بالخير على حسن صنيعه معي، أكد علي قبل انطلاقي بألا أتعدى أول قرية، يجب أن أسلك الطريق

الغربي، إذا أكملت السير سأقع على جسر النهر العاصي المتمترس عليه عصابة مسلحة.

عند انطلاقنا شعرت بشيء غير نظرتي للحياة، أحسست بنبضات قلبي فلم أعبأ وأحفل بها. اخترقنا الحقول الزراعية كما اخترق صوت المحرك سكون المكان عندما يدفع العجلات لتقاوم الطين، وصلت للطريق وأكملت السير حتى رأيت أمامي ضوء متقطعا، كنت ساعتها قد مررت البلدة الصغيرة ولم أنتبه لها، واتجهت للجسر، رأيت ثلاثة مصابيح تضيء تارة وأخرى، إشارة منهم بأن أتوقف. علمت أنني اقتربت من الجسر، دعوتُ الله سرًا بأن ينقذنا من شرهم ويسلمنا.

طلبت من بيسان أن تنزل للأسفل وتحتمي، خففت من السرعة موهمًا إياهم بالتوقف، المطر أخفى معالمي ومعالمهم، لا أرى شيئا خلفهم بعد أن خفضت الضوء العالي، توقفت وحين اقترب أولهم دست بقوة على دواسة الوقود! لتنطلق السيارة وتضرب مرآتها الرجل لتلقيه طريحا، رفعت الضوء العالي، لأرى رجلين يفران جانبا وأصدم أحدهما، ثم تصطدم السيارة بأكياس الرمل.

رأسي ضرب المقود بقوة مما جعلني أشعر بدوار، استجمعت تركيزي ورجعت للخلف وتخطيت أكياس الرمل وانطلقت بسرعة فوق الجسر، بيسان تصرخ، البرق أضاء لي الطريق لأرى شيئا يسده، عاد يبرق مجددا لأرى في لمح البصر دبابة معترضة، ثقبان رأيتهما في الزجاج الأمامي بعد أن تهشم الزجاج الخلفي جراء رصاص أطلق علينا من الخلف، نموت ولا نقع في أيديهم. قلت في نفسي.

مما دفعني لأنحرف بالسيارة مصطدمة بعارضة الجسر، انقلبت رؤيتي عند انقلاب المركبة، صوت صراخ بيسان يملأ أُذني، ارتطمت السيارة بالنهر لتغرق بسرعة والماء ينساب من كل جهة علينا، طلبت منها أن تأخذ نفساً عميقاً ثم حملت سلاحي وسحبتها نحو الزجاج الخلفي المهشم لنخرج منها، سعلتْ حين طفونا على السطح، لا تجيد السباحة. تقول بذعر.

أحكمت ذراعيها حول رقبتي بشدة مما جعلني أفقد سلاحي، ظلام الليل وتكالب الغيوم سترنا عن قنصهم لنا بالرصاص بيسر وسهولة، والتيار الشديد دفعنا بعيدا عنهم. سبحت في عتمة الليل وسواد النهر نحو المجهول لعلي أجد ما أتعلق به قبل أن

تنهك قواي تماما، عُمت حتى لامست يدي الحجارة، اقتربت أكثر حتى وصلنا إلى الشاطئ، التعب جعلنا نحبو نحو الشجر لنستند إلى إحداها، الظلام والبرد الشديد جعلاها تلتصق بي، كل شيء في حالة البرد القارس ينكمش حتى لو كان اثنان لا يعرفان بعضهما، سيجبران على الانكماش من أجل الحياة. حضني لها لم يمنحنها الدفء مما جعلها تنتفض فقمنا وسرنا نبحث عن مكان يؤوينا، وجدنا بيتا صغيرا، طرقت بابه رغم أنه بدا خاليا، لم يكن مقفلا حين ضغطت على مقبض الباب، دخلت وبحثت عن أي شيء يقينا البرد فوجدت بطانية على أريكة، أخذتها ونفضتها ثم غطيتها بها وطلبت منها أن تسترخي على الأريكة وتنام.

تفقدت المكان ثم رجعت لأقعد على الأرض مستندًا إلى الأريكة، متحسسًا على مسدسي الذهبي في جيبي، لا أعلم كم طلقة فيه، ارتحت أنني لم أفقده كما أحسست بهدوء وراحة حين رأيت خيالها بقربي.

– ها قد أنقذت ابنتك بيسان، لِمَ لَمْ تخبرني أنك مسيحي لِم؟ قلتها في نفسي.

قاومت النوم كمن يقاوم تيارا قويا يسحبه نحو شلال، سقطت مرغما في عالم الموت الصغير. رأيت إطلاق نار... وانفجارات حولي أنا وبيسان، ممسكًا يدها، هاربين من شيء يطاردنا بجنون، رأيت بديع يسار الطريق وجدي يمين الطريق، يلوحان لنا وكأنها يقولان: انظر خلفك!

التفت للوراء إلا أن يد بيسان لمست رأسي لتعيده.

استيقظت على يدها تحرك رأسي، مُعتذرة بأنه كان منحنيا جدا فأرادت أن تسنده إلى طرف الأريكة.

- لا عليك. قلت لها.

خرجنا ورأيت الشمس في كبد السماء، ثم نظرت للبيت الصغير المطل على النهر الذي آوانا، ذهبت بيسان إلى النهر وغسلت وجهها وشربت من الماء، وقفت خلفها أتطلع في شعرها الأسود الطويل وعباءتها الفضفاضة المتسخة،الجسر الذي وقعنا منه غير بعيد عنا، اضطرب قلبي حين نزعت عباءتها وبدا لي البنطال والقميص القطنيان الضيقان اللذان حددا معالم جسمها وتعرجاته المؤدية للهلاك وشعرها المرسل خلف ظهرها، خفق قلبي بشدة وشعرت أنه سيختنق بنبضاته

المتلاحقة، أقسم أنه وقف ثواني عن الخفقان حين استدارت ورأيت وجهها البيضاوي والأنف المستقيم الصغير وفما كلون التوت الأحمر حين نضجه وعينين واسعتين ناعستين، كدت أفتح فمي لولا تشنج عضلاته التي منعته عن التعبير عما بداخلي.

هل الشمس نزلت أمامي بلا أثرٍ لحرارتها إلا أثرها في قلبي، أم هي حورية من السماء! الجمال طوق ومفتاحه الكلام، حين تكلمت قائلة:

- هل هناك شيء.

نغمة ما صاحبت صوتها، لها وقع الجرس ورنينه، ليس كأي جرس، إنما هو جرس الحب، نغمةٌ خاصةٌ يعرفها العشاق فقط وحدهم، من لم يشعر بتلك النغمة فعشقه ليس إلا اختلاق، حين رن أثره على قلبي أحسست أني فقدته مرة أخرى، كان مدفونا مع جدي، ليصبح مُلكا في يدها، أصبح من نصيبها كجهاز سيطرة لا سلكي، أنا المستقبل لأوامره.

تداركت أمري بسرعة وأخبرتها أننا سنمكث إلى الليل ثم نتحرك باتجاه حماة. لم ألتفت لسؤالها عن أبيها؟ تحاشيت

النظر إلى عينيها الجميلتين بسبب أمرين...

فتنتهما وندمي حين أنظر إليهما وكلاهما يقتلني، يدمي قلبي الندم والحب.

حلاوة الحُب مَرة ومرارته ألف مَرة، ذكريات الحُب تُحلي مرارة الفراق. كل شيء يموت أمامي غير أنني أصررت حين رؤية عينيها على تخليصها وإخراجها من هذه الغابة المتوحشة، لا مكان للجمال بين الوحوش، سيفترسونها كما تفترس حشرات جائعة وردة يتيمة في صحراء.

تكرار سؤالها عن أبيها؟ جعلني أخبرها أنه مصاب وينتظرها في تركيا. فرحت وقفزت كقطة جميلة تلعب وهي تقول: لا بد أنه عند عمتي.

أخبرتني ساعتها أن عمتها تسكن في تركيا منذ سنين وتعرف رقم هاتفها. قفزاتها جعلت قلبي يقفز أيضا وكدت أقفز معها. يا لِحال المحبين كم هم ضعفاء أمام الحب. رأيتها تعود للنهر وتغسل عباءتها ثم تسبح بملابسها، دخلت للبيت وأحضرت البطانية ووجدتها قد خرجت وهي ترتعد، لففتها حولها وقعدنا

على العشب الأخضر.

نظرت لي وأمطرتني بعدة أسئلة... كيف؟ ومتى؟ وأين تعرفت على أبيها؟ وكيف أصيب؟

استلقيت على ظهري لتستلقي هي أيضا، أشحت بوجهي عنها حين اغرورقت عيناي بالدموع، طالبا منها عدم السؤال، مهمتي أن أوصلك إلى تركيا حيث تلتقي بمن يرعاك.

* * *

قطفتْ ثمراً أخضراً من شجرة قرب البيت، أرغمنا الجوع على أكله رغم مرارته الشديدة، أطلعتني بيسان أنه ثمر الخوخ. في بلادي تأتينا الفواكه من أنحاء الأرض، لا نعرف شكلها قبل نضجها ولا شكل شجرها، بلادنا قاحلة لا يحتمل مناخها غير شجر النخيل وليس في كل مكان منها يعيش، لم أعرف شكل ثمرة الخوخ قبل نضجها، تعودت عليها حمراء أو صفراء ناضجة. التهمنا عشر حبات منها واستلقيت على الأرض أستشعر دفء الشمس رغم برودة الجو، أرعبنا صوت آليات تقترب، قفزت من مكاني وابتعدنا عن البيت، اختبأنا بين الحشائش والشجر، رأيت جنديا يقترب من البيت ويدخله وآخر يدور حوله وصوت دبابة تتحرك مهشمة الشجر، خرج من البيت واتجه إلى النهر ووجد عباءة على الصخرة، نظرت لبيسان وهي ببنطالها وقميصها، نَسيت أن تأخذ عباءتها. ألقاها الجندي في النهر لتسبح مع تياره وصاح في زملائه إن صاحب السيارة غرق هو والمرأة. ثم رحلا عن المكان.

بقينا في مكاننا حتى حل الليل ثم مشينا بمحاذاة النهر. بدأ جسمها يرتعد من البرد فنزعت معطفي وألبستها إياه رغم ممانعتها، لن يقيني شيئا من البرد. قالت. كدت أقول: أستشعر

الدفء حين أنظر لعينيكِ.

متسائلاً في نفسي... كيف أحببتها بهذه السرعة؟ هل ما أشعر به نحوها شهوة مستعرة؟ أم هو الحب فعلا؟

واصلنا سيرنا بين بيوت مترامية، مبتعدين عن الطرق المعبدة، مررنا على محل مغلق كُتب على يافطته صيدلية الزارة. مشينا تارة وهرولنا تارة أخرى، لم أنسَ مقولة بديع.. بأن النهر يجري ناحية الشمال وحماة في الشمال. يد بيسان الممسكة بيدي تبث القوة في جسدي، أحسست بنشوة وهي تسير بجانبي، شعور لم أعهده وكأن الجنة قد وهبت لي في الدنيا، وددت لو أحضنها إلى صدري، لا يكفيني قربها مني وقبض يدها، أرى جمالها يتلألأ على نور القمر رغم أنه في تربيعه الأول، لم يكتمل بعد، شعرها المرسل والمعطف الواسع الواصل لمنتصف فخذيها زادها جاذبية في عيني. سرنا حتى أرهقنا التعب وبدأت أنتفض من شدة البرد، بَقيت سبع ساعات حتى أكمل أربعا وعشرين ساعة منذ رأيتها، إلا أن قلبي أعلن إلى عقلي بلا شك أنه وقع أسيرها، موظفًا كَوْنِيَ لها.

– ماذا بك؟ صرخت حين انتفض جسمي فجأة!

استوقفتها حين أرادت نزع المعطف لألبسه، سمعت صوتا من بيت على ربوة، يدعو الله... توجهنا إليه وكلما اقتربنا ارتفع الصوت:

المجد للهِ في العُلى.

وعلى الأرضِ السلام.

وفـي الناسِ المسرَّة.

نُسَبِّحُكَ. نُبارِكُكَ. نَسجُدُ لكَ. نُمجِّدكَ. نشكُرُك لأجلِ عظيمِ مَجدِكَ.

تقدمنا أكثر حتى وصلنا إلى الباب فترددت في طرقه حين سمعت:

أيُّها الربُّ الَملِك، الإلهُ السماويّ، الآبُ القدير.

أيُّها الربُّ الابن الوحيدُ يسوعُ المسيح.

ويا أيُّها الرُّوحُ القدس.

أيُّها الربُّ الإلِه، يا حَمَلَ الله، يا ابنَ الآبِ الرَّافعَ خطيئَةَ العالَمِ ارحمنا، يا رافعَ خطايا العالَم.

تَقَبَّلْ تضرُّعَنا أيُّها الجالسُ عن يَمينِ الآبِ وارحمنا.

انقطع الصوت حين طرقت بيسان الباب بشدة، وأنا أتراجع للخلف وأسقط فاقدا للوعي حين رأيت شبح رجل يخرج.

❊ ❊ ❊

أظلنا الموت بجناحيه حين أطلقوا النار علينا وأيقنت أننا ميتان ولا مفر منه حين وقعنا في النهر، التصقت بك وخنقتك بذراعي، أذكر أنني شددت شعرك فلم أجدك تتأوه، وحده حب الأم الحنون لوليدها الذي يجعلها لا تتركه في حالتنا تلك، أنت لست أمي ولا أبي فما دافعك لما فعلته من أجلي؟ تساءلت يومها.

رأيتك حين استيقظت مستنداً بجانب الأريكة، علمت أنك كنت تحرسني كملاكي، انتبهت لانبهار عينيك ساعة غسلتُ وجهي ونظرتُ إليك، علمت أنه الإعجاب والانبهار بجمالي القاتل المشؤوم، لا تدوم علاقتي مع أحد، تحملك للبرد وأنت تسير بجانبي غير نظرتي، شعرت أن الشؤم زال بوجودك.

أبي الذي منعني من صحبة مُسلم، يتراجع عن قراره ويستأمن مسلمًا على ابنته ويطلب منه إنقاذها! لم يطل شعوري في رحيل الشؤم عني حتى عاد مسرعًا حين سقطت أمام باب الكنيسة.

عندما حملك القسيس ومساعده الذي نُطلق عليه لقب الشّماس للداخل كان جسمك ينتفض وكأن كهرباء تصعقك، حرارتك كانت مرتفعة جداً، أدخلوك ووضعوك في حوض الاستحمام، فتح القسيس الصنبور البارد، وأخذا يصب على

رأسك الماء، رآني الشّماس أرسم الصليب على صدري.

– هما مسيحيان يا أبانا. قال.

لم يعبأ لقوله وقام بواجبه ثم نقلاك ووضعاك على سرير وعلى رأسك فوطة مبللة وبقربك إناء ماء بارد، سقاك القسيس دواء مضادا للحرارة. أخبرتهما أنك زوجي. لا أعرف ما أقوله.

ظللت بقربك، أغير الفوطة كلما سخنت، أحضر لي الشّماس بعض الطعام، لم أرغب في تناوله لولا إلحاحه علي، رجع بعد ساعة للاطمئنان علينا، لم ألحظ عينيه المركزتين علي حتى انتبهت لإصبعه حين غفوت بقربك لامسا خدي، استيقظت مذعورة، حمدت الرب أنني لم أنزع معطفك الذي ستر جسدي عن عينيه المنذرتين بشهوة جائعة.

لبثت يومين وأنا أطببك مع القسيس، متحاشية تحرشات الشّماس التي بدأ سقفها يرتفع، استيقاظك هو ما خفض سقفها وأشعرني بالقوة حين بدأت تتعافى، أتيت لك بالدجاج والأرز عندما أحضرها أحد جيران الكنسية للقسيس الذي ناولها لي، لم أذق طعمًا للطعام إلا معك ساعتها.

* * *

تناولت الأرز والدجاجة مع بيسان حاكية لي ما حدث إلا انتسابها زوجة لي. كانت ستفرحني لو قالتها.

تبقى النفس ضعيفة بعد تعافي الجسم، تحتاج وقتًا لتتعافى أيضا، إلا أن قربي منها شحذ قلبي فارتفعت همتي ونشاطي سريعا. شكرت القسيس على حسن صنيعه معي وصدمت الشّماس حين دخل علي ووجدني أصلي!

طلبت من القسيس أن يساعدنا للوصول إلى حماة، أطرق مليا ثم طلب منا أن نحضر لمكتبه.

عاش في هذه الكنيسة.. كنيسة المحبة منذ أن كان يتيمًا حتى تولاها، عاش بسلام ومحبة مع المسلمين حتى حضر أهل الخليج المتشددون الذين لا يرون للكنائس أن تقام، أسلافنا لم يزيلوها وهم أقرب الناس للرسالة ومعرفة الإسلام.

نحن لسنا إلا جهلة، لا فرق بيننا وبين الصليبيين الذي غزوا هذه البلاد، شكل التعصب الديني واحد وشعاراته مختلفة، كل متعصب أعمى، رسنهُ الهوى وراكبهُ الشيطان، سيسمح لي بالمغادرة وحدي وستمكث بيسان عندهم، سيتولى إيصالها بنفسه، زواجها مني باطل لا تحل لي، هي مسيحية وأنا مسلم،

ربما استغللت ظروفها وتزوجتها...

نظر القسيس إلى بيسان معاتبًا حين قطعت حديثه وأنكرت أنني تزوجتها. معتذرة عن كذبتها وأخبرته بالحقيقة وأنها فعلت ذلك حتى يساعداني.

كان سيساعدني كنت مسيحيا أو مسلما، يرحمون البهائم ويساعدونها فكيف بالبشر؟ سيوصلني لحماة من غير أن آخذها معي. قالها بحزم.

كنت سأرتاح من عناء وعدي لبديع فقد وعدته بتخليص عائلته من الحصار، لا إيصالهم خارج البلاد بيد أني أحسست بفقدان كياني وروحي وقلبي حين قال:

- ستبقى في الكنيسة وسيتكفلون بها.

كانت حياتي مع جدي باهتة اللون، وعند رحيله أظلمت لا لون لها، وحدها بيسان أعادت الألوان لها وأصبح طعمها لذيذا، حتى الهواء أصبح مختلفا منذ أن نظرت إلي بعد أن غسلت وجهها من مياه النهر العاصي.

- لن أتركها وسترحل معي وأنا متكفل بها حتى ولو رفضتْ. قلتها بحدة.

رأيت بيسان تبتسم بشدة وكأنها أيدتني، نظر لي القسيس بتفحص وأراد قول شيء... صوت صرير توقف الإطارات قطع كلامه. طلب منا الاختباء خلف الطاولة وعدم مغادرة المكتب، خرج بهدوء ونظر إلينا ونحن نختبئ ثم أغلق الباب. تحسست مسدسي، ليس في جيبي، سمعته يتحدث مع شخص ثم مع آخرين، صوت المركبات تنطلق مبتعدة عنا، عاد القسيس وأثر الفزع بادٍ على وجهه، أخبرهم أننا توجهنا نحو سهل الغاب، الشّماس من أخبر العصابة بأمرنا، لا يعلم سبب تصرفه من غير أن يستأذنه؟ طلب مني البقاء إلى الليل.

بعد ساعات عاد الشّماس والغضب يملأ كيانه، صوته يوحي بذلك، بحث عنا في كل مكان ولم يعثر علينا.

– من الكويت قدم وقتل عميش شقيق أبو النار، لو علم أننا ساعدناه سيهدم كنيستنا على رؤوسنا، أبو النار نشر أعينه للبحث عنه وعن الفتاة. قالها الشّماس.

كيف علم أبو النار عن الفتاة بيسان؟ تساءلت... بل ما علاقته بالشّماس؟ لا بد أن له علاقة بالعصابة المسيطرة على بعض سورية، أذهلتني سرعة وصول الأخبار إليهم عني وعنها، أخذت أدير الأمور في رأسي حتى تذكرت أغنية حفظتها

وأغرمت فيها عندما قُدت أول سيارة لي:

يا أنا يا أنا أنا وياك

صررنا من اللإصص الغريبة

يا أنا يـا أنـا ويـاك

و إن سرأت مكاتيبي

وعرفوا إنك حبيبي

وعرفوا إنك حبيبي.

هي أغنية حياتي كما كنتِ جوهرها في قدري المحفوظ.

❋ ❋ ❋

استيقظت حين دخل القسيس علينا فجراً، محضراً طعاماً ولباساً لبيسان التي أيقظها بنفسه، لا يثق بالشّماس، رأى منه تعلقا بالفتاة! يتحدث عنها كثيرًا، ضرب إناءً أمامه بغضب حين تحسر على فقدها، ليست بأمان هنا، لذا سيسمح لها بمرافقتي.

طلب من بيسان أن تغير ملابسها في الحمام الملحق بالمكتب، ما إن دخلت وأغلقت الباب حتى أطلق العنان لحنق يضمره، يخشى على الفتاة من الوقوع في قبضة العدو فتصبح سلعة رخيصة بأيديهم، بلاده فقدت الأمن، والنظام يتهاوى شيئاً فشيئا، الأثر الذي يترتب عليه تقسيم سورية إلى قسمين، قسم سيضم له المدن الرئيسة، ما عدا حلب التي سيستميت النظام لضمها، دمشق وحمص والساحل الشرقي ستصبح من نصيبه بموافقة دولية والقسم الآخر هو ما تبقى من سورية المنكوبة، ولن يحدث هذا حتى يجد صناع القرار السياسي لعبة دماء جديدة، توفر الحركة الاقتصادية لبلادهم التي تُسَيّرهُ مآسي ودماء الغير، لا يرى أن علي أن أستمع لما يقوله لي...

فاللعبة الدولية كبيرة جدًا، ليس على شاكلتي أن يستوعبها. لم أنزعج مما قاله، تركته يخوض في حديثه، فحاجتي له ماسة

الآن. نزع نظارته ووضعها على الطاولة، ذاكرًا أنه رأى في عيني الشهامة. قطع كلامه حين سمع صوت حركة بيسان في الحمام ثم أكمله... مُحرم زواج المسيحية بالمسلم إلا إذا دخل دينها وهو يعلم أني لن أتخلى عن ديني رغم حبي الذي ينبع من عيني تجاهها. قاطعت حديثه وأنكرت حبي لها.

– جئت لنجدتها فقط بعد أن وعدت أبيها. قلت له.

لن أنسى ابتسامته المتهكمة وهو يهز رأسه... قائلا: الحب الصادق كالشمس لا يحتاج إلى دليل.

يرى أن حبي صادق لها وهي غرة صغيرة لم تفطن لذلك بسبب فقدها لأهلها ووطنها، ستراه جليا حين تجد الأمن والطمأنينة حين تتذكر نظراتي لها.

عاد وارتدى نظارته بعد أن فرك عدستها بطرف قميصه، ثم طلب مني أن أقسم بالله إنني لن أتزوجها وإلا لن يقدم لي المساعدة.

ترددت عن قولها ساعتها، خوفي عليها هو ما دفعني لأن أقسم بأنني لن أتزوجها. رغم إحساسي ويقيني أنني أحبها إلا أن مشاعري لم تتضح بعد، ينقصها اتحاد قلبها مع قلبي ليتكون

الحب كاتحاد عُنصري الأوكسجين والهيدروجين ليكونا سِرّ الحياة.

استرخى تقطيب حاجبيه حين وعدته... مُعربا أنه يثق بوعدي له، وجهي يدل على مدى صدقي.

بعد أن هدأ تشنجه، أخبرني... أنه زار الكويت وأقام فيها أشهرا منذ بضع سنين، بلد كريم متفتح. وضع رجلا على رجل وتطلع إلي لحظات ليكمل حديثه... العرب أطفال صغار ينخدعون بسرعة للقصص المختلقة، فيصنع لهم الغرب لعبة سياسية يدفع أذاهم عنه ويشغلهم فيها حتى إذا ما ملوا اللعبة صنع لهم غيرها، نحن الخليجيين جيل النفط لم نذق شظف العيش، نظل أطفالا صغارا حتى وإن اعترانا الشيب، خروج بعض الكويتيين للشارع متظاهرين ومطالبين برئاسة حكومة شعبية بدل الأسرة الحاكمة، أضحكته حتى استلقى على قفاه، نطالب بالحقوق من الدولة ولم نؤد حق الدولة علينا! الطفل دائماً متناقض ونحن أشبه بالأطفال، يؤكد لي أننا أطفال، بناء الدول يقوم على مدى ثقافة المجتمعات ووعيها ... أنزل رجله عن الأخرى وانحنى للأمام مشبكًا بين أصابعه ليسند ذقنه إليها وهو يتطلع لي أكثر... قائلاً:

لن تقوم للعرب قائمة حتى يكفوا عن إلقاء المهملات في الشارع وينظفوا الأماكن التي يرتادوها. قطع حديثه صوت خروج بيسان من الحمام، نظرت لها وقد لبست جينزًا وقميصًا أسودين وشعرها مسترسل حول كتفيها، وجهها كمصباح أبيض يتلألأ وسط سواد الليل المعتم، تداركت تحديقي فيها حين علا وجنتاها الخجل الذي بدا بلونه الأحمر.

– إشارة لمنع سير النظر هذا اللون على الخد. قالها القس وهو ينظر لي.

بَسْمَلتُ... بينما هما دعا أباهما... وعلما بالصليب على صدريهما ثم تناولنا الطعام، المكون من خمس حبات مكدوس وخبز، لم أكن أعرف نوع هذا الطعام سابقا، أخبرني القس أنها أكلة اشتهرت فيها سورية، تم صنعها في حلب منذ القدم، باذنجان صغير، محشو بالفلفل الأحمر البارد، وقليل من الثوم والجوز، ثم يغمر بالزيت لحفظه.

بعد أن انتهينا ناولها القس معطفًا جلديًا سميكًا أسود له غطاء للرأس، وقلدها صليبا حول عنقها، ثم خرجنا من باب سري خلف المكتب، مشينا حتى وصلنا لأحد البيوت، الذي خرج صاحبه بعد أن طرق القس الباب. لم نتكلم.. فقط لحقناه

حين أومأ بيده بأن نتبعه لخلف البيت، حيث سيارته ذات الحوض ولها بابان فقط، صعدنا للسيارة، جنب بيسان الأيمن التصق بجنبي الأيسر قُرب قلبي، مددت ذراعي خلف عنقها، حتى تأخذ أكبر قدر من مساحة الكرسي الذي جمعنا معا. القس استند بيده إلى النافذة نحوي، يوصيني على بيسان، وأن أحفظ العهد الذي بيننا، ثم علّم بإشارة الصليب علينا، داعياً الله بأن يحفظنا.

انطلق بنا الرجل المسن، من غير أن يتكلم بكلمة، عبرنا بلدة كتب على يافطتها البيّة، ثم سار عبر الحقول في طريق متعرج، لامس خدها قلبي حين نامت واستند رأسها إلى صدري، ذراعي أصابتها خدرة، غير أني لم أشأ أن أوقظها لأرفع يدي التي آلمتني بشدة، قربها لي رغم ألمي كان يسعدني وتستلذ روحي بتلك الدقائق، التي التصق جسمها بجسمي، كم فهمت وقتها لم خلق الله لآدم أنثى، رغم ما كان ينعم فيه من نعيم في الجنة، لا تتم زينة الجنة إلا بأنثى. اقتربنا من بلدة بيسيرين، ثم سار طويلاً عبر الحقول، مع إشراقة الشمس توقفنا عند منزل أبيض، مكون من طابقين وحوله شجر الزيتون، نزل الرجل وتوجه نحو البيت، استيقظت سائلة:

- أين نحن؟

رفعت يدي عندها، ومددتها للأمام ضاغطاً على أصابعي، أشرت لها للمسن الذي حضنه شاب خرج من بين الشجر، وتحدث معه وهو يؤشر إلينا، والشاب يهز رأسه إيجابا لقول المسن. ترجلنا من السيارة، بعد أن طلب منا أن ننزل.

- لا خوف عليكما، أنتما في رقبتي، القس فؤاد سيدي وصديقي، ستمكثان عندي الليلة، حتى أتمكن من تأمين الطريق لوصولكما إلى تركيا. قالها الشاب.

فرحة بيسان بسرعة وصولها إلى تركيا، واتضح لي بأن القس قام بالواجب وزيادة، هو أول قس أقابله في حياتي، وثالث مسيحي أتعرف عليه، بعد أستاذ بديع وبيسان. قلقت من كلمات الشاب، التي أثارت في داخلي الشكوك في أمره، حين نظر إلي باشمئزاز.

* * *

وضع الشاب الحطب في الصوبا لتضطرم النار داخلها وتمتد موجات الدفء لتبعد البرد عنا حين حل المساء، كنا نرتشف الشاي في غرفة الجلوس، الشاب وزوجته وطفلهما الرضيع.

أسماه أسد حين ولد منذ بضعة أشهر، أطلق عليه هذا الاسم بعد أن أصبحت بلاده غابة يأكل القوي فيها الضعيف، كان غرير البال مع ما في دولته من تعسف وظلم وفساد، بلاد خير هي الشام لا يجوع أو يعطش أحد فيها حتى في حالات الحرب، لن يهجرها وإن كان الثمن حياته، يعيبُ على النازحين هروبهم من بلادهم، كان عليهم أن يقاتلوا لإصلاح الوطن لا التفرج عليه من بعيد والعودة في حالة نصر إحدى الفرق المتخاصمة، اتفق هو وزوجته على البقاء في مزرعتهم، وأن يُقاتلا من يعتدي عليهما، زوجته معها مسدس في حالة قتلِه عليها قتل رضيعها ثم نفسها قبل أن تغتصب، يرى أنني مُخطئ حين قدمت إلى سورية للقتال مع جماعتي، يراهم صنيعة غربية بحتة لمد الصراع في سورية، وحدهم الأغبياء يصدقون شعاراتهم وقصصهم. ضرب على صدره مشيراً لنفسه بزهو حين أكمل...

هو في الميدان يرى ويسمع ما لا يراه من في الخارج،

الأغبياء كُثر في العالم، موجة هُم تستعمل لجر العقلاء، أصوات الأغبياء إذا اتحدت توهم العاقل أنهم على صواب. صمت وتطلع لِبيسان ثم نظر إلي وأكمل..

القس فؤاد تفضل عليه بهذه المزرعة والبيت حين قتل أخته التي تزوجت مسلما من مدينة حماة، ظنت أنها هربت منه ولن يعثر عليها، دخل عليها ليلا في غرفتها وأطلق النار عليها وعلى زوجها، سجن خمس سنوات بعد أن تنازل أهل القتيل عن حقهم مقابل ثلاثة ملايين ليرة جمعها أهل طائفته.

لا يكره المسلمين بل يحبهم، هم أهله وأصدقاؤه لكن! لا مصاهرة بينهم بسبب عقيدة كِلا الطرفين، يجب علي ألا أفكر بالزواج من هذه الفتاة المسيحية. أطرقت بيسان برأسها حين نظرتُ إليها، ثم رمقتهُ بحدة..

– لم أفكر بذلك، مهمتي هي أن أخرجها من هنا وأوصلها إلى عمتها في تركيا. قلت له.

طلبت السيدة من بيسان مرافقتها للمطبخ لإعداد العشاء، حملت رضيعها وتبعتها بيسان بعد أن ألقت علي نظرة قبل أن تخرج من الغرفة. أخرج أبو أسد ورقة بيضاء وفتح علبة فضية

صغيرة كانت أمامه على الطاولة، أخذ منها ورقًا كورق الشاي لونه بني وضعه على الورقة البيضاء ولفه ثم مرره على طرف لسانه لتلتصق اللفافة ووضع طرفها في أنبوب، أشعل رأسها وبدأ يدخن وهو ينظر لي.

لا يعلم ما هو سبب موافقة القس فؤاد على اصطحابي للفتاة؟ كيف فاته ما رآه مني خلال وجودي معها كما رآه هو في الحقل! تتبعي لها أينما ذهبت عندما كانت تتمشى في الحقل، الكدر الذي يبدو على وجهي حين تختفي دقائق ثم تعود وينجلي معها الكدر وتحل على وجهي السعادة، كل هذا ولن أطلب منها الزواج؟ ستوافق طبعا بسبب وقوفي معها ومع أبيها.

لقد قتل أخته ولن يتردد في قتلي أيضا إذا تزوجت من هذه الفتاة. كان يحدثني في برود وهو ينفث دخانه، رأيت توتر موقفي مع هذا الشاب المتزمت الذي ينظر لي باحتقار، كبحت جماح غضبي على أمل أن نرحل غدا معه أو من دونه.

* * *

ساعدت أم أسد في قلي البطاطس وسلق البيض.

- هل تُحبينه؟ سألتني.

استنكرت سؤالها! بينما كنت أحمل رضيعها الذي يلعب بخصلات شعري، أجبتها بالنفي! نظرات الشك منها أحيت تساؤلا في نفسي، هل فعلا أحببته من غير أن أشعر؟ بدأت أعيد شريط الذاكرة منذ أن ذهبت معه، خمسة أيام كنت في صحبته، لاحظت اهتمامه الزائد، هل كل ذلك بسبب قطعه الوعد لأبي حتى ينقذني! بدأت أتذكر نظراته لي وحراسته لي في البيت حين خرجنا من النهر وتغطيتي بمعطفه حتى أصابته الحمى وكاد يلقى حتفه، إصراره على مرافقتي له حين أصر القس على بقائي في الكنيسة، استراقي للسمع حين دار حديثه مع القس عني. قطع حبل ذكرياتي فَرقعة صوت قلي البطاطس حين وضعته أم أسد.

- أين سرح قلبك؟ قالت.

حركت البطاطس بالملعقة وابتسمت ابتسامة من اكتشف حقيقة تسره، وأخرجت بعض البطاطس الذهبي بعد نضجه ثم نظرت لي وقالت:

- بيسان الفتى يعشقك وأنت لا تشعرين!

هنا انتفضت حواسي ومشاعري نحو ضياء، وبدأت عيناي ترقبه. كيف للقس ووالدي أسد أن ينتبهوا لأمره وأنا لم أنتبه له؟

أمي قالت لي يوما:

- غالباً ما تحظى الفتاة بأب حنون، لكن نادراً ما تحظى بحبيب عاشق متيّم بها.

بدأت أرقبه بعدها حتى ونحن نتناول العشاء، اختلست النظر إليه لأجده ينظر إلي، ارتبكنا ودارينا تصرفنا أمام ابتسامة أم أسد وحنق زوجها.

عندما شاركت أم أسد فراشها أخبرتني.. أنني جلبت لها السعادة، تحب قصص العشاق فكيف وهما أمامها وفي بيتها، لا ترى بأسًا إن تزوجا من بعضهما وإن اختلفا في المنشأ والعرق أو الدين، فالدين الذي لا يجمع بين عاشقين ليس دين محبة بل دين كراهية، تزوجت أبا أسد منذ سنتين بعد قصة حب.

قطع صياح أسد حديثها، قامت إليه وحملته وألقمته ثديها، لينقطع صوته ويبدأ يمص الحليب.

– حب ضياء لك من نوع فريد فلا تفرطي فيه، سعيدةٌ الفتاة التي تجد أحدًا يُحبها لروحها وليس لشكلها مهما كان جمالها، حب الروح يبقى وحُب الأجساد يفنى، بيسان كم أنت محظوظة. قالتها وهي تقبل أسد.

أدار أبو أسد محرك سيارته ليلة الغد بعد احتقان رأيته بينه وبين ضياء، طلب من ضياء الركوب ليوصله إلى مدينة حماة وحده، رفض الذهاب إلا وأنا معه ولن يتركني هنا. اشتد الجدال بينهما وسط هلعي أنا وأم أسد، التي وضعت رضيعها في دراجته قرب جرة الماء، رأيت أبو أسد يمسك ضياء من ياقة معطفه وهو يدفعه بشدة عنه، أخرج أبو أسد مسدسه وصوبه نحو ضياء، صرخت أم أسد بأن يتركنا وشأننا.

حينها حدث انفجار في قلبي وشحب وجهي، اقترب أبو أسد من ضياء ودفعه للرحيل، رأيت ضياء يعطيه ظهره ويرحل، دفعه مرة أخرى قائلا.. إنه لن يتردد في قتله إن عاد.

الدفعة الأخرى من يد أبو أسد لضياء جعلته يلتف بسرعة ويمسك معصم أبي أسد ويلويه ثم يقتتلان على الأرض وينقلبان، كل مرة يعلو أحدهما الآخر، ضياء ممسك بيد أبو أسد القابضة على المسدس، وأبو أسد قابض على حنجرة

ضياء بيده الأخرى، شُلت حركتي عندما رأيت أم أسد تأخذ عصا وتذهب لتضرب ضياء بها، عندها انطلقت رصاصة خرق دويها المكان، صرخة أم أسد أوقفتهما عن الشجار وتطلعا نحو الجرة التي اخترقتها الرصاصة لتنكسر وينسكب الماء على رأس أسد وتسقط قطعة فخار مكسورة وتجرح يده لتدميها وتجعله يصرخ من الألم. أفلت أبو أسد المسدس وانطلق نحو ابنه، ضياء التقطه وركض نحوي قابضا على يدي ليسحبني خلفه ونجري، صعدنا السيارة وانطلق بها، أبو أسد اعترض جانب السيارة إلا أننا تجاوزناه، سمعت صراخه ووعيده بأنه لن يتركنا.

كدت أضم ضياء ساعة أن اعتلت السيارة الطريق الخالي، وكأننا وحدنا في الدنيا وسط الظلام الذي أحاطنا إلا من أضواء مقاييس المحرك ذات اللون البرتقالي.

* * *

إذا كان المُلك عقيما فإن الحب ولود لكل ما هو نبيل. أيقنت أن حياتي من غير رؤيتها أمامي خاوية موحشة، لن أشعر بالسعادة حتى أخرجها من هذا المكان الموبوء بالكراهية والشر، صبرت على احتقاره لي من أجلها حتى يوصلنا لبر الأمان، لا أعرف الطرق إلى المدن السورية كما يعرفها.

انطلقت بالسيارة على طريق خال من السيارات، رأيت يافطة كُتب عليها الجنان وسهم جهة اليمين تحتها، بيسان تعرف هذا المكان زارته مع والديها عندما كانا ذاهبين إلى عين قصارين الشهيرة. النهر العاصي بقربي أراه على نور البدر حين بدأ في الارتفاع، سمعت بكاءها لأول مرة، انفطر قلبي لها، بكت عندما ذكرت عائلتها، ليس لها أحد في سوريا إن حدث لي مكروه.

ركنت السيارة جانباً وأطفأت المحرك، صمت رهيب خيم علينا إلا من صوت نشيجها وصوت جريان النهر وصوت نبضات قلبي التي أسمعها وحدي.

ألقى البدر بنوره الفضي علينا. عندما مسحت على شعرها أصابتني قشعريرة باردة ليست بسبب برودة الجو إنما من برودة الحب حين يلمس الحبيب حبيبه، يدي ترتعد من لمسها وعينيْ اغرورقت بالدموع فرحة بها وحزنا عليها، فرحتُ أنها معي

وأمسح على شعرها، وحزنتُ على فقدها لعائلتها، قلت لها حينها حقًا وباطلًا:

– إذا فارق هذا القمر مداره حول الأرض سأفارقك، وعدت أباك بأني سأوصلك لبر الأمان يا.... حـــ

كدت أن أقول يا حبيبتي فاستدركت وقلت:

بيسان.. لست مغرمًا بك كما يظنون، اهتمامي الزائد بك ليس إلا لحرصي على سلامتك، والدك أعز شخص على قلبي بعد جدي، وعدي له هو ما يثير شكوكهم بأني أحبك وأعشقك، لم أحبك ولن أتزوجك ولن يهدأ لي بال حتى أخرجك من هذه الغابة.

ليتكِ لم تضميني ساعتها، ماذا فعلت بي؟ جعلتني أنسى كل ما حولي، المكان الخطر الذي توقفنا فيه، السيارة، النهر، المقعدان اللذان نقعد عليهما، لا أشعر إلا بحضنك لي حبيبتي وكأن جسدي لم يخلق إلا لكِ وحدكِ.

حضنتني عندما أنهيت كلامي وبكت قليلاً، ثم ابتعدت عني وهي تتأسف وأن حنينها لأهلها ما دفعها لهذا التصرف.

أدرت مفتاح السيارة وأكملت السير، عندما اقتربنا من بلدة

ما. طلبت منها أن تضع غطاء المعطف على رأسها، دخلنا بين البيوت، أحدها علته يافطة كتب عليها مجلس بلدية سريحين. بضع سيارات تسير على الطرقات، والناس بين ذهاب وإياب، استوقفت أحدهم لأسأله عن الطريق إلى حماة ؟

أشار لي بيده أن أستمر في طريقي.

– هل الطريق آمنة من العصابات المسلحة؟ سألته.

– لا تخف هي آمنة ليس هناك عصابات. قالها بصوت مرتفع.

اجتزت طريقا ذا مسارين يبدو أنه طريق دولي، دخلت حماة وأريت حاجزا عليه شباب مسلحون، رافعين العلم السوري، بألوانه الأخضر والأبيض الذي توسطته ثلاث نجمات حمراء واللون الأسود أسفله، توقفت عندهم بعد أن وضعت يدي على سلاحي استعدادا لأي طارئ، سألوني: أين ذاهب؟ ومن أين أتيت؟

شخص ضحك عندما سمع لهجتي.

– كويتي تايه في سورية.. وبمعيته صبية. قالها وهو يضحك.

لجم أحدهم ضحكته، مرحبًا بي... وذاكرا اسمي! هو من سرية سالم الحموي، قابلني منذ قرابة أسبوعين، يتذكرني جيداً أنا والرجل الذي يبحث عن ابنته.

فزعت بيسان عندما ذكر والدها قائلة:

- أبي.

- يبدو أنك عثرت عليها، هل نجا والدها؟ وأين هو؟ قالها حين انتبه لها.

- هل سالم موجود في المدينة؟ سألته متهربًا من إجابته.

- نعم. جاوبني.

تبعت سيارته الجيب حتى توقفنا أمام منزل صغير، وسط حماة أمام النهر العاصي، نزل الشاب وطرق الباب فخرج له سالم وصافحه ثم تقدم نحوي مرحبًا بحرارة، دخلت البيت وكان فيه شباب آخرون رحبوا بي. سالم أخبرهم عن قصتي قبل أن أقدم عليهم حين استأذنه الشاب في إحضاري له.

تَطلع في بيسان وقال: يجب أن نرسلها لأحد بيوت النساء.

طلبت منه إيصالنا إلى تركيا غداً إن أمكن. وعدني بأنه سيعثر لنا على سيارة تنقلنا. رأيت بعض الشباب يحدق خلسة فيها،

لن يرتاح قلبي إن ابتعدت عن ناظري، طلبت من سالم أن يهيئ لنا غرفة في الأعلى. بدا على وجهه علامات الاستنكار! وزال عندما قلت إنها زوجتي. بارك لي وكذلك الشباب هنؤوني ودعوا لي بخير. أعد لنا غرفة وأمر بعض الشباب بالذهاب لإحدى الدور المجاورة.

كانت الساعة الرقمية المعلقة على الحائط تشير إلى ٢٠١٣-٠٢-١٧..٠٠:٥٠.. أربعة أشهر منذ أن غادرت وطني الكويت، تناولت أنا وبيسان الطعام، كنا نتضور جوعًا قبل أن يحضره، سالم شخص لطيف جدا، معالم وجهه الهادئة لا تدل على أنه مقاتل شرس.

* * *

فزع قلبي حين ذكر أنه زوجي أمام الشباب الملتحين والمسلحين، هي المرة الأولى التي أقف فيها مع شباب ملتحين وحدي، ذكور تتوسطهم أنثى جميلة، يشُم بعضهم رائحة عُذريتها كما أظن، لم أرتعب من أحد ولم أشعر بالخوف بعد تلك اللحظات التي توقفنا فيها تحت نور البدر، شعرت بصدق عبارته حين قال:

إذا فارق هذا القمر مداره حول الأرض سأفارقك.

وشككت بقوله:

بيسان لست مغرما بك كما يظنون.

ما الذي منعكَ من قول: حبيبتي؟ الحب جنة لها سور لا تخترقه العراقيل والمحيط الملتهب حوله، فرحتي باكتشاف حبكَ لي، أصبح أعظم من فرحتي بمعرفة أن والدي حي، لوالدي كل التقدير والاحترام والرحمة، ولكَ أنتَ وحدكَ كل مشاعري الجياشة ومجونها، لو طلبتَ مني أن أرتمي لك ساعة كنا وحدنا في الغرفة لفعلت بكل حب، صدقُ حبكَ هو ما منع إطلاق رغبتكَ رغم رؤيتي لما في عينيك تجاهي، سمعت من والدي أن العاشقَين الحقيقيين آخر ما يفكران فيه

هو الجنس، يشبعان غريزتيهما من نظريهما لبعضهما، يسبحان في عالم نظيف بعيدا عن وسخ الجنس والمعاشرة، يستشعران لذة نبضات قلبيهما وسرعة أنفاسهما، تتزاوج نفساهما وتتعانق روحاهما.

رأيتُ ذلك منكَ تلك الليلة، حبكَ لي أكبر وأنبل من حبي لك ضياء، بخلت علي بلمس يداي تلك الليلة، حتى نظراتكَ كانت تسترق النظر لعينَيْ كطفل يسترق النظر على والديه وهما متصلان في الفراش، صمتك كان هو السور العازل بيننا.

* * *

قضيت ثلاثة وعشرين عامًا بلا أنثى وهذه ليلتي الأولى التي أقضيها مع أنثى أحببتها وعشقتها، سهرت تلك الليلة أراقبها، لا أريد أن أفوت أي ثانية وأنا معها فيما نحن في ساعات الأمان في بيت سالم، راقبت تقلبها على السرير فيما ظللت على الكرسي قرب النافذة، قمت واقتربت منها وجثيت على ركبتي ناظرًا في وجهها الذي غطته خُصل شعرها، تأملت فيه دقائق حتى تذكرت بديع، دمعة سقطت من عيني وهمست لها:

سامحيني.

أشرقت الشمس ونفذ ضوؤها عبر النافذة ليسقط على وجهها، بشرتها تلألأت على أثر الضوء الذي أيقظها، رأيتُ لون عينيها الرماديتين الناعستين لحظتها، انخفض لونهما للأسود حين وضعت يدها لتتقي الضوء، لم أسمع صباح الخير منذ أمد طويل ومن فم جميل وصوت يرن صداه في قلبي حين قالتها لي، تظاهرت بأنني للتو استيقظت وطلبتُ منها أن تستحم وتأخذ راحتها ولا تستعجل. ما إن دخلت الحمام، حتى اضطجعت على السرير أشم رائحتها، أخذت شعرات كانت ساقطة منها على المخدة البيضاء وتأملتها ثم لففتها حول خنصري الأيمن بإحكام وربطتها، وكأنها خاتم ثم نمت.

* * *

دخلتُ للحمام ووجدتُ منشفتين وأمواس حلاقة وصابون استحمام، لم أستحم منذ فترة طويلة، حتى عندما دخلت حمام القس فؤاد لم أستحم فقط بللت نفسي بالماء وارتديت اللباس. قضيت ساعتين وأنا أستحم وأزيل جميع الأوساخ التي علقت في جسمي، البيت خالٍ تمامًا لا صوت فيه! نشفتُ شعري ثم لففت المنشفة حول جسمي وخرجت، وجدت ضياء مستغرقا في النوم، متعت عينيّ بالنظر إلى وجهه مدة، كم هو وسيم. قلتها في نفسي.

لم أنعم برؤية وجهه كثيرا كما نعمت فيه تلك الساعة، لو كنت أعرف الطريق إلى المطبخ لأعددت له أطيب الأكل كالذي تحضره أمي لأبي حين يُحضر لها هدية. قطع صوت رجل ينادي على ضياء لحظات تأملي فيه.

أيقظته فقام كالفزع، ثم نظر إلي فاغرا فاهه! وأشاح بنظره عني، طالبا مني أن أستتر، قام ولف علي الغطاء من غير أن ينظر لي، كدت أضحك من تصرفه ومنظر وجهه حين رآني.

* * *

استيقظت على صوت بيسان وأنامل يدها، تفاجأت حين رأيتها شبه عارية! أشحت بوجهي عنها ولففتها بالغطاء ولامست أصابعي كتفيها الناعمتين، طلبت منها أن ترتدي لباسها حين أنزل وأرى سالما.

نزلت وفكري شارد في جسمها وجماله، رأيت سالما على عتبة الباب ممسكا بكيس، لم أعلم أن البيت كان خاليا حتى أخبرني أن الشباب ذهبوا لبيت آخر، أحبوا أن آخذ حريتي، يريد مني أن أحضر معه حفل زواج عصر اليوم أنا وزوجتي، مجاهد قطري تزوج ابنة أحد المجاهدين، بعد يومين سننطلق في سيارة صغيرة نحو تركيا بعد أن يتأكد من سلامة الطريق. شكرته وعدت إلى بيسان بسرعة بعد أن غادر.

طرقت الباب ففتحته وقد ارتدت لباسها، كلما اختفت عن ناظري وظهرت تألقت جمالا في عيني وفتنة في قلبي، فتحتُ الكيس فإذا به أربع شطائر وقنينتا عصير وقنينة ماء كبيرة، تناولنا الطعام ثم ذهبتْ تبحث عن المطبخ فوجدت فيه قهوة وشايا، أعدت فنجانين من القهوة وقعدنا في شرفة مطلة على النهر، الجو بارد نوعا ما والسماء صافية إلا من طيور تعبر من حين لآخر أمامنا، كنت أتحاشى النظر إلى عينيها، شعرها الأسود

المنسدل خلف ظهرها يزيد من إشعاع بشرتها البيضاء، كخيط الليل والنهار حين تنتصف فيه طائرة متجهة إلى جنوب الكرة الأرضية.

غرتُ من فنجان القهوة حين لامس شفتيها وندمت على أيام مضت من دونها، طلبتْ مني أن أحدثها عن أبيها وكيف التقيت به؟ هذا ما كنت أتحاشاه...

لم أُحب أن أخدعكِ يوما ولا أُريدُ لصورتي أن تتشوه حين تكتشفين الحقيقة، فقط اعلمي أنني كاذب حين قلت لكِ إنني لست مغرما بكِ، بل أنا غريق بحر عينيك وفضاء شَعركِ وقتيل ثغر شفتيكِ وجريح أهداب رمشيكِ، أترين نجوم السماء وضياء الشمس ونور القمر ساعات البدر؟

لم تستطع أضواؤها وأنوارها مجتمعة إضاءة ظلام الكون! وحده حبكِ استطاع اختراق ظلام كَونِيَ ليحيله أنوارا وأضواء.

بَيْسان قَدرُنا فُرِضَ علينا ولنا أن نختار! إما أن نكمل الطريق رغم أوجاعه وعراقيله أو ننهي هذه الرواية عند معرفتكِ للحقيقة.

قصصت عليها قصتي مع أبيها حتى وصولنا للمستشفى ومعالجته عند الطبيب سامر. هززت رأسي مجيبا بعد أن قالت:

بعدها نألوه لتركيا.

مر الوقت سريعا ولم أشعر فيه حتى رأيت سالما يركن سيارته، أخبرتها أننا سنحضر حفل زواج، قمنا وارتدينا معطفينا ووضعت الغطاء على رأسها. شققنا طريق السوق حتى توقفنا قرب بيت، نزلنا فيما كانت امرأة ترحب ببيسان وتدخلها إلى صالة النساء حين دخلنا مجلس الرجال. سالم أخبر الحضور الذي لا يتجاوز عددهم ثلاثين رجلًا بهويتي، رحبوا جميعهم وصافحوني إلا العريس احتضنني بحرارة وأقعدني بقربه. مصلح اسمه من دولة قطر، التحق بالمجاهدين منذ ثلاثة أشهر، عنده زوجة وخمسة أبناء، أكبرهم وليد عمره عشرون عاما، دخل حماة منذ شهر، بحث فيها عن زوجة تسر ناظره وتؤنس غربته، رأى الكثير من الفتيات حتى وقع اختياره على ابنة صديقه، في الثامنة عشرة هي، سيأخذها إلى قطر ويرتب أمورها ويعود إلى الجهاد.

قدموا لنا المشروبات ثم صحون الأرز يعلوها اللحم،

عندما انتهينا، طلب مني سالم مرافقته إلى بلدة تلدرة التي تبعد عشرين كيلومترا. كما يقول. سيوصل شبابًا مسلحين لحماية أُسرٍ تريد النزوح إلى المملكة الأردنية الهاشمية.

اعتذرت منه بأنني لا أستطيع ترك زوجتي وحدها. ذَهبتْ مع زوجته إلى بيته منذ قليل، يجب ألا أقلق عليها، لن يطول غيابنا. قال لي.

كنت معه في قمرة السيارة وخمسة شباب مسلحون في حوضها، أطلعني أنهم يأخذون على كل شخص مئة دولار نظير حمايتهم ومن لا يملك شيئا لا يمنعونه من مرافقتهم، هو نوع من دعم المجاهدين الذين تركوا أعمالهم وإعالة ذويهم ليدافعوا عن سورية ضد العصابات المسلحة.

وصلنا إلى البلدة واتجهنا نحو حقل فيه أربع حافلات صغيرة، الواحدة منها تتسع لعشرة أشخاص، سمعت صوت صياح أطفال في البيت، الرجال قعدوا في فنائه في حين كانت النساء والأطفال داخله، تناولنا الشاي حول شعلة نار، قدمَ علينا أثناءها أحد أصحاب الحافلات واحتضن سالما، صديق قديم له من مدينة إدلب، عرّفه سالم علي عندما صافحني، أيضا هو معه شاب من الكويت يريد الذهاب للأردن.

قادني إلى الشاب الكويتي عندما طلبت منه ذلك، صافحته حين قابلته، وجهه وديع بخلاف عينيه الصغيرتين اللتين تنبئان بمكر ودهاء، لحيته قصيرة شقراء، حاف الشارب، أصلع الرأس، وجهه مألوف لي، رأيته من قبل، لم أستطع التذكر لحظتها...

لم يأت للجهاد بل أتى للبحث عن وطنه الثاني، يرى أن هناك وطنين للإنسان، وطن يولد فيه ووطن يعيش معه، زوجته هي وطنه الثاني، أتى لينقذها ويخرجها من سورية بعد أن فقدت والدها وبقيت مع والدتها، كانت في زيارة لأهلها فلم ترجع حين فُقد والدها لعلهم يجدونه، امتدت الأيام حتى ضاقت طرق الهروب. قدم من تركيا لينقذها حتى وصل لها في تلدرة البلدة التي فيها أعلى نسبة تعلم في سوريا وتفتخر بذلك، هو من سكان ضاحية الفردوس، يعرف جميع من سألته عنهم إلا أنا وجدي! له مشاركات قليلة في الإذاعة والتلفاز والصحف، كتب روايتين فقط.

تذكرته عندما ذكر لي الرواية، قرأت له روايته «حينما يبتسم القدر» التي ابتدأها بجملة حيرتني وقتها.

«القاعدة واحدة لكل شيء».

قصد فيها أن الكون مبني على قاعدة أساسية واحدة وهي وجود الله عز وجل، وكل شيء فيه له قاعدة خاصة تعود للقاعدة الأساسية، وضح لي أكثر حين رأى علامات الاستغراب بادية على وجهي!

إن الإنسان إذا أراد بناء أو عمل شيء فعليه أن يتبع تلك القواعد ولا يخالفها، سورية كان الأجدر إصلاحها لا حرقها، هي كمزرعة مشتركة، فشا بأجزاء منها دود، لو تعاون من فيها واجتثوا الأجزاء الفاسدة لكان خيرا لهم من إضرام النار فيها لتأتي على دورهم، حرق الأرض آخر الحلول، لا مصلحة في الحرب إلا لمسعريها، لا يؤيد أحدا من الأطراف المتنازعة، يحمد الله أن العرب لم يمتلكوا القنبلة النووية وإلا لأفنوا العالم في استخدامها، للأمم ولادة ومراهقة وشباب ورجولة ثم شيب وكهولة وشيخوخة وموت لتنبعث من جديد في نفس الدورة فالقاعدة واحدة، نحن العرب الآن في مرحلة الطفولة ونطالب بمرحلة رجولة الغرب! ونحن لم نمر بعد بمرحلتي المراهقة والشباب، كنا مراهقين عندما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم ليبعث الشباب في دمائنا ونجدد حضارة العالم

الكهل، الكون أيضا له قاعدة، كما ولد سيموت ويولد، نحن في شيخوخة الكون الآن، بسطها لي أكثر حين شبه المفسدين في المجتمع والأرض كداء السرطان.

كان يحدثني وقلبي سارح بعقلي صوب بيسان، هي من أراها أمامي طول الوقت، أخشى أن يصيبها مكروه، أو يُجرح إصبعها، وغيرتي تستعر حين تراها عين رجل غيري كما تستعر النار بالحطب، شعور كئيب جثم على نفْسي، ليس عندي أحد لأخبره عن قصتي معها، أين أنت يا عبدالله؟ أين أنت يا أبو شعرة؟

نظرت إلى محدثي الذي لم يتوقف عن فلسفته لمستمعٍ قلبهُ اختطف مشاعره نحو مكان ما وبقعة عليها بيسان، طلبت منه أن نبتعد عن المكان لأحدثه في أمر خاص، قعدنا على كرسيين غير بعيدين عن المجلس، حدثته بقصتي باختصار وأكثرتُ من ذكر حبي لبيسان حتى انتصف الليل، أربع ساعات وأنا أحدثه عن بيسان ولم أملّ من ترديد اسمها وكأنني عطشان لم يرتو من شرب الماء بعد، سمعني ولم يقاطعني حتى قاطعنا سالم وبيديه كأسا حليب ساخن، كان بمثابة العتق له من مُحبٍ ظامئ لرؤية محبوبته، لو تحدثت عنها قرنا فلن أملّ من ذكرها.

ارتشفت الحليب معهُ بصمت حتى أحس سالم بعدم رغبتنا في وجوده، ذهب وهو يطلب مني الاستعجال لنعود لزوجتينا. خفق قلبي بقوة ساعتها وأحببت العودة سريعا، طلبت منه أن يكتب قصتي لها، لعلها تعفو عني وتتجاوز هفوتي.

عرض علي كُتاب آخرون ليوصلَ لهم قصتي، لا أذكر منهم إلا هيثم بودي. اعترضت عليه وطلبت منه البريد الرقمي له فسجله idihsarla@gmail.com

لا يكتب قصتي إلا ابن منطقتي الفردوس... عادل الرشيدي. قلتها له وانصرفت.

* * *

- اشتقتُ لكَ.

قالتها حين كنا في الغرفة، نازعة معطفها، فرح قلبي بالكلمتين ورقص طربا مختالاً بهما، تمنيت أن أقول لكِ وأنا أكثر شوقًا ولهفة لرؤيتكِ يا عشق قلبي وروحي ونفسي، هل يشعر أهل الجنة بما يشعر به العشاق حين يلتقون؟ تساءلت بين جدران صدري.

بيسان شعورك نحوي أمر طبيعي فليس لكِ غيري الآن، ومن الطبيعي شعورك هذا إلا أنه ليس اشتياقا إنما اطمئنان برؤيتي لا أكثر، أنا أحبك..

كنت أحدثها وأنا أتطلع إلى السماء عبر النافذة عندما قلت أحبكِ.. لمحت ابتسامتها فتداركت زلتي وقلت:

- ليس حب العشاق، إنما حبي لكِ كحبي لوالدك لا أكثر من ذلك، تصبحين على خير.

- إلى أين؟ قالت حين اعترضت طريقي.

- سأنام في الغرفة المجاورة لا تقلقي، بقائي معك محرم في ديانتنا، لو كنت أعلم البارحة أنه لا يوجد أحد في البيت لما شاركتك الغرفة. نظرت لها وهي مطرقة، وقلت بجفاء:

- تصبحين على خير.

خرجت وأغلقت الباب خلفي والحسرة تملأ قلبي ونفسي، غلظتي عليها بكلماتي أتت من شعوري بالحسرة حين قلت لها..إن حبي لها كحبي لوالدها لا أكثر.

استندت إلى الحائط قرب الباب حتى أكون في أقرب نقطة لها، كم كرهت الباب والجدار الذي يفصل بيننا، حبي لها ينمو بسرعة، هل تُعقل فلسفة الروائي عادل للحياة..! حين قال:

إن القاعدة واحدة.

حبي لها نبض في قبو البناية وهو شبيه بالرحم، وصرخ حين خرجنا من النفق، وتشبثَ بالحياة عندما دفعنا تيار النهر، وبدأ يكبر شيئا فشيئا، إحساس الأمس ليس كاليوم، يا ويل قلبي ماذا سيفعل بي حبها حين يجري؟

لو كان حبا ذا شهوة لدخلت عليها وأرويت منها ظمئي وأرويتها أيضا غير أن حبي يأبى أن ألمسها أو أفكر في ذلك.

* * *

- حبي لكِ كحبي لأبيكِ لا أكثر.

جُرح قلبي حين قالها وأدماه حين خرج وتركني وحيدة بلا أنيس، اشتقت له عندما تأخر عني، بدأت أحبه من قلبي، كلما نظرت إلى عينيه اللتين ينبع منهما الشوق والحب تجاهي، لا أصدق ما قاله، صمته يقتلني، لِمَ لا يصارحني ويعلن لي حبه؟ ما الذي يخشاه ونحن وحدنا لا طائفتي تعترض ولا طائفته!

شخصان أحبا بعضهما فما دخل العالم بهما، سأتبع دينه لو طلب مني ويحصل له ثواب أعمالي. أبي لن يغضب بعد التضحية التي فعلها معه ومعي، عمتي تزوجت مسلما وهربت معه إلى تركيا، أمر يتكرر في عائلتنا زواج بناتهم من مسلمين، أبي أصابه الحرج من أبناء طائفته عندما لمزوه بفعلة أخته العاهرة كما نعتوها، لا يريد أن أكون مثلها، علي أن أضع مشاعر طائفتي فوق مشاعري، أبي يناقض نفسه حين يتعلق الأمر بطائفتنا، أطلعني يوما على لوحة للفنان تومس كوبير، فيها أشباه أُناس مموهين أشبه بحجارة يسيرون في اتجاه ورجل واحد ينسلخ عنهم هاربا محاولا انتزاع نفسه منهم!

ترمز اللوحة لانسلاخ الإنسان عن توجهات مجتمعه، عليه أن يكون حرًا في رأيه وإن خالفهم، علي ألا أنقاد لتقاليدهم فالتقاليد ليست دينا إنما يكتسبها المجتمع من شخص أو أشخاص، عادة ما يكونون جهلة فتمتد لمدة قصيرة أو طويلة، علي أن أكون أنا بشخصي ببصمتي المختلفة عن الجميع، علي بناء ذاتي وفكري بالقراءة المكثفة حتى يُصقل عقلي، فلا يَصقل العقل إلا القراءة ولا الأفعال إلا التجارب، والدي ذكر لي قصص العُشاق وطرقهم، فرأيت تصرفاتهم مجتمعة فيكَ، فما الذي يمنعكَ عني!؟

❋ ❋ ❋

أسعفني النوم مما أنا فيه، وغطست في بحر الأحلام الذي جمعني بها، وجعلني أراقصها على كلمات ونغمات أغنية..

يا أنا يا أنا

أنا وياك

صرنا من القصص الغريبة

يا أنا يا أنا أنا وياك

و انسرقت مكاتيبي

و عرفوا أنك حبيبي

يا أنا يا أنا

هرب الصيف

هربت عناقيد الزينة

وإذا ضيعني الهوى شي صيف بقلبك بتلاقيني

و خبيني ولا تخبيني

لياليك بعينيي

شبابيك مضويي

سفرني حبيبي

سفرني بلياليك

وأنا قول

لا تنسى

على طول لا تنسى

وعيونك تاخدني

وتوعدني بلياليك

تركوا تركوا سهر البال

والعاشق لم جناحوا

تركوا أساميهن

عالباب

على كتب الدمع

وراحوا

نسيو بعضون وارتاحوا.

كنت أراقصها... السعادة تملأ عينيها، وحولنا الأشجار والزهور الجميلة، كنا نرقص على سطح بحيرة صافية، وعندما وصلت الأغنية لنهايتها، ذاكرةً أنهما نسيا بعضهما وارتاحا، غرقت في البحيرة التي تعكرت مياهها فيما ارتفعتْ هي إلى السماء.

قُمت فزعا عندما شعرت بماء ينسكب علي، رأيت السقف تشربته المياه وبدأ يخر، صوت المطر يملأ المكان، ذهبت نحو الشرفة ورأيت المطر، ثم عدت لأطمئِن على بيسان، طرقت الباب فلم تجب، فتحته ورأيتها نائمة وقد ظهرت ساقها البيضاء المشربة بحمرة خارج الغطاء، كدت أذهب وألمسها وأغطيها، خفت وتراجعت، خرجت في الحال وأغلقت الباب.

قعدت في غرفة الجلوس عدة دقائق حتى سمعت حركتها في المطبخ، تسربت رائحة القهوة إلى أنفي.

صباح الخير. قالتها عندما قدمت لي القهوة والماء. ارتشفنا القهوة ونظرنا إلى السماء التي بدأت تنقشع عنها الغيوم، لترسل الشمس أشعتها، فقالت حينها:

مدمنة أنا لكَ.. التقت عيني بعينيها حين قالتها.. ثم نظرت

إلى السماء.. فأكملتْ:

مدمنة أنا لكَ

يا فنجان قهوتي.

مدمنة رائحتك

ترويني شفتيك

حين تسقيني

من

عبقِ نكهتك

التي

تنسيني من

حولي

ومن

لاذ بالصمتِ.

مدمنة أنا لكَ.. ثم نظرت لي وأنا أبتسم، فقامت واتجهت نحو الشرفة.. وهي تقول:

مدمنة أنا لكَ.. يا فنجاني.. يَمْرَيح بالي.

ضحكت مما قالته وقلت:

ما أجمل هذه الأبيات، لو صبرت عليها قليلاً لنضجت وطاب مذاقها.

لم تنظر لي وهي تقول:

لو صبرت عليها، لأصبحت سوطا مؤلما يتلقاه كل صامت.

هذا يوم جديد يرتفع فيه سقفُ حبي لها، حتى غضبها له طعم آخر، البشر قبيحون حين يغضبون، إلا هي تزداد جمالا في عيني. تأملت جسمها فيما كانت واقفة، شعرها مسترخ خلفها ظهرها، لباسها الأسود أصبح من أجمل الألوان في عيني. صوت منبه سيارة جذب غوص عينيْ في جسمها. سالم توقف عند البيت، رأتْ بيسان زوجته تنزل معه ويدخلان. صعدت وكان معها أكياس ما، أبلغتها أن بيسان مستيقظة.

– بعد أن نتناول طعام الإفطار سنخرج للبحث عن سيارة تنقلكما إلى تركيا. قالها سالم.

انطلقت معه نحو السوق وبحثنا عدة ساعات عن سيارة تقلنا، الكل يعتذر بصعوبة الطريق. ليست هناك إلا طريق الرقة

ومنها إلى تل أبيض القريب من الحدود التركية. قالها أحدهم.

رفضت هذا الطريق، جماعة أبو النار تسيطر عليه. قلتها في نفسي. طلبت منه أن يوصلنا إلى مدينة إدلب. وعدني بأنه سيبحث عمن هو أعلم بالطرق الآمنة منه خلال هذين اليومين. شكرته ثم توجهت مع سالم إلى أحد الحواجز الأمنية وتحدثنا عن أحوال مناطق سورية. كنت أفكر في بيسان وغضبها مني والقصيدة التي نسجتها، ضحكت فيما كنت أشرب الشاي فشَرِقت وكفأت الشاي على قميصي، قاموا فزعين.. وأحدهم يضرب على ظهري. ثم طلبت من سالم أن نعود.

عدنا للبيت ووجدنا زوجة سالم قد أقنعت بيسان بارتداء عباءة وحجاب بدل اللباس الذي عليها.

- أستر لها وأعف. قالت.

ذهبنا إلى السوق، سالم تكفل بدفع أي شيء نشتريه، يعلم أنني لا أملك المال. عصر ذلك اليوم بدأ الإعصار يهب في حياتي وحياتها حين رأيت في السوق أبو الصارم الذي مر من أمامي وعيناه تكاد تلتهم بيسان، وبدا على وجهه وكأنه عثر على كنز ثمين. خفت من نظراته ووضعت يدي حولها من غير أن

أشعر، نظرت لي باستغراب ثم تركتها بسرعة، التفت للوراء بعد أن راودتني فكرة اللحاق به وخنقه حتى الموت.. فجأة..!

قبض على حلقي أحدهم وخنقني، لم أنتبه له جيدا، حتى أبعده سالم عني وطرحه أرضا بعد أن ساعده شاب آخر، سمعت الرجل الملقى على الأرض يسب ويلعن! بأننا نختطف المسيحيات ونرغمهن على الزواج منا. لم يكن الرجل سوى أبو أسد.

بيسان كذبته بسرعة وأكدت أنها زوجتي وقد دخلت في الإسلام وشهدت أمام الناس بالشهادتين.

فرح الناس المتجمهرون بما قالته.. النساء بدأن يهنئنها ويقبلنها حتى زوجة سالم، قام أبو أسد يسب ويشتم، حتى نهره أحدهم فكف. طلب مفتاح سيارته بعد أن نعتني بالسرقة، رميته له، وطلب سالم من أحد الشباب إيصاله إليها.

* * *

ليلتها سألني سالم عن قصتي مع الفتاة..؟ فأخبرته بالقصة كاملة. لا حول ولا قوة إلا بالله. قالها. ثم عاب علي النوم معها وهي ليست على ذمتي. أقسمت له إنني لم أمسها وأستغل وضعي معها. لم يصدق حتى أغلظت له القسم.

- كيف لك أن تمكث معها طول هذه الأيام؟ وهي بهذا الجمال والفتنة ولا تمسها! لست بيوسف عليه السلام.. هل أنت عنين؟ قالها.

- لست عنينا.. وأنوي الزواج منها، لكن ليس الآن، بل بعد أن أوصلها إلى بر الأمان عند عمتها، ساعتها سأخبرها بالحقيقة.. فأرى هل ستقبل.. أم لا. قلت له.

طلب مني عدم إخبارها وأن أتزوجها الآن ما دامت نطقت بالشهادتين. رفضت قوله.

- لن يهدأ لي بال حتى أخرجها وأخبرها. قلت.

- مجنون. قالها.

الأحداث التي مررت بها جعلتني أنسى أن أخبره أن أبو الصارم الذي ينتمي لجماعة عميش قد رآني، أطلعته على الأمر حين تذكرت.

– لا بد أن أبو النار سيحشد قواته، عليك المغادرة الآن. قالها.

أتاه صوت على اللاسلكي يخبره أن قوات أبو النار اكتسحت بلدة الجاجية ويتقدمون نحونا. ثم سمعت صوت القائد مصعب.. يطلب حضور قادة السرايا إلى مقر القيادة فورا.

وضعنا بيسان وزوجته في أحد البيوت الآمنة وانطلقنا نحو القيادة. كان الوضع متوترا في المقر حتى إن مصعباً لم يهتم بالسلام علي، استفسر من سالم عن سبب هجوم أبو النار علينا بهذه الصورة؟

أطلعه أنني سبب ذلك بعد أن قتلت شقيقه عميش. طلبتُ منهم إخراجي من المدينة حتى لا يحدث صدام ويقتل خلق كثير بسبب فعلتي.

صوت أجش أشبه بصوت عميش عَبَرَ اللاسلكي، يطلب من القيادة تسليم المجرم المرتد الكويتي.. ضياء عبدالكريم مبارك، بسبب قتله الغادر لأمير سرية سيف الحق التابعة لجيش القرآن، وتسليم الفتاة المسيحية بيسان بنت بديع الحمصي وإلا سيهدم حماة فوق رؤوس أهلها.

انتهى كلامه.. ومصعب يتطلع للقادة، طالبا منهم الاستعداد للحرب، لن يرضخ لتهديده سيحاربهم إن أجابوا شروطه أو رفضوها، يتحين الفرص عليهم منذ مدة ليقاتلهم.

ذهب قادة السرايا بعد أن وضعوا الخطة للمواجهة، كنت مع سالم الذي منحني سلاح كلاشنكوف وذخيرة، طلبت من سالم أن يرجعني للبيت لأطمئن عليها. رفض.. حتى رجوته بأنني ربما لن أعود ويجب أن أخبرها بالحقيقة. نظر لي بحنق، ثم صعدنا للسيارة وسرنا حتى توقفنا عند المنزل، نزل عند زوجته فيما اتجهت نحوها وأخبرتها أننا سنهرب. قادتني إلى باب آخر مُفض إلى حقول الزيتون، أمسكت يدها وانطلقنا نركض بين الشجر، سمعت صوت سالم يصيح:

- اهرب يا جبان.

لم أُعره اهتماما لست طرفا بحربهم، سنهرب بعيدا عنهم وليتوقف أبو النار ومصعب عن الحرب ساعتها إن كنت أنا من سببها. ركضنا بأقصى سرعة وكأن وحشا جائعا يطاردنا، قطعنا مسافة كبيرة حتى سقطت بيسان من التعب، مُلَوّحة بيدها بأنها غير قادرة على السير، توقفت وقعدت بقربها ونحن نلهث، حتى سمعنا صوت إطلاق النار ثم قذائف المدافع التي هزت

الأرض تحتنا، قمنا وعدونا حتى اقتربنا من شارع فابتعدنا عنه وعن البيوت وسرنا خلال الحقول، لم نتوقف حتى انقطع صوت إطلاق النار وغار دوي المدافع تماما.

عندها سقطنا على الأرض منهكين وأصوات الدِيَكة تصيح معلنة دخول الفجر، أسندتُ ظهري إلى شجرة فيما وضعت رأسها على كتفي، معطفانا أبقيا جسدينا دافئين رغم شعورنا بالبرد، وضعتْ كفيها بين فخذيها فيما كانت يدي تمتد حول كتفيها وضممتها إلى صدري.. ونمنا.

* * *

قمت صباحاً على زقاء ديك أمامي ونقنقة حرمه الدجاجات، أشعة الشمس تخللت أغصان الشجر، شممت رائحة دخان الحطب وسمعت صوت محراث ينبش الأرض قريبا منا. أيقظت بيسان، قمنا ومشينا بحذر نحو الصوت، رأيت رجلا كبيرا في السن يقلب التربة عند شجرة، انتبه لنا عندما اقتربنا منه، رفع يداه عاليا..

ليس لديه شيء ليمنحنا إياه، مسالم هو وزوجته. قال.

فقد الأمن كفقد الضوء، لا أمان في الظلام ، أبى الرجل هو وزوجته النزوح عن بلده بعد أن هجرها أبناؤه بعد أن سمح لهم بالمغادرة حين عمت الفوضى البلاد ودمرتها. طلب منا قبول دعوته للإفطار معه حين عرف أننا هاربان. قبلت دعوته عندما رأيت الشفقة في عينيه تظلنا.

نحن في بلدة القمحانة تبعد عشرة كيلو مترات شمال حماة. قالها. فرحتُ بأنني سرت في طريق الشمال حيث تركيا. سرنا إلى بيته الصغير الذي توسط الحقل، غرفة صغيرة ضمتنا مع زوجته التي احتضنت بيسان ساعة رؤيتها، وأخذت تُقبلها وكأنها تقبل ابنة لها. منذ سنتين لم يريا أبناءهما، لا يعلمان أين هم؟ وبأي أرض؟ يخشيان الذهاب للمدن والبلدات، يريدان

أن يعيشا بسلام على أرضهما.

أحضرت لنا السيدة خبزاً ساخناً وجبنا وزيت زيتون وإبريق شاي، تناولناه وسط ابتسامة المرأة لزوجها، سألتها عن سبب ابتسامتها؟

تظننا حديثي الزواج بسبب الود البادي على تعاملنا مع بعضنا. لم أشأ أن أخيب ظنها فأجبتها.. بنعم.

فلا شأن لها إن كنا زوجين أم لا. ستعد لنا الغداء فهي لم تر بشرا منذ شهر بعد أن هجر جيرانها بيوتهم. طلبتُ من الرجل أن يدلنا على طريق إدلب أو يساعدنا في الوصول إليها.

– الطريق الآن في غاية الخطورة، سأحاول إيصالكما إلى بلدة طيبة الإمام وسنجد من يوصلكم إلى مدينة إدلب. قال.

ثم طلب من زوجته إعداد غرفة لنا، سنمكث عندهما الليلة. نظرت إليّ بيسان عندما غادرا الغرفة، كانت أمامي تبعد مترين فقط، ضامة رجليها أسفل عجزتها ومائلة بشقها الأيمن، مستندة بذراعها إلى مخدتين ويدها على خدها.

كانت لا تخشى الموت، رأت من الموتى ما يكفي لتعتاد عليه، عندما نفقد الحب نرقص للموت، لحظة قدومي حضر

الحب معي حين زففت لها نبأ والدها، نبض قلبها بالحب من جديد وتمسكت بالحياة من أجل أن تراه، لم تعلم أن حباً أعظم يظلها ويمشي إلى جانبها ويحميها بصمت، العين مرآة القلب تكشف ما بداخله، كانت ترى أن الحروب تلد الكراهية والشر.. إلا أنها غيرت نظرتها.. أيضا يولد فيها الحب والخير، وجودي في حياتها أصبح بمثابة السعادة لها، فهل أرضى أن ترحل سعادتها عنها؟

- لا. قلت.

ابتسمَتْ ثم عبسَتْ حين قلت: أقصد.. لا.. تفكري بهذه الطريقة، سعادتك ملكٌ لك، ومهمتي إيصالك إلى عمتك ثم ترين طريق حياتك، لا تربطي حياتك بحياتي. صمتُ قليلاً وسط مشاعر الخذلان التي رأيتها في عينيها.

- بيسان لا أريد لك الشقاء. قلت لها.

- الشقاء عندما تُحب حبيبًا لا يحبكَ. قالتها وقامت لتخرج.

نظرتُ لها حين قامت وقلت بأعلى صوتٍ لي: أحبكِ.. أحبكِ.. أحبكِ. تردد الصوت في صدري ولم يخرج من فمي

ليعبر الهواء ويُسمع أذنيها، التفتت لي وكأنها سمعت تردده في صدري ثم أكملت طريقها.

خرجت وساعدت الرجل الذي يدعى أبو هشام في قص بعض الأغصان، كان يتغنى بكلمات رددتها معه بيسان عندما حضرت حاملةً طست ماء هي وأم هشام.

شام الخير.. كم أحببتك.. وأحببت هواءك ونسماته.. خير البلاد أنت.. وفيك خير الماء والتراب.. رقص الطير فرحا في سماك.. معشعشا لا يريد غير أفنان شراك.. فيك الرُبى.. والهناء.. والعلا.. وفيك بهجة الأنظار.

نظر أبو هشام إليها مبتسما ثم تغنى قائلا وهي تسايره:

هذه... دمشق

وهذي الكأس والراح

إني أُحب.. وبعض الحب ذباح

أنا الدمشقي ولو شرحت جسدي

لسال منه عناقيد وتفاح

ولو فتحتم شراييني بمديتكم

سمعتم في دمي أصوات من راحوا

زراعة القلب تشفي بعض من عشقوا

وما لقلبي إذا أحببت جراح.

ألقى أبو هشام الفأس وصفق لها وهي تبتسم وتنحني له وأنا أردد في قلبي..

أنا الكويتي لو شرحتم جسدي

لسال منه دمًا كَتب بيساني.

بعدها تناولنا غداءنا وقت المغرب مباشرة، ثم أخرج أبو هشام سيجارته وبدأ يدخن. قطع الدخان منذ فترة طويلة وعندما أُضرمت النار في سورية وبدأ الدخان يخرج من كل زواياها بدأ يدخن، لا ضير أن تشارك بلدك مصيره المدخن.

اتكأ على المخدة قرب أم هشام، فيما كانت بيسان بقربي، سرد علينا ما في جعبته من ذكريات..

قمحانة كلمة سريانية تعني القمح بالعربية، كانت بلاد سورية قبل الإسلام تتحدث بالسريانية، لغة الآشوريين والسريانيين والكلدانيين حتى في بداية عصر الأمويين ظلت هي لغة الدواوين وهيئات الدولة حتى أتى عصر عبد الملك بن مروان،

قلة الآن من يتحدث بها في بلاد الشام والعراق، يراني مُخطئا حين تركت بلادي وجئت لسورية. قاطعته بيسان وأطلعته أنني قدمت لإنقاذها بعد أن حوصرت في الوعر.

نظرَ لأم هشام وابتسما لبعضهما وهما يعصران يداهما بحرارة. يرى أن حبًا مثل حبي لبيسان نادر في هذا العصر بل لا يكاد يُصدق أنه موجود، وأن قصص الحب ما هي إلا قصص مكذوبة، بيسان وضياء دليل على أن الحب موجود في كل زمان ومكان، هما رمز الأمل بأن الخير موجود في زمن الشر والنار، نظراتنا إلى بعضنا جلبت له السعادة هو وزوجته، الحب ليس لاثنين متحابين فقط، بل إن حبهما كأشعة الشمس التي تجلب الدفء بعد برد قارس، سرور يغمر من يراه ويسمع فيه ويقرأ عنه، حبكما هو اللبنة التي نشأ عليها الإنسان حين خلق من طين، فالخير ينبع من الإنسان والشر دخيل عليه.

سمرنا معهما حتى طلبا منا أن ننام في غرفتهما فيما سينامان هما في مكانهما، رفضت وطلبت من أم هشام مشاركة بيسان الفراش، ضحكا ودفعانا وكأنهما يزفان عريسين خجولين.

الغرفة صغيرة جداً، السرير والخزانة احتلا أكبر مساحة فيها، لا مكان في الأرض لأنام عليه، سوى مشاركتها السرير، نزعتُ

معطفي وعلقت السلاح وأخذت مخدة ورميتها أسفل السرير، حشرت جسدي بين الجدار وحافة السرير لأدخل تحته، وسط ضحكات بيسان الرنانة، ثم أغلقتُ عينيْ واستسلمت للنوم، فيما نامت على السرير.

بعد مدة لا أعلمها..استيقظت وسط ظلام دامس وهمسا أتى من خلفي يقول:

- بدي أشاركك حتى في الأَبِرْ (القبر).

ابتعدت عنها قليلًا ونمنا تحت السرير معا.

* * *

ارتطم رأسي بخشبة السرير حين سمعت صوت إطلاق نار، لم أعلم أين أنا حين استيقظت؟ ثوان حتى استوعبت مكاني. بيسان استيقظت متسائلة؟ طلبت منها البقاء حيث هي. طلقة ثانية دوت جعلتني أزحف باتجاهها حيث لا مخرج إلا من جهتها، ابتعدت عن طريقي بصعوبة احتك جسمي بجسمها حتى خرجت. كررت طلبي منها بعدم الخروج مهما كان الأمر حتى تسمع صوتي.

لم أجد سلاحي في مكانه! خرجت من الغرفة محنيا أمشي على أطراف أصابع قدمي الحافيتين، لا أحد في المطبخ ولا الغرفة التي نام فيها أبو هشام وزوجته، سمعت صوتا في الخارج يطلب أن يخبره عن مكان المسلح الذي أواه عنده؟

اختلست النظر.. سبعة رجال مسلحون أمام أبو هشام المحتضن زوجته المستلقية بلا حراك، انتبهت لدم يسيل تحت رأسها، اندفعت للوراء ملصقا ظهري بالحائط وواضعا يدي على فمي ودمعة تكاد تقفز من عيني، قَلى صدري من الغضب والحزن. دوى صوت إطلاق الرصاص فعلمت أنهم قتلوه، سمعت أحدهم يطلب من شخص حرق البيت واللحاق بهم.

رفرف العلم الأصفر على آلياتهم حين تحركت ما عدا

دراجة نارية شاهدتها مركونة عند شجرة، نظرت أمامي إذ بسكين كان أبو هشام يقطع بها الفاكهة ويقدمها لي. قبضت عليها وعندما دخل يرش الوقود السائل في البيت، طعنته عدة طعنات في رقبته إحداها أتت في عينه ليسقط صريعا. انتفض جسدي.. ويداي ارتعدتا.. وأسقطت السكين، قتلتُ من قبل بالسلاح الناري إلا أنها المرة الأولى التي أقتل فيها بسكين ووحدي دون جماعتي. أخذت سلاحه وذخيرته وبحثت عن المفتاح ولم أجده، ركضت نحو الزوجين ورأيت طلقة في رأس أم هشام، وطلقات اخترقت جسم زوجها ووجهه. بكيت عليهما، أحببت دفنهما، لكنني خشيت رجوع الأوغاد، أخذت صفيحة الوقود وسكبتها عليهما بعد أن أخذت هوية أبو هشام من جيبه، أشعلت النار في جثة الزوجين قائلا:

- النار ولا الكلاب تنهشهما.

عدت إلى بيسان وطلبت منها الخروج، لبسنا معطفينا ووضعت السلاح على كتفي.. وسط تساؤلها؟

طلبت منها إغماض عينيها. فرفضت. أغمضتهما بيدي لافًا ذراعي حول رأسها حين خرجنا، اتجهت نحو الدراجة وسط بكائها، وجدت المفتاح فيها، أدرتها ثم ركبنا وانطلقنا لنسقط

عدت مرات حتى استطعت تثبيتها، بيسان تبكي وتسأل هل قُتلا؟

- قُتلا يا بيسان قُتلا. قُلتها بكل حسرة وآلم.

❊ ❊ ❊

سرنا على طريق فرعي، كلما رأيت سيارة دخلت في الحقول بين الشجر، مخترقا سنابل القمح، رأيت رجلا مسنًا أمام بيته في أحد الحقول، سألته عن أقرب طريق لإدلب ولو كان بريًا؟

نظر إلى بيسان التي بدا على وجهها آثار الحزن والبكاء.

– لا بد أنكما فقدتما أعزاء، طريق إدلب محفوف بالصراع الآن، عليكما أن تمكثا عندنا حتى أجد طريقة لإيصالكما. قالها فيما خرجت عجوز من البيت تسأل ما الأمر؟

– أين طريق إدلب. قلتها بصرامة. فأشار بيده نحو جهتها.

خفت أن أتسبب بهلاكهما أيضا كما قُتل الزوجان، رأيت لوحة تشير إلى بلدة طيبة الإمام، تذكرت أن أبو هشام كان يريد أن يأخذنا إليها، توجهت نحوها حتى دخلت بين أزقتها بعد أن أخفيت السلاح في معطفي، بيسان طلبت مني إن اشتبه أحد في لهجتي.. أن أقول إنني من الرقة حيث لهجتهم تقارب لهجتنا.

مؤشر الوقود يكاد ينفد، توقفت عند مطعم يقدم الفطائر وطلبت منه. عندما أراد النقود عرضت عليه شراء الدراجة بأي سعر يريده. عشرة آلاف ليرة تسلمتها منه.. أقل من خُمس سعرها. قالت بيسان.

كنت أريد بيع الدراجة لصاحب المحل وليس من أجل الطعام الذي فقدنا الشهية له، فقط شربنا الماء ثم طلبت من بيسان أن تأكل.. لا شهية لها، سألتني لم قُتلا؟

– دخلوا يداهمون المكان وعثروا على سلاحي، وحده الله وقانا منهم، طلبوا منهما تسليمنا فأنكرا أن لديهما مسلحين، فقتلا دفاعا عنا. قلت لها.

عادت للبكاء من جديد، لائمة نفسها وأنا بالتسبب في مقتلهما. سرحتُ بفكري بعيدا عن بكائها..

هربتُ من مشاركتها الفراش، ليس خوفًا من أن أقع بالفاحشة إنما بسبب الحب، عشقي لها يمنعني من أن أخدعها أو أن يتصل جسمي بها، أريدها زوجة لي، لكن بعد أن تعرف ما ارتكبته من جرم في حقها.

كان موتنا وشيكًا إلا أن قَدرنا أمهلنا ليوم ما.. أحبتْ مشاركتي النوم تحت السرير وقالت:

– سأشاركك حتى في القبر.

كم يحب الرجل والمرأة على حد سواء وجود حب صادق بينهما، فرحتُ حين قالت تلك الجملة، سعادتي بما قالته لم

تدم إلى الصباح حين قُتلا الزوجان المسكينان بسببنا. طاردت الموت من أجل الشهادة وحقيقة الأمر كنت أريد الانتحار كما فعل والد جدي، ثم أحببت مساعدة بديع في العثور على عائلته ووقعت في حب ابنته كما وقع أبي في الحب، أخشى عليها من الموت كما ماتت أمي.. تذكرتُ قصة والديّ.. وتردد سؤالٌ في عقلي..؟

- هل نرثُ أقدارنا؟

- هل بؤسنا يورث أيضاً؟

- هل الحظ صنيعة أم قدر كتب علينا سلفاً؟

نجاتنا من الموت كانت حظا لنا وسوء حظ للزوجين، لن أقبل دعوة أحد للنزول في ضيافته، كما سأحاول وأقاوم حبي لها ولو مت قتيلاً بسبب تلك المقاومة، سأظل صامتاً وأتركها تعيش حياتها بسلام، أخشى أن أنقل لها عدوى عائلتي المنكوبة.

توجهت نحو أحد أصحاب السيارات المتوقفة، عرضت عليه عشرة آلاف ليرة مقابل إيصالنا إلى مدينة إدلب، ضحك من هذا المبلغ الذي قدمته! لو كانت خمسين ألفًا لفكر مراراً

لنقلنا في هذا الوقت، سيأخذنا مقابل خمسة آلاف لمنتصف الطريق. وافقت وصعدنا معه.

سار في طرق فرعية وكلما قابل حاجزا خِفت بشدة، لم يكن مصدر خوفي على نفسي، بل على الملاك الذي قعد بقربي، سارت الأمور على ما يرام حتى وصلنا لمنتصف الطريق في بلدة كَفر سجنة.

– لو سرت في طريق مستقيم نحو الشمال ستصل لوسط إدلب، قرابة مئة كيلو متر من هنا. قالها.

– وكم تبعد الحدود التركية؟ سألته.

– عندما تصل إلى بلدة أريحا ستكون الحدود جهة الغرب منك على مسافة ثلاثين كيلو مترا تفصلك الجبال عنها، لكن! من مدينة إدلب أسهل، حيث تبعد خمسة عشر كيلو مترا. قال.

فرحت بقرب الحدود وشكرته وأنا أناوله النقود، رأيته يعود من حيث أتى، تطلعت في البيوت شبه الخالية ساعة العصر ورأيت شيخًا لحيته طويلة متجها إلى المسجد، ناديت عليه، فتوقف! شكله لا يوحي بخير، ليس لطيفا معي حين نفى وجود من يأخذنا إلى إدلب. مشينا بين البيوت، الكثير منها خالية

وبعضها محترقة وأخرى خرق الرصاص جدرانها. دخلت أحد البيوت الخالية من أي شيء سوى حنفية، عندما فتحت الصنبور نزل ماء أحمر ثم أصفر حتى صفى، تشاءمت بيسان من اسم البلدة ولون الماء حين نزل.

دفعنا الجوع لتناول الطعام وتركنا ما تبقى منه للغد. بيسان انطوت في زاوية وبكت مجددا عليهما، حمدت الله أنها لم ترهما صريعين محروقين، ندمت على تصرفي الأهوج حين حرقتهما، تمنيت لو تركتهما ولو نهشتهما الكلاب، خوفي على بيسان هو ما دفعني للهروب وعدم البقاء لدفنهما، التبرير حصان المخطئ دائما وغالباً.

اقتربت منها وكدت أحضنها فاكتفيت بوضع يدي على كتفها قائلاً..

لم نرتكب خطأ بحقهما، تركناهما سعيدين وماتا متعانقين. ثم وضعت يدي في جيبي، أبحث عن محرمة لتمسح دموعها فلمست مقبض مسدس أبو أسد، كنت قد نسيته ولم أفطن إليه، أخرجته وعددت طلاقات مخزنة، ست طلقات متبقية فيه، أبقيت المخزن جانبا وناولتها المسدس شارحا لها كيفية استعماله..

– ضياء لن أستطيع قتل أحد.قالت مستنكرة.

– لن تقتلي أحداً ما دمت حياً أما في حالة مقتلي.

صَمت أمام اتساع مُقلتيها وأشرت لها بأن تضع فوهة المسدس تحت ذقنها وتضغط الزناد ولا تتردد.

ستضغط على الزناد في حالة موتي، ليس خوفاً من الأسر والاغتصاب والتعذيب إنما كل ذلك يهون عن ساعة لا تحيا معي فيها. آلمتني بما ذكرته.

مشاعرها تجاهي تضطرم وتشتد، وحبي لها كمحرك حُقن بوقود، كلما عبرت عن مشاعرها ضخت الوقود أكثر في المحرك.

حل المساء وهي تحدثني عن طفولتها في حمص، مدينتها عريقة ضاربة جذورها في الأرض منذ مئات السنين، ومدينتي الفروانية قائمة على وجود النفط، متى ما انتهى زالت الحياة عنها، بلادي لا تُهيئ من مواردها الناضبة أرضا تنضح بالاستقرار.

أدركنا النعاس ورأيتها تتوسد يدها لتنام، طلبت منها أن تتوسد صدري، اقتربت ووضعت رأسها عليه وسألتني.. ما

اسم المنطقة التي أسكن فيها؟

- الفردوس. قلت.

كثير ممن سألوني أين أسكن؟ أجيبهم: في الفردوس. يردون جعلك الله من أهل الفردوس الأعلى. وهذه أفضل محاسن من يسكن الفردوس في الكويت. عندما قالتها بيسان أيضا، ازدادت نبضات قلبي، وقلت في نفسي:

- الفردوس واضعة خدها على صدري الآن.

* * *

أبشعُ شيء في الحياة أن تصحو صباحا على مصيبة تمقت نفسك حينها وتكره الدنيا بما فيها، هببت فزعًا على صوتٍ صَدَرَ من جهاز مُكبر الصوت...

– من يؤوي الخائن المرتد الكويتي.. ضياء عبدالكريم مبارك والكافرة.. بيسان بنت بديع الحمصي، عليه أن يسلمهما لنا.. وإلا عرض نفسه للقتل وأهله للسبي.

وَجِلَتْ عندما كرر صاحب الصوت ما قاله. سألتني من هذا الذي يطاردنا وكيف له أن يعرف هويتنا؟

لم أجبها.. ونظرت من ثقب في الحائط، رأيت جماعتي وآخرون يفتشون الدور، رأيت أبو الصارم على دبابة، وأبو الريان يرفس باب بيت بقدمه وغيرهم كثيرون.. منتشرين في البلدة الصغيرة، دقائق معدودة حتى يعثروا علينا. أمسكت كتفيها بشدة وطلبت منها أن تعدني بقتل نفسها ولا تستسلم لهم.

غيرَة أصابتني عليها.. تخيلتها واقعة بيدهم.. وأبو الصارم يشتريها من أحدهم.. بعد أن قضى وطره منها، صور كثيرة ملأت رأسي عن حالها معهم. قبضت على يديها بقوة راجيًا

أن تفعل ما طلبته منها. أقسمت بأنها ستقتل نفسها ولن تجعلهم يمسوها.

انتبهتْ لإصبعي ورأتْ الشعرات المربوطة عليه، لم تلاحظها من قبل إلا في هذه اللحظة العصيبة، كل ما نحن فيه من هلع واقتراب لدقائق نهاية حبي الصامت لها.. ابتسمت وضحكتْ.

– هذه الشعرات من رأسي، ربطتها خاتما! دليلٌ هذا على حبك لي. قالت.

نظرت لها مبتسما.. لِمَ لا ترى ابتسامتي لآخر مرة، طرقٌ شديد على الباب وصوت يطلب بفتحه.

أخذت بيدها وجرينا إلى خلف البيت، تسلقت السور وسحبتها نحوي، ركضنا نحو بيت آخر، سمعت أحدهم يصرخ بأن نتوقف. دخلت بيتاً سقط أحد أسواره، بدأت طلقات النار تنهال علينا، تحصنا خلف صخرة سميكة، كان سور البيت مبنيا من الحجارة القديمة، أطلقتُ النار على كل من اقترب منا، أصبت أحدهم وسمعت صراخه. انطلقت قذيفة المدفع لتضرب بيتا مقابلنا وينفجر لتتناثر الأتربة علينا

والحجارة، الغبار ملأ المكان وأزيز الرصاص يخترقه، صوت فجع قلبي حين سمعته يقول:

– إن لم تستطيعوا أسره فاقتلوه واحرصوا على سلامة الفتاة.

صمت قليلا ليعاود القول:

ضياء الشر.. سنعيث فساداً في فتاتك، أبو أسد أخبرنا كم تعشقها. صوت ضحكاته يتردد.

– لن تفلت هذه المرة منا. قالها.

انتحبتْ عندها بيسان، أخذتُ بيدها عندما سمعت صوت جنزير الدبابة يقترب، ركضنا بين الغبار حتى انقشع عنا جاعلها أمامي أقيها بجسمي عن طلقات الرصاص، إحداها اخترقت كتفي اليسرى وجعلتني أسقط عليها، صاحب الصوت.. طلب منهم عدم قتلي حين رآني سقطت.

قمت متثاقلاً ومستنداً عليها، سرنا مسرعين ودخلنا في أحد البيوت المدمرة، سقطت على الأرض والعرق يبلل وجهي ودمي يقطر على الأرض، طلبت منها أن تقتل نفسها. وضعت فوهة المسدس أسفل ذقنها ولم تستطع فعلها، ارتعدت فرائصها وأسقطته.

اقتربوا منا وأطلقوا الرصاص حولنا، أحببت أن أرى عينيها لآخر مرة، رفعتُ رأسها بيدي وتطلعت إلى عينيها المملوءتين دموعا، لو رسم رسام مبتدئ صورتها على تلك الهيئة لفاقت لوحته لوحة الجوكندا، سيرى الزائرون المتذوقون للفن في قسمات وجهها المشاعر الإنسانية مجتمعة، عيناها تشعان حبًا في حومة المحن والبلايا. أدرتُ جسمها للوراء وهي مستجيبة لي مُسلِمةٌ أمرها لنهاية قدرها على يدي، رسمت صليبا على صدرها.

– أيها الرب ضابط الكل، الذي سمع تضرع أبينا آدم وخلصه من الجحيم، اسمعنا نحن اليوم وخلص عبديك ضياء وبيسان، بصلاة سيدتنا العذراء، وجميع الشهداء والقديسين.. آمين. قالتها بخوف مشوب بارتباك.

رسمت الصليب مرة أخرى أمامها حين وضعتُ فوهة الرشاش على رأسها، سألت الله في قلبي أن يلطف بنا ويرحمنا. دوى صوت إطلاق الرصاص من جديد وبشدة.. كطير بلله المطر وارتعد لينفض قطرات الماء عن ريشة كان جسمها. إصبعي على الزناد، ترددت قليلاً وارتعدت يدي، فقط انتظرت اقتراب أحدهم لأطلق النار وأفجر رأسها لتسلم روحها قبل أن

يُعبث في جسدها ويُدنس بشرورهم.

فجأة.. أبعدت السلاح عن رأسها حين سمعت تبادل إطلاق النار..! استندت إليه ونظرت للخارج، رأيتهم مولين ظهورهم لنا، يتبادلون إطلاق النار مع جهة أخرى..! سحبتها بسرعة وانطلقنا نركض نحو حقل ممتلئ بالسنابل الخضراء واختبأنا خلف ساتر ترابي وسط السنابل، ظللت أرقب الوضع، الدبابة وجهت مدفعها نحو مكاننا مطلقة قذيفة لتنسفه تماماً.

نسفت البيت الذي تحصنا فيها قبل قليل، القتال اشتد بين جماعتي وجهة ما! رأيتهم يقاتلون وينسحبون بسرعة، أحسست بقواي تخور حين نزفت الكثير من الدماء، وضعتْ رأسي في حضنها، دموعها تسيل على خديها وتقطر على وجهي، أظلتني بوجهها عن الشمس وشعرها منبسط حولي، من يرانا يظننا نتبادل القُبل.

بعد نصف ساعة.. انقطع صوت الرصاص وسمعت صوتًا مختلفا عبر مُكبر المسجد ينادي باسمينا! يطلب منا الخروج. ما قصة القدر معنا اليوم؟ هل من نهاية سعيدة لمأساتنا؟ قلتها في نفسي.

بيسان تعرف صاحب الصوت.. الذي عَرّف باسمه حين نطقته.. خالد..، قامت فشددت ذراعها لتسقط على الأرض، نظرت لي مبتسمة ومؤكدة أنه صوت خالد صديقها ثم قامت ورأت أحد المسلحين فأومأت إليه. بعد لحظات أتتنا سيارة، نزل منها خالد وحمد الله على سلامتنا.

* * *

نُقلت إلى بلدة كفر نبل حيث تلقيت العلاج في مستشفى ميداني، طمأنني الطبيب إلى أن الرصاصة لم تتسبب بضرر كبير، اخترقت لوح كتفي اليسرى وسيلتئم الجرح خلال شهر إن أكثرت من شرب الحليب. كنت مستلقياً على الفراش والمغذي موصولٌ بذراعي، خالد تبرع بدمه بعد تطابقه معي، لتر واحد منه سد حاجتي. بيسان لازمتني ولم تذهب مع خالد حين طلب منها الذهاب معه لترتاح في أحد البيوت. سيخرج غدا، قال الطبيب لها، مما جعلها تُصر على البقاء معي.

قضتْ الليلة بقربي وسط فوضى المستشفى الميداني الذي يتلقى مصاباً أو أكثر كل ساعة، صحوت من النوم على ألم مُبرح في كتفي وأحسست بحرارة في جسمي، رأسها على طرف السرير، متوسدة يداها وهي قاعدة على الكرسي. أردت أن أشرب ماء لأروي عطشي المُتأجج، حركتي أيقظتها فطلبت منها الماء، سكبته بسرعة في الكأس وناولته لي، ثلاثة كؤوس أروت غليلي، تأسفتُ لإيقاظها وشكرتها على مساعدتي. هي من تشكرني على كل ما بذلته من أجلها، لو لم يكن جسمي خلفها لتلقت الرصاصة. بدأتُ أقص عليها سبب مطاردتهم لي.. عندما سألتني؟ دُهشت من فعلتي! لا يبدو على وجهي الإجرام.

تحاشيت سؤالها عن سبب قتل عميش؟ وانتقلتُ بسرعة لأجيبها عن كيفية معرفتهم فيها. قبل أن يعثر علينا أبو أسد في حماة، رأيت أحد أفراد جماعتي السابقة ويدعى أبو الصارم، ربما تتبع أبو أسد وسأله عن قصتي معك حين رأى شجاري معه.

– لقد أنقذنا القدر مراراً لنكمل قصتنا، لم لا تخبرني أنك تُحبني ضياء؟ قالتها وهي قابضة بيديها على يدي.

– ابتسمتُ لك حين رأيتِ الشعرات حول إصبعي حتى لا أخذل تعلقك فيّ ونحن في آخر دقائق لنا كما ظننا، حُبكِ لي عائد لضعف موقفكِ فتعلقت بي معتقدة أنك تُحبينني، ساعة وصولكِ لبر الأمان ستتغير مشاعرك اتجاهي.. صدقيني. قلت لها حين نزعتُ يدي عنها.

غضبت عندما قلت لها هذا الكلام، ليس لي شأن بإحساسها نحوي، تريد معرفة إحساسي نحوها.. هل أنا أحبها أم لا؟.. النفي كان جوابي، فقبضت على يدي وأشارت إلى إصبعي قائلة:

– على ما يدل هذا؟

– أنا من قوم يتباركون بشعر النساء حين نلفه على إصبعنا. قلت لها.

هي أيضاً من صنف يتبارك بشعر الرجال حين يلففنه على أصابعهن. أرتني إصبعها الذي لفت عليه شعرات من رأسي، ابتسمت لها ثم صرفت وجهي عنها واستسلمت للنوم.

أقلنا خالد بسيارته لأحد البيوت صباحاً وسلمته أثناها هوية أبو هشام بعد أن أخبرته بالقصة، أبدى إعجابه بشجاعتي وشكرني على رعاية بيسان. لا يزال جسمي يؤلمني، الحبوب التي صرفها الطبيب تسكن الألم قليلاً. ذكر خالد أنني كنت سببا في رصد إحدى كتائب أبو النار، عرف مكاننا من جهاز اللاسلكي الذي أخذه مني حين كنا في الوعر، سمعهم عبر تردد موجتهم يتكلمون عن رجل في بلدة سجنة يخبرهم عن مواصفاتي أنا وبيسان، أراد إنقاذنا وقتل هذه الجماعة التي تسببت لهم بالأذى، سيطروا على بلدة سجنة بعد أن قتلوا خمسة عشر مسلحا من جماعة أبو النار، غداً سيوصلنا للحدود التركية.

ثم زف إلى بيسان خبر زواجه من شيماء حين سألت عنها؟ باركنا له زواجه وهو يبتسم وينظر إليها في المرآة. توقفنا عند بيت ونزلنا، دخلت بيسان إلى قسم النساء حين أرشدها خالد للباب، الرجال مجتمعون ومعهم أسلحة بعد سماعهم أن جماعة أبو النار تقدمت نحوهم ثم عادت أدراجها، قعد بقربي شيخ كبير يحمل سلاحاً رشاشاً من نوع العوزي، تدربت عليه

حين كنت مع جماعتي، رحب بي ودعاني بالبطل، شجاع من يساند إخوانه المسلمين في محنتهم، أنا في نظره من الشجعان القلائل، بلدة مزرعة النبلاء ترحب بي، أطلعني أن كفر معناها مزرعة ونبل معناها نبلاء وهما كلمتان رومانيتان، إذا تحررت سورية من الفساد فالأمة العربية الإسلامية بخير، هي بمثابة القلب من الجسد فإذا مرضت مرض الجسد، استشهد له أربعة أبناء أصغرهم في الثالثة عشرة، زوجته ماتت بعد أن أصابتها طلقة قناص، ابنته اغتصبت وألقيت جثة عارية في حارتهم، يحتسب على الله ما مر به من مصائب، لم يبق إلا هو ويسأل الله أن يتقبل شهادته إن قُتل.

ثم وزع علينا بعد دقائق خبزا ملفوفًا على جبن وطماطم، لم يكمل خالد أكل شطيرته، وصله خبر قصف الطيران لبلدة سجنة، انطلق من فوره بعد أن أوصى مُحدثي أبو عمار بنا، وضع أبو عمار يده القاسية على فخذي قائلاً:

- بدي أوصلك لِتركيا ولو على. ضرب على رقبته بكفه محدثاً صوتاً.

* * *

قبل أن أنام طلبت من أبو عمار أن يطلبها لأطمئن عليها، أخبرني أن بإمكاني الدخول على النساء بعد طرق الباب، ذهبت وطرقت الباب، فتحته امرأة في العقد الثالث مرحبة بي، رأيت الكثير من النساء في صالة كبيرة، طلبتْ مني أن أتناول القهوة، بيسان في الحمام تحممها إحدى الفتيات، ناولتني قهوة سوداء، ارتشفتها وأنا أتذكر أبياتها غير الناضجة:

مدمنة أنا لك

يا فنجان قهوتي.

ابتسمت وأنا أشرب القهوة، المرأة سألت عن سر ابتسامتي يبحثون عما يسرهم؟

- لا شيء. قلت لها.

- الكويت حكومة وشعبا يد خيرها طالتنا هنا، أهل الخليج هم العرب الحقيقيون، وقفوا مع حقنا في العيش الكريم، لن ننسى موقفهم ما حيينا، سنربي الأجيال على قصة شهامتهم مع قضيتنا. قالت.

دخلت بيسان وشعرها مكشوف حين حدثتني المرأة، انتبهت الفتاة التي خلفها لوجودي فغطت شعرها فورا. قعدت بقربي تتلمس ذراعي، هل أشعر بألم؟ هل أحس بحرارة مرتفعة؟

وضعت يدها على رأسي، هل أشعر بصداع؟ هل أنا جائع؟ هل أنا عطشان؟ لم تكف عن أسئلتها حتى قالت المرأة:

هل أنت أمه. بدأ الخجل على وجنتيها وازداد حين قالت مرافقتها:

- لا.. عاشئته. (عاشقته)

عدت إلى مجلس الرجال وكلي شوق لها، أصبحتْ ملح حياتي بل هي الهواء الذي أتنفسه، أمامي صورتها أينما ذهبت، صوتها أسمعه كل بضع دقائق يتردد في مخيلتي، حدثتْ لي انحناءات خير في طريق جهادي الخاطئ، عندما نهاني عبدالله وأبو شعرة عن انضمامي إلى جماعة غازي، عندما اعترضت فاطمة طريقي وكدت ألين معها، عندما أرسل لي أبي آخر رسالة قرأتها من الكويت، عندما سُرق هاتفي ومحفظتي وحقيبتي في عنتاب، عندما نصحني سوري عنتاب عن الجهاد، عندما سجنت مع بديع، إلا أنك لم تكوني من انحناءات الخير في طريق الشر الذي سلكته ظنا مني أنه طريق خير، أنتِ وحدك من انتشلني من طريق الشر والكراهية والظلام إلى طريق الخير والحب والنور، لم أكن أكثر إبصارًا ورؤيةً حتى نبض القلب بحبكِ بيسان.

* * *

صباحاً هطل المطر بغزارة مما أعاق ذهابنا إلى مدينة إدلب، أيضا لم تأتنا أخبار عن خالد بعد قصف الطيران لبلدة سجنة. تقت لرؤيتها، أبو عمار طلب مني مرافقته لأحد المواقع في بلدة معرة النعمان، لم أستطع رفض طلبه، كان كريما جدا معنا.

دَبت إطارات السيارة على شارع معرة النعمان الرئيسي، بنايات مدمرة تماما بفعل القصف. هذا نتاج الدول التي تحكمها العصابات، يعلو الشر حين يصمت الخير، أبو عمار يبحث عن شيء ما! أطلعني أنه يبحث عمن يحتاج المساعدة، يعثر على مصابين وعلى أطفال تائهين من يوم لآخر، يريد جمع الحسنات في هذه الدنيا، هي كالحصالة التي تجمع أعمال الإنسان حتى تنكسر قبل نهاية مآله، يريد حين تكسر حصالته أن تتناثر منها الخرزات الخضراء لا الحمراء.

لفت انتباهنا طفل يناهز العاشرة وسط الشارع الخالي من ألوان الحياة سواه، ترجلنا وهرولنا نحوه، المطر منهمر علينا بشدة، أحسُ بصفعات قطراته، ملابسه رثة ممزقة، البؤس ارتسم على وجهه، صوته منكسر حين أخبرنا أن أمه مريضة وليس عندها أحد يساعدها. هرعنا لنجدتها، وجدناها في بيت متهدم وعندها كومة خبز يابس.

– هل عندكم ماشية لتطعموها الخبز؟ سألته.

– هذا طعامنا. قالها ببراءة.

فتاة في العقد العشرين من عمرها، شوه الوصبُ جمالها وألقاها على الأرض، حرارتها مرتفعة جدا حين وضع أبو عمار يده على جبهتها، حملناها ببطانية كانت تحتها لنضعها في المقعد الخلفي، انطلقنا بها إلى مستشفى نبل الميداني؛ لأن مستشفى معرة النعمان عرضة للقصف في أي لحظة، كون البلدة تقع على الطريق الدولي إلى حلب، كشف لنا الطفل عن اسم عائلته، والده اختفى منذ يومين. أبو عمار يساعد النساء اللاتي لا عائل لهن ويسكنهن في البيت الكبير الذي يسكنه، وصلنا إلى المستشفى وحملناها ووضعناها على أقرب سرير، قام الأطباء بعمل اللازم لها فيما قام أبو عمار بملاطفة الطفل وحمله على رأسه وإعطائه علكا كان في جيبه، فرحة الطفل لا توصف، استطاع أبو عمار إزالة البؤس الذي رأيته على وجهه.

– كم من حصالة فيها خرزات خُضر ستجنيها يا أبو عمار. قلتها في نفسي.

* * *

أجبرت نفسي وتواريت يوماً وليلة عن بيسان، كنت أطمأن عليها عن طريق المرأة، قلبي تمزق يتوق لرؤيتها إلا أنني لجمته بشدة، إذا لم يكن الموت نصيبها إن عاشت معي فالحزن والبؤس سيحلان مكانه، أريد لها السعادة والرخاء إن خرجنا سالمين، سأهبها ما لدي من مال لتهنأ به وتسعد ولا ينقصها شيء، أما أنا فبقائي بعيدا عنها خير لها من قربي، قصص جدي كانت دروسا استنتجت فحواها حين وقعت في جنة الحب.

عدت أنا وأبو عمار للبيت وقت العصر بعد أن كف المطر ومعنا الفتاة، كانت تدعو لنا طول الطريق وتبكي، خشيت على ابنها من الضياع إن ماتت. توقفنا عند البيت وعندما طرقت باب النساء، فُتح وهجم عليها ابنها وعانقها بحرارة. أبو عمار مسح دموعه وهو يشاهد هذا المنظر، نادتني المرأة وأخبرتني أن بيسان لم تتناول العشاء ولا طعام الإفطار والغداء. دخلت عليها ورأيت ابتسامتها ثم أشاحت بوجهها عني، لمست رأسها لا حرارة مرتفعة، ثم سألتها ممّ تشكو؟

تشكو مني.. ومن عدم اكتراثي بها، لم آت لأراها منذ الأمس؟ خافت علي كثيرا، يجب ألا أتجرد من إحساسي، فأنا من لها في هذه الأرض، لا تعرف هؤلاء الناس، اعتذرت

بالطمث حين سُئلت لم لا تصلي، يجب علي أن أراها كل ساعة إلى أن نرحل.

أخبرتها أننا سنرحل غداً إلى تركيا مع أبو عمار وسأعرج عليها بعد ساعة. رأيت ابتسامتها وهي تشبك أصابعها فيما كانت ابتسامتي ترسم حين أدرت لها ظهري.

* * *

كُنت صبية صغيرة رأت من الأوجاع ما يكفيها، بلسم شافٍ لجراح قلبي بروج حبكَ فيه، لم أعرف الحب قبلكَ ولن أعرفه بعدكَ، فأي حياة دونك أحياها، وأي طعم بفقدكَ أشتهيه، ضياء أنت لعينيْ ولدنياي فما هي الدنيا بلا ضياء فيها؟

لا تعلم كم نالني من السرور الذي أزاح الكربة التي كنت فيها ساعة رأيت شعراتي بإصبعكَ، لم أهتم للموت الذي حد مخالبه فوق ناصيتينا، لم أستطع قتل نفسي وأنت حي أمامي، لو كنت قُتلتَ ساعتها لَمَا ارتعدت يداي وأسقطتْ المسدس، كنت أريد دخول الإسلام من أجلكَ إلا أن اليسوع أنقذنا في آخر لحظة، دعواتي أنقذتنا مما كنا فيه، أحببت الصليب أكثر حينها، لا يضر إن أحببنا بعضنا ونحن على دينين مختلفين، أنت كويتي وأنا سوريةٌ من حمص، فلا ضير من افتراق وطنينا ودينينا، فحبنا يوحدنا ويسمو بنا ويُكوّن لنا وطنًا جنسيته لاثنين فقط، دستوره الحب وتفاصيلهُ مراتبهُ ودرجاتهُ منطلق من الهوى والكلف والعشق والشغف والجوى والتّيم والتدله ثم الهيام، فكم أنا هائمةٌ بك.

أرخصتَ نفسكَ من أجلي فلم تهتم لها وتجبن، رأيتُ فيكَ الحب العظيم لبقائي مصونة من كل مكروه، ما أعظم حبكَ وعشقكَ وإن كنتَ صامتا، الأفعال أشد أثرًا من الأقوال في إرسال رسائل الغرام والهيام، أعين النساء بدأ يقدح منها شرر الغيرة بعدما لاحظن حبكَ لي، فرحن بداية الأمر ثم غرن وحل الحسد في قلوبهن، كم هويتكَ وعشقتكَ في ظل صمتكَ، تضحيتكَ العظيمة وحبكَ البراق ألهب عطشي إلى سماع كلمة أُحبكِ من شفتيك، كلمة منك ستوقعني في بحر هواك للأبد.

* * *

حين دخلنا وجدنا شاباً يتحدث عن قصص مر بها، رحب به أبو عمار وعرّفه علي، اتسعت حدقتاه حين رآني وصافحني بقوة كبطل، مشهور أنا، الكل يتناقل مقاطع مصورة لي وأنا أقتل أسرى، جماعتي نشروا صوراً بعد أن قتلتُ عِميش، كيف قتلته سألني؟

صُعقت مما سمعته منه! وطلبت أن أرى شيئا مما صور. ليس لديه هاتف أخذوه منه حين التحق بهم منذ شهر، قدم من دولة الإمارات وهو هارب الآن، رأى منهم تصرفات تسيء للإسلام ليظهره بأقبح المظاهر على أنه دين قتل وسفك للدماء، يأتون بالأسير ويطلبون منه أن يسقط كأنه ميت حين يضغط الطفل على زناد مسدسه الفارغ، كرروها مع الأسير والطفل حتى وضعوا الذخيرة في المسدس فأطلق النار ليرديه صريعاً، لا الطفل يعلم بالحقيقة ولا الأسير ولا حتى من يشاهد، آلات تصوير حديثة معهم يستخدمونها في تصوير مشاهد القبح، كل شيء يفعلونه يلفه الغموض والريبة، أرابه أمرهم وتحَين أقرب الفرص للهرب، قريبون هم من هنا، متمركزون في بلدة حنتوتين حين هرب منهم. فزع الرجال مما ذكره.

– لا يبعدون عنا سوى عشرة كيلو مترات. قال أبو عمار.

نظر إليّ الشاب فيصل الذي أخبرنا باسمه.

– أبو النار بنفسه قدم لينتقم منك لقتلك شقيقه عميش، دفع مبلغا كبير لمن يقبض عليك حيا أنت وعشيقتك النصرانية الكافرة كما يقول. يريد قبل إعدامك أن يجعلك ترى ما يحل في عاهرتك، أعوانه والمرتزقة في كل مكان الآن، وضعك صعبٌ جدا..عليك الهرب. قالها.

قبض أبو عمار على عضدي وقادني إلى غرفة صغيرة، مغلقا بابها خلفه، يريد معرفة قصتي وسبب قتل عميش وما قصة الفتاة؟

أطرقت برأسي قليلاً.. كان واقفاً وعليه غيمة غضب ترعد فيما كنت قاعدا مستسلما لصواعقها، عندما بدأت سرد قصتي عليه قعد يستمع، سردت له نمط عيشي مع جدي حتى وفاته وسبب التحاقي بالجماعة، مرورا بالأحداث حتى معرفتي بالأستاذ بديع إلى أن وصلت إلى الفتاة التي هِمْتُ في حبها، اعترفت له بعشقِ لها وقصتي معها حتى وصلنا إلى هذا المكان وأنني لم أصارحها علانية إلى الآن.

نكس رأسه ملياً حتى ظننت أنه سيسقط من عنقه، سمعت

خلالها حشرجة في صدره كأنه يبكي، رفع رأسه ووارى دموعا لم يستطع إخفاءها حين مسحهما بكفيه الغليظتين.

- يموت حب ويحيا حب شجرة تأبى الفناء في قلوب الأوفياء، بُني.. فريد وطاهر هو حبك لهذه الفتاة الفاتنة، من منا يصبر على ما صبرت عليه وأنتما وحدكما لا حكومة.. لا عدالة.. لا أهل لها، كل شيء مهيأ لك، إلا أن حبك نقي لها، دفعها الله لك لينقذك مما كنت فيه من شر، قتلك عميش تبرئة لذنب لم ترتكبه بعمد، لا أريد التسبب في حرق هذه البلدة، سأنقلك بنفسي إلى الحدود التركية وسنرحل حالا. قالها حين نهض.

* * *

كنا نسير متجهين غربا ناحية بلدة كنصفرة، أحاطنا ظلام الليل ونحن نسير على الطريق، أبو عمار أراد إبعادنا عن حشود أبو النار المتمركزة شرق بلدة كفر نبل. كنصفرة كلمة سريانية تعني تل العنب بالعربية، كُنْ تعني تل وصفرة تعني العنب، سكانها يمتازون بسرعة النجدة وتقديم المساعدة، لم تسلم من طيورنا التي أمطرتها بالبراميل المتفجرة. قالها ثم نظر لعيني بيسان من خلال المرآة وأردف:

- عيناك فاتنتان ألا تقبلينني زوجاً لك؟

ضحكنا من قوله حين مسح لحيته البيضاء. دخلنا البلدة التي لم يستطع رداء الليل إخفاء آثار الدمار فيها، أكملنا مسيرنا شمالا نحو بلدة أرنبة، يشير أبو عمار جهة الغرب نحو الحدود التركية، مدة قصيرة حتى مررنا على أرنبة. هي أعلى بلدات جبل الزاوية في محافظة إدلب، بلدة جوزف التي تليها تعرضت لقصف ودمار، منذ أشهر. ثم أشار لجهة الشرق ناحية جبال حجبتها عتمة الليل، يطلقون عليها جبال الكتلة.

دخلنا بلدة جوزف، سنبيت عند أحد أصدقائه وسنكمل سيرنا في الغد، الساعة تشير للحادية عشرة مساءً، البرد شديد عندما نزلنا، أحسست بألم شديد في كتفي، بيسان ناولتني حبة

عندما لاحظت الألم على وجهي، ابتلعتها من غير ماء حين طرق أبو عمار الباب. رجل قصير نحيف فتح له وصافحه بحرارة، دخلنا صالة الضيوف، رحبت بنا زوجته ثم ابنته الشابة الشقراء زرقاء العينين، أبو تيسير كنيته حين سأله أبو عمار عن حاله بعد أن قعدنا وطلب بإعداد القهوة.

قدم لنا ابنه الصغير القهوة وقعد بجانب أمه، رأيت الغيرة من عين بيسان حين كانت تنظر للفتاة المكشوفة الشعر فقامت ونزعت معطفها لتبرز تقاسيم جسمها الفاتن، شهقت الفتاة وفتحت فمها ثم تداركت نفسها بسرعة، انشغل أبو عمار في الحديث عن الثورة ونتائجها، أبو تيسير لم يؤيدها منذ البداية، تخبط نظامهم ما أوصلهم لهذه الحالة، يرى أن هذا هو حال الدول التي يتفشى الظلم فيها.

عندما أردنا النوم، مد لنا أطرحة في الصالة في حين شاركت بيسان الفتاة غرفتها، قبل أن أغمض عينيْ قال أبو عمار:

– خيوه.. أوام عشيئتك يهبل.

ضحكت مما قاله وأغمضت عيني.

* * *

رأيت حُبيبات الثلج تنزل في الصباح الباكر، قدم لنا أبو تيسير الحليب الساخن؛ معتذرا بأنه لا يملك طعاما غير الحليب. خرجت لأرى الثلج المتساقط على الأرض الخلابة، كم هي جميلة بلدة جوزف، صغيرة كفتاتي.

فجأة.. قبضت علي بيسان! كادت تسقط الكأس من يدي، الغضب يلوح على أديم وجهها، لم تنم منذ البارحة بسبب هذه الفتاة العاهرة.

ضحكت مما قالته، تطلعت إلي بغضب، طالبة أن نرحل بسرعة قبل أن تتمادى الفتاة بشذوذها، لن تدخل إلى المنزل ثانية، ستنتظر قرب السيارة.

صوت إطلاق الرصاص! جعلني أسقط الكأس وأجذبها بشدة للداخل فيما اعترضني أبو عمار خارجا بسلاحه، أبو تيسير حمل اللاسلكي وأبلغ عن هجوم مسلح على قرية جوزف، أخذت سلاحي وخرجت وبيسان خلفي.

طلب مني أبو عمار التحصن في بيت خالٍ أشار له. انطلقت نحوه وأمامي بيسان فيما تحصن هو في آخر مقابلنا، نزعت اللفافة عن عنقي.. كتفي ما زالت تؤلمني، حركتُ يدي ببطء

لأحكم قبضتي على السلاح، رأيتهم يدخلون ويطالبون بتسليمنا وإلا تعرض أهل البلدة للقتل والسبي. يبدو أن أحدهم تتبعنا ليلة مغادرتنا، ليس عندي احتمال غيره. أبو عمار أطلق النار ليردي أحدهم، فر البقية ولاذوا خلف السواتر وجدران البيوت كالفئران ثم صبوا حمم النار على البيت الذي فيه أبو عمار، أطلقت النار عليهم فانصرف جزء من نارهم نحوي، بضع دقائق حتى شاركنا أهل البلدة إطلاق النار من بيوتهم ليوقفوا تقدمهم.

توقف إطلاق النار بيننا ثواني قليلة، سمعت بعدها صوت صفير يعبر الهواء وينفجر في أحد البيوت ثم قذيفة أخرى لتسقط قرب بيت آخر، ليتوالى تساقطها على القرية، سمعت صراخ أحد الأهالي وهو ينطلق مطلقا الرصاص فانهال عليه وابل من الرصاص لينقطع صوت صياحه، تألمت لِما حل به، لا بد أنه فقد عائلته، أنا سبب هذه الحرب التي حلت بهذه البلدة، قدومي أجهز عليها وزاد من آلامها، لو كان الأمر مرتبطا بي لضحيت بنفسي من أجلهم، أمري مرتبط بمن هي بقربي بل في قلبي، أهتم لآلام الآخرين إلا أنها هي كل اهتمامي. سمعت صوت صفير آخر، تطلعت فوقي ورأيت قذيفة تخترق

الهواء بين حبيبات الثلج، حنت بيسان رأسها للأسفل، ممسكة بصليبها الذي على صدرها وتدعو، مرت القذيفة من فوقنا لتسقط خارج البلدة وتنفجر، اشتد عندها صوت تبادل إطلاق النار، رأيت سيارات مسلحة تتخلل الشوارع ورجالا مسلحين يترجلون ويستترون خلف البيوت، مدفع رشاش على إحدى السيارات يطلق النار خارج البلدة، رأيت أبو عمار يخرج من البيت ويركض تجاهنا، دخل عندنا وناولني مفتاح سيارته، علي الخروج والاتجاه شمالا نحو إدلب وتَجنُب الطرق الرئيسية، تبعد ساعة من هنا.

رفضت وأصررت على البقاء والقتال معهم. صفعةٌ منه أدارت رأسي ثم أمسك رقبتي، طالبا مني التزام وعدي الذي قطعته لوالد الفتاة. يشير لها ويده تضغط على رقبتي.

- ليست معركتك هذه وإن طلبوا استسلامك، الثوار يتدخلون الآن لردعهم، عليك الخروج حالا. قالها.

جرح راحة يدي حين وضع المفتاح بشدة فيها، ثم قادنا للسيارة وهو واضع ذراعيه حولنا كطير يحمي فرخيه بجناحيه، صعدت السيارة وطلبت من بيسان الاحتماء. انطلقت وأزيز الرصاص مازال يدوي وصورة أبو عمار تملأ عيني حين رأيته

يلوح لي بالمرآة.

قعدت بيسان على الكرسي حين ابتعدنا عن البلدة، تجنبت الطرق الرئيسية كما نصحني أبو عمار، كلما رأيت طريقا ذا مسارين تجنبته، انحدرت لواد فسيح رأيته ممتدا أمامي على مدى نظري تحده الجبال العالية، أخبرتني أنه سهل الغاب ونحن نتجه غربا نحو مكان أشد خطورة وتحصينا من العصابات المسلحة، إدلب يميننا. أشارت جهة اليمين بخنصرها، كانت تتعمد ذلك لأرى شعرات رأسي التي ربطتها عليه، لفت جسمها ونظرتْ لي بعينيها الناعستين.

– ضياء.. كل ما مر بي من أهوال يهون أمام رحيلك عني، أريدك أن تعلم ذلك فقط.

قالتها ثم أسندت ظهرها للمقعد. عبرت الحقول حتى اعترضني طريق ذو مسارين كبيرين، اجتزته وابتعدت عنه، ثم سرت على طريق يتجه شمالا والجبال عن يساري، نظرت للوقود المتبقي ربعه في الخزان، الشمس ساطعة والغيوم متفرقة تزخرف السماء الزرقاء، اقتربت من أحد الجبال حين رأيت ماء ينزل منه، توقفت وأخذت قنينة فارغة كانت في السيارة، نزلت لأملأها. وبينما كنت كذلك انتبهت لسيارة متوقفة بعيدة

عنا جهة الجنوب، كأن أحدهم يحدجنا بمنظار مكبر، لم أكن مخطئا حين رأيت السيارة تنطلق نحونا بسرعة، رميت القنينة بعد إغلاقها نحو بيسان وقفزت للسيارة وانطلقت بها سريعا، رأيت السيارة تقترب رغم وصول سرعة سيارتنا إلى مئة وستين كيلو مترا. بيسان تنظر للخلف بذعر، تطلعني أن السيارة تقترب وأحدهم يحاول إخراج سلاح كما تظن. أمرتها بوضع حزام الأمان، فور وضعها له ضغطت على الكابح لتصرخ الإطارات الأمامية وانحرفت يمينا متخللا البساتين حتى توقفت في بستان كرم كبير، خبأت السيارة تحت أحد عروش الكرم، أطفأت المحرك وأخرجت المفتاح ونزلنا لنبتعد عنها ونستتر منبطحين خلف حجارة، مستعداً لوصولهم في أي لحظة.

مرت الساعات سريعة ولم يظهر أحد، الشمس شارفت على المغيب، قضيت تلك الساعات مستمتعا ومتألما بأحاديثها عن طفولتها وحب والدها لوالدتها، كان صديقها ثم حبيبها فتزوجها، قضيا شهر العسل متنقلين بين مدن ثَدي العسل سورية كما يلقبها والدها، زارا عروس سورية قرية دركوش التي وعدها والدها بأخذها يوما لها قبل أن تحترق سورية وتحترق معها والدتها وشقيقاها، نزلت دموعها من غير

أن تبكي، قمت ومسحتها بإبهامي، قبضتْ عليه وهي تبتسم وتطلب مني عدم الرحيل، تشعر أننا سنفترق ولن تكتمل قصتي معها كنهاية القصص السعيدة، تتمنى لو كانت قصتنا كقصص الحب التي تنتهي بزواج البطلين في النهاية، بعدما ذاقا مرارة الافتراق والمآسي التي مرت في طريقهما.

ضممت يديها ورأيتها تبتسم.

- لا أحب أن أخدعكِ، تذكري هذا جيدا، لا أريدكِ أن تحلمي بحب ليس له واقع، حتى هذه الشعرات التي حول إصبعي انتهى مفعولها الآن. أزلت الشعرات من إصبعي فرأيتها تبكي.

- فاجعتي بكَ الآن أكبر من فاجعتي بمقتل أهلي، كم أنتَ قاس. قالتها وأدارت ظهرها لي.

ثم رفضت الصعود إلى السيارة، لم أشأ أن أسحبها فحملتها وهي واضعة ذراعيها حول عنقي وتبكي، أدرت المحرك وانطلقت بعد أن توارت الشمس خلف الجبال، ما إن صعدتُ الطريق حتى رأيت شخصًا يحمل جهازًا لاسلكيا، ابتسم أحدهم حين رآني، كان الشخص أبو الصارم ومعه آخر ملتح. رأيتهما

يصعدان السيارة بسرعة فيما أطلقت الوقود لمحرك سيارتي لتأكل الطريق، لم أستطع إطفاء الضوء فالطريق بدأ يظلم بشدة، لا أحد على الطريق سوى السيارتين اللتين تتطاردان بجنون، سمعت صوت إطلاق نار متكرر، صحت بأن تحشر نفسها تحت درج السيارة، لم تعرني انتباها وظلت تتطلع للخارج مستندة برأسها إلى النافذة، ألمني كتفي بشدة حين قبضت على شعرها وشددتها لتنزل في الأسفل، كان ألم قلبي أشد فتكا من ألم ذراعي القابضة على المقود حين كانت ذراعي اليمنى تشد شعرها، لم تنبس بكلمه، فقط نظرت إلي من تحت وقالت بصوت عالٍ يخترق صوت المحرك الذي ملأ القمرة:

– حبك حل مكان روحي ونزل في أعماق قلبي، قطعكُ لتلك الشعرات قطع صلتي بالحياة، فلست أهتم إن مت أو وقعت جارية لأحدهم.

ما إن نطقت عبارتها الأخيرة حتى ضغطت أكثر على وقود السيارة لتنطلق بقوة كأنها أحست بغضبي وغيرتي عليها، رأيت لوحة مكتوب عليها دركوش خمسة كيلو مترات يسارا، تذكرت كلمات الأستاذ بديع بسرعة، عندما ذكر لي أن نهر العاصي يدخل إلى تركيا من خلال بلدة دركوش السورية، ضغطت

على الفرامل بقوة لتنحني يساراً باتجاهها، فتبعاني.. أمسكتْ صليبها وأخذت تدعو. دعوتُ الله أيضا بأن يخلصنا منهم. صعدنا عبر طريق فيه انحناءات شديدة ومظلم جدا، ثم نزلنا لتزداد سرعة السيارة وتصل مائتين كيلو متر، اقترب مطاردونا أيضا منا واضطررت لتخفيف السرعة عند منحنى فاصطدموا بنا، ترنحت السيارة بشدة، حاولت أن أثبتها على الطريق حتى ثبتت، دركوش على مسافة كيلو متر.

فجأة ارتفعت السيارة عاليا ثم ضربت الأرض بشدة، مطب كبير اجتزته بسرعة، رأيت أنوار سيارة مطاردي تعلو ثم تنحني للأسفل عند انقلابها على الطريق، فرحت ولم تكتمل فرحتي حين ضربنا مطبا آخر لتتمايل السيارة، ضغطت على الكابح مما جعلها تنقلب بنا، رأيت ضوءها يسقط على شجر وحجارة وهي تنقلب حتى استقرت على جنبها، كنت قد سقطت في كرسي بيسان، صحت من كل أعماق قلبي..

- بيسان، هل أنت بخير؟

سمعت أنينها وتأوّهها، آلمني كتفي بشدة حين اعتدلتُ، لمست يديها ورجليها وعنقها ووضعت يدي على خديها ثم ضحكتُ من فرحتي بسلامتها. حمدت الله أن السيارة لم

تنطبق علينا، الأشجار خففت من حدة الانقلاب، ضربتُ الزجاج الأمامي حتى سقط، خرجت واستندت إلى شجرة ملتصقة بالسيارة، أخرجتها وابتعدنا، صوت تكسر أغصان الشجرة يملأ المكان، مشينا قليلا ثم سمعنا دوي انفجار خلفنا، لم نر إلا ضوء اللهب المندفع من السيارة الأخرى، لا نرى أمامنا شيئا، العتمة تلف المكان والبرد قارس جدا، اقتربنا من الطريق وسرنا وكأننا نصعد تلا حتى رأينا أضواء البلدة أمامنا، فرحت عندما سمعت صوت النهر، خطونا بخطوات أسرع حتى دخلناها، رأيت خيط دم تجلط على وجهها، توقفت وتفحصتهُ.

- جرح بسيط. قلت.

- جرحك الذي سببته لي أعظم. قالت حين أزاحت يدي بقوة وتقدمت.

- لن نسكن عند أحد، يكفي ما جلبناه من دمار لمن نزلنا عندهم. قالت وهي تكمل تقدمها.

واصلنا طريقنا وسط البلدة الساكنة، لا أعلم كم الوقت الآن أظنها التاسعة، رآنا رجل ونحن نعبر، تردد في الاقتراب

منا عندما رأى السلاح، تتبعت النهر عندما ابتعد عن الشارع، جاريت مجراه قريبا من شاطئه، الأشجار والحجارة تعوق سيرنا البطيء، الجرح بدأ ينبض وكأن قلبا جديد نبت في جسمي، أحسسنا بالإرهاق والبرد تخلل ملابسنا ليصل إلى جسدينا، سمعت نباح كلاب قريبة منا، ابتعدنا عن النهر لنرتاح في أحد المواضع. صعدت على حجارة كأنها درج مصقول، بصيص أضواء البلدة يلقي ضوءه الخافت على المكان كانت نقطة الصراع بين النور والظلام، مما جعلني أرى خيال مدخل مغارة، ترددت في الدخول بيد أن البرد لا يرحم، أخذت حجرا ورميته للداخل بقوة، دخلت ورميت في اتجاهات مختلفة، لا شيء يوجد في المغارة الدافئة، كما أن مسافة ارتطام الحجارة التي رميتها قريبة جدا لا تتجاوز مساحته ثلاثمائة متر مربع. احتلت بيسان زاوية وقعدت أمامها، تركتها تحتضن ظهري وتضع رأسها وتنام وهي تقول:

- أعلم أنك تحبني وإن داريت حبك.

نمت قاعدا أمامها تلك الليلة، أحميها من أي مفترس يدخل المغارة الدافئة، كلما كاد جسمي يسقط أرضا صحوت، رأيت كلبا يهجم عليها ففزعت وأفزعتها، كنت أحلم. فعادت

لتحتضنني واضعة رأسها على ظهري، نمت ورأيت أبو الصارم يدخل علينا عاريا ويهجم عليها، قمت فزعا لتسقط على وجهها وتصحو، غيرت وضع نومي وأسندت ظهري إلى الجدار عندما أحسست بنوع من الاطمئنان وجعلتها تتوسد فخذي وتنام ممددة جسمها.

صحوت على ضوء الشمس وعلى تغريد العصافير وتدفق مياه النهر، الإرهاق جعلني أعود للنوم ولم أصح إلا على شيء يجذب يدي بخفة، رأيت شخصا يحاول أخذ سلاحي الممسك عليه بإحكام، دفعته للخلف ليسقط على ظهره وتحتضنه امرأة وطفلان فجأة! قمت وقامت بيسان، فركتُ عيني ورأيت أمامي رجلا نحيفا، اعترضت امرأة بيني وبينه راجية مني عدم قتله. أخبرتها أنني لن أقتله.

فروا حين داهم المسلحون بلدتهم وحاصروا مخارجها، سيمكثون معنا إلى الليل ثم يتسللون إلى الحدود التركية عبر النهر، لا يعرفون هوية المسلحين الملثمين إلا أن أحدهم يطلب منهم خلال مكبر صوت تسليمهم لفتى مسلم وفتاة مسيحية.

نظرا لبعضهما وأشارا علينا بأننا المقصودون. رفعت

سلاحي من غير أن أقصد إخافتهما فتراجعا للوراء يحميان طفليهما، لن يذهبا ويخبراهم عنا، ليس لهما شأن، يريدان الرحيل عن بلدتهم بعد أن فقدا الأمن والاطمئنان.

مكثنا في المغارة التي أطلعني الرجل على اسمها.. مغارة العبد والجارية، قصة حب جمعت عبدا وجارية، هربا بعد أن طاردهما سيداهما، دفعوا المال لمن يعثر عليهما، حبهما لبعضهما دفعهما للتوغل في الجبال حتى نزلا في هذه المغارة، عاشا في هناء إلى أن هجم وحش مفترس على الجارية فاصطدم العبد به وقاتله حتى صرعه، جرح العبد جرحا بليغا إثر القتال ومات بعد أيام، أتى السكان مع سيديهما للقبض عليهما فوجدوها ميتة على صدره.

كانت المرأة تومئ برأسها مصدقة على حديث زوجها وهو يكمل حديثه..

حتى هذه البلدة الجميلة لم تسلم من قصف العصابة المسلحة، هجرها بعض أهلها والآن سيرحل البقية بعد قدوم هؤلاء المسلحين.

عندما غشانا الليل سمعنا صوتا يقترب، يشبه صوت عميش

لدرجة كبيرة، يبدو أنه أبو النار.. متأكد أنني مختبئ، علي الخروج وإلا قتل شخص كل ساعة بسببِي.

لا دخل لي فيمن يَقتل، حتى إن سلمت نفسي سيطالب ببيسان أيضا وهذا لن يكون ما دمت حيا، لا بد أن أبو الصارم هو من أخبرهم بمكاننا، لن أكون قتيلا لأبو النار كما حصل للعبد مع الوحش، لن يتكرر ما حدث في هذه المغارة للعاشقين، هما استلذا ببعضهما مدة من الوقت فيما أنا وهي لم يتسن لنا ذلك، أهوال مررنا بها منذ أن وقعت في فضاء حبها.. هذه القصة ليست خيالا يروى.. إنما أحداث وقعت، أحببت أن تكتب لما فيها من معرفة طرق خداع العقول النامية وكيفية أن الحب هو الدرع المتين ضد التعصب الأعمى، حب جمع بين شخصين في أتون الدمار والنار، حب ليس مصطنعا أو مخادعا، حبٌ وسادته القلب وفراشه النفس ولحافه الروح، نذوق طعم الجنة إن ذقنا طعم الحب، نعم جنتي أنتِ... كنتِ تسايرينني طول هذه المدة، طلبتُ من كاتبها صياغتها لكِ وحدك من دون الخلق، لكِ وحدكِ بيسان.

أمرتُ الرجل بالانتظار لمنتصف الليل لكي نغادر المغارة، يعرفُ طريقًا خلال النهر الذي سيخفينا عن الأعين. انطلقنا

حين أعلنت ساعة الرجل دخول منتصف الليل وقد بدأ الوهن يأخذ منا بسبب الجوع، لحظة نزولنا قطف الرجل ثمرًا من إحدى الشجر، أكلناه على ما به من حموضة لاذعة فرحل الوهن وأحسست بنشاط بعد دقائق، سرنا على طرف النهر حتى اقتربنا من قارب مستدير مصنوع من البلاستك، حشرنا أجسادنا فيه والطفلان في الوسط، أعطاني عصا لأساعده بدفع القارب عن الصخور، اندفع مع التيار بسرعة وكلما اقترب من الصخور دفعته عنها لينساب مع الماء، وصلنا لطريق شبه مسدود، نزلنا وحملنا قاربنا حتى رأينا قوة التيار فوضعناه لننطلق ونقطع مسافة طويلة حتى ارتطم بصخور... وصرخ طفل. أصوات تعلو طالبة منا التوقف. أطلقوا النار، سمعنا صوت اختراق الرصاص للماء يقترب منا، رأيت أنني سأتسبب في مقتلنا، طلبت من الرجل إكمال الطريق وليحرص على الفتاة، ألقيت نفسي بالماء وسط صراخ بيسان والرجل ممسك بها..

- ضيااااااء.

أطلقت النار نحوهم فأتت الطلقات صوبي، سمعتُ وقوع جسمٍ في الماء والرجل يصرخ بأنها سقطت.

هل بين قلوب الأحبة جاذبية يستشعرون أحاسيس بعضهم خاصة في ساعات الخطر؟ سمعت أن القلب ينقبض إذا حصل لأحد أحبابه مكروه وإن كانت تفصله آلاف الأميال، لم تكن تبعد عني مسافة كبيرة إلا أن ظلام الليل كان مطبقاً تماماً، سمعتُ صوتها المتقطع وهي تغرق. قذفتْ بنفسها خلفي، متناسية أنها لا تعرف السباحة، وحده الله قادني إليها، كنت أتخبط في الماء، شاردا عما حولي من رصاص يبحث عن الاستقرار في جسدي، لا أسمع إلا صوت نبضات قلبي الهلع عليها، يدي وقعت على شعرها الغارق في الماء، جذبتها منه ثم قبضتُ على معطفها وأفلت سلاحي، سحبتها نحوي لتتعلق بي بقوة وهي تسعل الماء، عُمتُ متجها نحو الضفة الأخرى بعيدا عن مطلقي النار، استترنا بين غصون الشجر حين أضاءوا المصابيح الكاشفة، بدأوا بالبحث عنا، نظرت لها معاتبا بصوت خافت.. أمجنونة أنتِ..؟ لا أعلم كيف اهتديت لكِ وانتشلتك؟

– قفز قلبي عندما قفزتَ. قالت.

لم أرد عليها فيما كانت جماعتي السابقة تقترب منا، عُمنا محاذين الشاطئ وصوت الأقدام يقترب أكثر فأكثر، آليات

اخترقت الأشجار وسلطت الضوء، أحسست بنزيف الجرح والسمك يصطدم بجسمي بشراسة ليشرب من دمي محاولا الدخول من الثقب الذي في المعطف ليقتات على لحمي، بيسان أحست بالسمك أيضا، كادت تصرخ من اصطدامه الجنوني بنا، لا تعرف سبب ذلك؟

خرجنا من النهر مضطرين بعد أن قطعنا مسافة طويلة، لا أعلم أين الحد التركي؟ يبدو أنه بعيد عنا، لا أستطيع البقاء في النهر وإلا مزق السمك معطفي وأكلني حيا. دخلنا بين شجر كثيف واستترنا خلف حجارة متراصة، أتيتُ بأغصان الشجر ووضعتها علينا، أحسسنا ببعض الدفء، والإرهاق أعيانا، والنزيف جعلني أشعر بدوار ليغمى علي.

أحسست بحرارة ورعدة في جسدي، فتحت عيني ورأيتها تبكي واضعة رأسها على صدري، وسط نور الصباح وصوت رجال يبحثون عنا، أغمي علي مرة أخرى.. وآخر شيء التقطته هو.. شفتي بيسان تقبلني.

صحوت مجدداً.. لا أعلم كم من الوقت قضيته فاقدا الوعي، ما زالت في مكانها، أحسست بدبيب النشاط رغم البرودة التي تسري في أوصالي، أصواتهم تتعالى يبدو أنهم قريبون جداً

منا.

– بيسان. قلت. التفتت برأسها إلي، عيناها حمراوان ذبلتا من كثرة البكاء.

– نعم حبيبي. كلمة قالتها فبثت نشاطا مضاعفا في جسمي المتهالك.

– وحده الله يعلم نهايتنا إلا أننا لن نستسلم، سننطلق بأقصى قوتنا فلا تلتفتي لي إن سقطت، اهربي فقط. هزت رأسها إيجابا.

نظرتُ حولي ورأيت ظل الشجر واحمرار السماء، لا بد أنه وقت المغيب وتركيا غربا. أبعدت أغصان الشجر عنا ببطء ثم ركضنا نعتلي التل وخلفنا النهر. سمعونا وأطلقوا الرصاص بجنون لم أسمع مثله من قبل، الشجر وقانا، وعندما اعتلينا التل نزلنا فسترنا من الرصاص، جرينا وسط سهل واسع وقرص الشمس يغيب أمام ناظرينا وكأنه يطوي صفحتنا معلنًا نهاية قصتنا. الرصاص يعبر أمامنا وقذائف المدفع تنفجر حولنا والأرض تهتز من تحتنا، يدي ممسكة بيدها، لا أهتم إن قتلنا معا، سقطت قذيفة خلفنا وتناثر التراب علينا، بدأت

قواي تخور وتتقطع رؤيتي، فُجع قلبي عندما رأيتهم يقتربون أمامنا ويحيطون بنا، صرخت باسمها.. بيسان.. اهربي.. حين سقطت على الأرض وغبت عن الدنيا.

* * *

أحاطني الظلام إحاطة الطوق بالرقبة، خيال يتقدم نحوي حتى تبدى وسط العتمة، كان الخيال جدي مبارك بنفسه، مشيت ثم ركضت إليه وحين اقتربت منه نهرني بقوة! طالبا بأن أتوقف بعيدا عنه.. أفعالي أغضبته، لم أتعلم مما كان يحكيه، أنا صورة مكررة من عائلتي أيضا.. من والده ومنه ومن والدي، نختلف في الأشكال إلا أن مضمون الأحداث واحد، فقدُنا للأحباب ليس نهاية الدنيا، علينا مواصلة الطريق في نقل صور أحبابنا حية لمن يحبوننا، حضر لأنني على وشك الموت، إن عشت فعلي أن أصحح مساري وأكفر عن أخطائي، انقطع كلامه حين لفه الظلام واختفى ثم بان من جهة أخرى..

بيسان..! فزع قلبي حين ذكر اسمها وتعجبت من معرفته بها.

بيسان فتاة طيبة جميلة، ستعثر على السعادة في أي زاوية من الدنيا، يجب ألا أربط سعادتي بها أو بغيرها، سأندم وأنهار إن حدث لها شيء، سعادتي ملك لي لا أن أسقطها على غيري، يجب أن أحتفظ بها لنفسي. كان يحدثني وهو منفعل، لم أعهده على هذه الصورة.

- جدي.. لا أملك زمام قدري.. مفتاح سعادتي في جيب

قلبها، لا تطلب مني ما لا أملك، لم تجرب الحب يوما، هو خاطف للقلوب، نُنهك حين نطارده، ألمهُ الشديد فيه لذة، ونعيمه يا جدي قطعة جنة بل هو الجنة بأسرها. قلت له.

ثم رأيت صورته ترحل عني وسط برق بيننا، اشتد البرق مرة أخرى ليخفي معالمه وصوته يقول:

- وفقك الله.

عاد البرق من جديد ليُحيل الظلام نورا وأرى أشباحًا أمامي، سمعتهم يتكلمون بلغة لا أفهمها، صوت وحيد فقط من فرح له قلبي يقول:

- شكراً للرب. صوت بيسان التي اقتربت مني وهي تبكي وتقول بفرح:

- ضياء.. نجونا... نجونا حبيبي.

غلبني الظلام من جديد ورأيت الأستاذ بديع يبتسم لي، يشكرني على ما فعلته لابنته والدموع تموج من عينيه، طلب مني أن أكون عونا لها في الدنيا، ما قيمة الإنسان بلا عمل الخير، كان طينة حوت مُختلف المعادن..عند مس النار الشيطانية لها تمتاز ما حوته طينة كل شخص منا، ثمرة آدم تتكرر في الدنيا

على شكل فتنة لكل إنسان منا، حسب مكانته وموقعه.

بُني.. بيسان هي ما تبقى مني.. فأبعد التعاسة عنها وابسط السعادة لها. رأيته يرحل وأنا أصرخ فيه، هل عفوت عني. شبح ابتسامة رأيتها منه قبل أن يختفي.

صحوت على طبطبة على خدي وصوت يطلب مني أن أستيقظ، وجه بيسان ملأ عينيْ ليحل مكانه وجه امرأة سمينة خداها مكتنزان، تفتح عيني بإصبعها وتلقي ضوءا خاطفا عليها، تتكلم بلغة غريبة وتنظر للمحاليل المعلقة وكيس الدم، نظرتُ إلى بيسان التي لبست قميصًا أبيض وبنطال جينز أزرق.

- أين نحن؟ قلت.

- في مستشفى الحياة في أنطاكيا. قالت.

- أنطاكيا!

* * *

لحظة سقوطِه على الأرض سقطتُ جانبهُ، تفقدت جسمه خوفا من أن تكون رصاصة ما اخترقته فلم أجد إلا جرحه القديم قد انفتق وسال منه الدم الغزير، رأيتهم يقتربون منا بآلياتهم، لو كنت أملك مسدساً لقتلت نفسي، لن ينتشلوني منه إلا جثة هامدة، رأيتهم يتخطوننا ويرمون خلفنا ومدفعيتهم تقصف، رفعت رأسي لأرى العلم التركي يرفرف على دبابة بقربي.

كُنا في الجانب التركي طوال الوقت وهم في الجانب السوري، فصلنا النهر العاصي الذي عصا أن يقتربوا من العاشقين، سأطلق عليه نهر العاشقين بدلا من العاصي.

أسعفوك إلى مستشفى ميداني، أخبرتهم أنك كويتي ولستَ سوريا، اتصلت بعمتي التي بكت حين سمعت صوتي، لم ترني منذ عشر سنوات.. أهلي ماتوا إلا أبي يتلقى العلاج في أحد مستشفيات تركيا.قلت لها. ستحضر في أقرب وقت، بعد إغلاقي للهاتف، رفعته واتصلت بالسفارة الكويتية بعد أن أخذت رقمها من الدليل، تجاوبوا معي بسرعة كانوا يبحثون عنك، سرعة ردهم سريعة، خلال يومين نقلوك لمستشفى الحياة وعند تعافيك سينقلونك لاسطنبول لتلقي العلاج، خمسة أيام وأنت في غيبوبة إلى أن توقف قلبك فصعقوك بالكهرباء ثلاث

مرات حتى صحوت، كانت عمتي بجواري حين رأت مني ما يكفي لتقول:

- هذا حب يا ابنتي وليست شفقة.

قصصت عليها قصتي معك، فتحت فمها دهشة مرارا، حتى قالت:

- لكن أين بديع؟

- والدك وصديقاك في طريقهم إليك الآن. قلت له.

* * *

بكى والدي حين رآني واقترب مني واحتضنني، حتى عبدالله وأبو شعرة بكيا، بيسان بكت أيضا والممرضة ذات الخدين المكتنزين، يحمدون الله على سلامتي ويلومونني تارة أخرى. أتت ماريا عمة بيسان مع زوجها قُصي، أرادت تقبيل يدي على ما فعلته من أجلها، سحبت يدي بسرعة منها، لم أفعل إلا الواجب. قلت لها. ارتبكتُ حين سألتني عن بديع؟ وحدها بيسان من صرفتها عني وبأنني لا أعرف أين وضعوه... إلا أنني أعرف تمامًا أين هو..

لا تود الذهاب إلى مدينة عثمانية مع عمتها، تريد البقاء معي وملازمتي، وحده خجلها من والدي دفعها لأن تذهب حين طلب منها الذهاب والعودة غدا، سجلتْ لي رقم عمتها وغادرت وهي مترددة.

– يا ولد.. أبي أروح للجهاد إذا فيه مثل هالصاروخ. قالها أبو شعرة. صمتَ قليلاً ثم أكمل:

يا كبر حظك.. تذبح.

ضحك والدي منه ولامه عبدالله على ما قاله. ثم قصصت

لهما قصتي باختصار والدهشة بادية على وجوههم حتى سأل عبدالله..

- أين بديع؟

- ولِم قتلت عميش؟

* * *

عندما كان بديع يتلقى العلاج في عيادة عين النسر، أخبرني عميش أنه أسر مخبرين كانوا يتجسسون عليهم، طلب مني المشاركة في إعدامهم، لم ينفع اعتذاري حين أجبرني على قتل الخونة، فرضخت لأمره على أمل أن يمد يد العون لبديع ويكون سببا في لقائه بعائلته.

كانت السماء ملبدة بالغيوم والرعد يزمجر والبرق يضرب بسوطه الأرض، عندما أخرجوا خمسة أسرى مقنعي الرؤوس وطلبوا منا إعدامهم، وضعني عِميش عند أحدهم قائلاً:

– ده طازه حب يلعب علينا يا طياء الدين.

عندما أطلقوا النار كنت آخر من أطلق بعد تردد أزاحه عميش بإلحاحه ثم طلب مني أن أكشف القناع عن القتيل، كشفته لأُفاجأ بـبديع أمامي مُكمم الفم! بكيت ساعتها بشدة وبحرقة، ربّت عميش على كتفي قائلا:

– ما عليش.

خدعك وأتى معك إلى هنا ليكشفنا، هو نصراني كافر يتجسس علينا طوال الوقت، كان يحاول الهرب منا، لم يخبرك بحقيقة هويته حتى كشفناه، يصلي معنا ووشم الصليب على

فخذه، أنت مهم لنا وللجماعة، إلا أنك لا تعرف طبع السوريين وخداعهم كما نعرفه نحن، وفاؤك لا ينفع إلا مع جماعتك لا مع كل من يرافقك، جعلناك تقتله لأنه يستحق القتل على يديك لخيانته لك أولا.

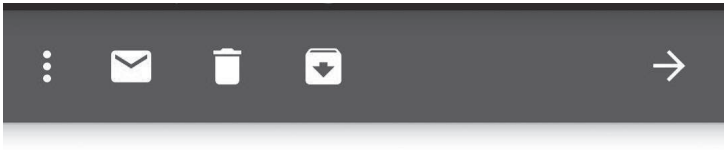
ظللت تلك الليلة أبكي على صديق قتله غباء أرعن أهوج وعلى يدي، لم يهدأ حزني وألمي حتى الآن، إلى أن تعفو عني.

- يا خيس حظك. أكيد البنت ما تعرف. قالها أبو شعرة.

* * *

ترددتْ عليّ بيسان في المستشفى وربطت على إصبعي شعرات من شعرها وهي تبتسم، لم أستطع إخبارها بالحقيقة وجها لوجه، أحببت أن تُكتب قصتي معها لكي تَعرف من خلال روايتنا المكتوبة، ليشاركها القُراء قرارها، هل ستطوي صفحتي وتنهيها، أم تفتح صفحة جديدة حين تعفو وتصفح، لتكتب لها البداية.

* * *



(الرواية) البريد الوارد



إخفاء التفاصيل

من: الروائي عادل الرشيدي idihsarla@gmail.com

إلى: بيسان تركيا bissan_len.a@gmail.com

التاريخ: ٤ سبتمبر، ٢٠١٤ ٠٩:٢٢

اقرئيها. . انتظر ردك و موافقتك على النشر.



رد الرد على الكل إعادة توجيه

جرس الهاتف يرن منتصف الليل، نظرت للرقم ٠٠٩٠٢١٢٥xxxx.

صوت مُنتحب على الخط حين فتحته!

- أستاذ عادل حكايتنا ليست خيالا لتلهو بها، لستَ القدر ليحدد المصير وتفاصيله، هل حقيقي ما ذكرته؟

- بيسان لم أكتب شيئا كثيرا من الخيال، غير أنني غيرت الأسماء فقط، إلا لقبكِ أنتِ كما اتفقت معه، ليكون عنوانًا للرواية، هذه القصة التي كَتبها لي بنفسه وقد مزجتها مع ما دونتهِ أنتِ وصغتها في إطار روائي.

تركتها تبكي دقائق حتى قالت:

- أين هو؟

- اختفى منذ أن ذهب لزيارة جده في الولايات المتحدة الأمريكية. قلت.

أطبق صمت طويل بيننا إلا من انتحابها حتى قلتُ:

- هل ستغفرين له.. أم.. ماذا؟

- لحبنا أشكال ومذاق مختلف، أسماها حب الوالدين.. وألذها حب العشيق.. يزداد حلاوةً كلما كان الحب صادقًا، حُبه نبيل جدًا ويفوق حبي له بمراحل، أصبحت بين ماضٍ أسود سيلاحقني كلما رأيته وحب سأطارده كلما اختفى عني. (تبكي)

قطعت وعدا لأبي بعد زيارتنا لكنيسة أم الزنار بألا أحب مسلمًا، إلا أني أحببته بصدق متناسية ذلك الوعد، بعد قيامه بالتضحية بحياته من أجلي، معرفتي بالفاجعة جعلت ما بيني وبينه حفرة كبيرة جدا، إن قفزتها حتما سأقع في قرار لا قاع له تبتلعني ظلمته وإن كنت أحبه. (يزداد بكاؤها).

أصبحتُ بين برد حبهِ وحرقة مقتل أبي، كيف يطيب عيش من كان بين جنة ونار.. مع علمي أنه لم يكن قاصداً.

آه.. كم أنا تعيسة الطالع.. نعم أفتقده.. أنا في صدمة الآن.. أريد سماع صوته ولا أريد.. ليتك لم تخبرني.

طو..طو..طو.

(صوت إغلاق الهاتف).